# تاريخ الدولة الإسلامية

## الجزء الأول
## صدر الإسلام

دكتور عبد المحسن طه رمضان

الطبعة الثالثة
القاهرة ٢٠٠٦م

# المقدمة

المقصود بتاريخ صدر الاسلام عصر النبوة بطوريه المكى والمدنى، فضلاً عن عصر الخلفاء الراشدين. وفى هذه الفترة اتسم التاريخ الاسلامى بخصائص ميزته عن الحقبة السابقة التى اصطلح على تسميتها بالعصر الجاهلى والحقبة اللآحقة التى تتمثل فى الخلافة الأموية. فقد شهدت هذه الفترة تأسيس الدولة العربية الاسلامية بقيام حكومية مركزية مركزها المدينة المنورة ضمت شبه الجزيرة العربية إبان حياة الرسول ﷺ، ثم توسعت فى العصر الراشدى بضم بلاد العراق وإيران بعد إسقاط الامبراطورية الساسانية؛ وكذا انتزاع الشام ومصر وإفريقية بعد معارك مظفرة ضد الامبراطورية البيزنطية، وهو ماشكل بدايات تكوين الإمبراطورية الإسلامية.

ولعل ما حدا بالدراسين إلى إطلاق اصطلاح صدر الاسلام على تاريخ تلك الفترة، أنه تميز باكتساء السلطة الحاكمة طابعاً دينياً، بمعنى أن الشريعة الاسلامية من قرآن وسنة واجتهاد كانت الأساس الذى ارتكز عليه نظام الحكم، وذلك باستثناء خلافة عثمان بن عفان وخاصة بعد السنوات الست الأولى من حكمه ، الأمر الذى أدى إلى اغتياله. ونعتقد أن الحكومة الثيوقراطية ( الدينية ) يجب أن تفهم فى إطار كون الاسلام دينا ودنيا فى وقت واحد ، أى عقيدة وشريعة أو بمعنى آخر اديولوجية عامة تنطوى على أبعاد اقتصادية واجتماعية و سياسية وثقافية، بحيث جرى تقنين وتطبيق نظم الحكم على هديها. وذلك على عكس ما حدث إبان العصر الأموى حيث ضرب بنو أمية بالشريعة الاسلامية عرض الحائط واكتسى نظام خلافتهم بطابع دنيوى قح، رغم ادعائهم التشبث بالطابع الثيوقراطى.

**ومن أهم مصادر تاريخ صدر الإسلام ما يلى :**

**( ١ ) *القرآن الكريم* :**

تأتى أهمية القرآن الكريم ليس فقط من زاوية تاريخ العقيدة وتاريخ التشريع والتاريخ الأدبى البلاغى، وإنما – وهو ما يعنينا – فى التاريخ الاقتصادى والسياسى. فكون القرآن انطوى على المصدر الأول للتشريع يعنى أنه يقدم صورة واضحة عن السياسة العامة التى جرى اتباعها فى معالجة كافة المشكلات الحياتية المعاشية، كما يمثل المعيار الذى يمكن فى ضوئه تقييم هذه السياسة تشبثا به أو بعداً عنه. هذا

بالإضافة إلى كونه سجل كامل لا يرقى إليه الشك للوقائع والمجريات التى شهدها عصر الرسولﷺ ، فيبين تطور الدعوة الإسلامية، ويشير فى مناسبات عديدة إلى الدور الذى قام به الرسولﷺ فى تكوين الدولة الإسلامية، بحيث أن كل سورة فيه تذكر بفترة معينة فى حياته أو حادثة محددة.

وهذا يفسر اهتمام المستشرقين بترجمته إلى اللغات الأوربية وإجراء فهارس وتصنيفات للموضوعات التى يعالجها، ليسلس بذلك دراسة تلك الموضوعات فى قالبها التاريخى، وذلك على الرغم من إنكار الكثيرين من هؤلاء المستشرقين لقيمة المعلومات التاريخية فى القرآن الكريم. ولا ندعى أن القرآن كتاب فى التاريخ، فهو أسمى من أن يكون كذلك ، وإنما لاغنى لدارس تلك الفترة والتاريخ الإسلامى عموماً عنه باعتباره المصدر الأول لدراسة هذا التاريخ للأسباب التى أوردناها سلفا.

**(٢) *الحديث والسنة النبوية* :**

يعنى الحديث النبوى ما أوثر من أقوال عن الرسولﷺ بصدد معالجة مشكلة من المشكلات التى لم يرد بصددها نص فى القرآن؛ أما السنة فتمثل أفعاله. وهذا لايعنى أن ما أوثر عن الرسولﷺ من قول أو فعل جاء منافيا أو مخالفا للمبادئ الإسلامية العامة التى انطوى عليها القرآن. وإنما هى مكملة وموضحة ومفسرة ومطبقة لهذه المبادئ على الصعيد العملى، باعتبار الرسولﷺ هو المفسر الأول للعقيدة والمشرع الأول للأحكام، انطلاقاً من كونه حاكماً للجماعة الإسلامية. وتتضح أهمية الحديث والسنة كمصدر تاريخى بما تلقيه من أضواء على سياسة الرسولﷺ فى الحكم والتشريع، فضلاً عن مواقفه التى اعتبرت مثلاً أعلى يحتذى فى مواجهة مشكلات المجتمع الإسلامى المتطور.

وقد جرى تدوين الحديث نقلاً عن الصحابة والتابعين وتابعى التابعين نتيجة لشيوع ظاهرة الانتحال والوضع، سواء من جانب القوى غير الإسلامية الحاقدة على الإسلام أو من جانب الأحزاب والفرق السياسية التى حاولت تبرير مواقفها بالحق أو بالباطل. وقد اتبع المحدثون منهجاً نقدياً يعرف باسم « الجرح والتعديل » فى تبيان الصحيح من المنتحل وذلك عن طريقين :

الأول التأكد من صحة الإسناد أى الرواة الذين تداولوا الأحاديث جيلاً بعد جيل ؛ والثانى التأكد من انطباق متن الحديث أى الموضوع الذى يعالجه على هذه المبادئ الإسلامية العامة التى وردت فى القرآن الكريم أو أوثرت عن الرسول ﷺ.

وعلى الرغم من الخلاف الشديد بين المصنفين للحديث والسنة وخاصة بين محدثى الفرق الإسلامية – فى تقدير الصدق أو الكذب – فإن الثقة كبيرة فى مدونات من عرفوا « بالستة الصحاح » ، وهم البخارى ( ٢٥٦هـ / ٨٧٠م )، ومسلم ( ٢٦١هـ / ٨٧٥م ) ، وابن ماجة ( ٢٧٣ هـ / ٨٨٦م )، وأبو داود ( ٢٧٥هـ / ٨٨٨م ) والترمذى ( ٢٧٩هـ / ٨٩٢ – ٨٩٣م ) ، والنسائى ( ٣٠٣هـ / ٩١٥م ).

**(٣) الوثائق :**

المقصود بالوثيقة المصدر التاريخى الذى يتصل مباشرة بالحدث أو الواقعة، كالمعاهدات والاتفاقيات وعقود الملكية وطرق الجباية وأعطيات الجند والرسائل الديوانية ... إلى غير ذلك من المستندات ذات الثقة الكبيرة فى صحتها، والتى كانت تحفظ فى سجلات خاصة توضع فى الدواوين وبخاصة فى ديوان الإنشاء والمكاتبات.

ومن المعروف أن الدولة الإسلامية كان لها نظمها المتحضرة وأساليبها الراقية فى كتابة وحفظ وثائقها، التى كانت تكتب بادئ الأمر بلغة الشعوب الخاضعة للخلافة الإسلامية حتى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان، الذى عرب الدواوين وجعل اللغة العربية هى اللغة السائدة فى مكاتبات الدولة.

وعلى الرغم من ذلك فإن حظ مؤرخ تاريخ صدر الإسلام سيئ للغاية، بسبب ندرة الوثائق التى يمكن الرجوع إليها لاستقاء مادته التاريخية ، وذلك لأن العصر الذى نحن بصدد دراسته لم يشهد رواج عملية التدوين لعدم معرفة صناعة الورق آنذاك، كما أن الصراع المذهبى بين الحكومات المتعاقبة على الدولة الإسلامية كان من أسباب العبث بالوثائق عن طريق حرقها أو تحريفها نكاية فى الخصوم ، فنسمع مثلاً عن احتراق ديوان الكوفة فى عام ٨٢هـ /٧٠١ م بما فيه من وثائق أثناء إحدى

الثورات ضد الحجاج بن يوسف الثقفى. يضاف إلى ذلك أن الدولة العباسية التى جاءت بعد الدولة الأموية لم تكتف بالقضاء عليها وإنما قضت أيضاً على أوراقها الرسمية، كذلك فإن ما تعرض له العالم الإسلامى من أخطار خارجية – كالغزو المغولى مثلاً – قد عصف بتراثه الوثائقى.

لذلك فإن ما تبقى من وثائق صدر الإسلام قليل للغاية يتمثل فيما حفظته كتابات بعض المؤرخين المسلمين مثل ابن سعد (٢٣٠ هـ/ ٨٤٥ م)، والبلاذرى ( ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م ) والقلقشندى ( ٨٢١ هـ / ١٤١٨م ) وغيرهم. وبطبيعة الحال فلا يمكن أن نسلم تسليما تاماً بصحة ما أورده هؤلاء المؤرخون من نصوص وثائق صدر الإسلام، وذلك لأنها كانت قد تعرضت للتزييف انطلاقاً من المواقف السياسية والطبقية والمذهبية لهؤلاء المؤرخين الذين عاشوا خلال العصر العباسى وبعده .

**(٤) *النقوش الإسلامية*:**

يقصد بها ما كتب على العمائر الإسلامية من مساجد وقلاع وقصور وغيرها من منشآت، وهى بالغة الأهمية فى دراسة الحضارة الإسلامية من جوانبها المادية والروحية والفكرية، فضلاً عن تصحيح الكثير من الأخطاء المتعلقة بالتاريخ السياسى. كما أنها تلقى ضوءا غير مباشر على الأوضاع الاقتصادية إذا وضعنا فى الاعتبار أن العمران يزدهر فى عصور الرخاء الاقتصادى والعكس صحيح.

ولدينا نقوش ضئيلة تتعلق بالفترة موضوع الدراسة لأنها عصر حروب أكثر منها عصر بناء ، ولأن غالبية تلك المؤسسات العمرانية قد انهارت بفعل الزمن وأصبحت أطلالا، ومع ذلك فقد وصلتنا ثلاثة نقوش فقط قليلة الأهمية تتعلق بالسنوات ٢٢ هـ، ٢٩هـ ، ٣١هـ .

وقد اهتم المستشرقون بالنقوش الإسلامية فنقبوا عنها وجمعوها وصوروها ودونوها فى مصنفات وكتب ، ومن أشهر هؤلاء المستشرقين فان برشم Berchem Van وڤيت وكومب Combe وسوفاجيه Sauvaget

**(٥) *المسكوكات* :**

يقصد بها العملة أو النقود الإسلامية ، ومعلوم أن العرب فى صدر الإسلام قد اعتمدوا السكة الفارسية ( الدرهم ) والبيزنطية ( الدينار ) ، ولم تضرب نقود إسلامية عربية خالصة إلا فى خلافة عبد الملك بن مروان.

والعملة مصدر فى غاية الأهمية لدراسة التاريخ، إذ يمكن فى ضوئها معرفة الكثير من المعلومات الموثوق بصحتها، فهى تفيد فى دراسة تطور الخط العربى، ودراسة النظم الإسلامية بمعرفة ألقاب الحكام وشعارات دولهم، وضبط تواريخ حكمهم، كما يمكن الالمام بتطور وتعاقب الأسرات الحاكمة. ومن العملة يمكن الكشف عن المذهب الرسمى للدولة حيث كان لكل حكومة شعاراتها الخاصة التى تنقشها على عملتها. والعملة أيضاً مصدر أساسى فى الكشف عن الأحوال الاقتصادية رخاء أو كسادا وذلك بمعرفة عيارها أى مقدار الذهب والفضة فى السبيكة. وتفيد كذلك فى الوقوف على بعض الجوانب الإدارية والعمرانية عن طريق ما تتضمنه من معلومات عن الوزراء والولاة والعمال والمدن التى ضربت بها. وأخيراً تفيد فى الوقوف على مدى نفوذ العالم الإسلامى فى « دار الحرب » ، والصلات المتبادلة بين حكام كل منهما.

وقد اهتم المستشرقون كذلك بالبحث عن العملة الإسلامية وتجميعها وفق الزمان والمكان، وكذا تواريخ الأسر الحاكمة فى « دار الإسلام »، وقد صنفوا مجموعات للعملة أهمها ما تحويه متاحف القاهرة ولندن وباريس. ومن أشهر من اهتم بذلك المستشرق لين بول ، والمشتشرق لاڤوا .

**(٦) *الأدب التاريخى* :**

ويقصد به التراث المكتوب سواء فى كتب التاريخ والجغرافية والأدب والطبقات والفرق الإسلامية وغيرها . وإذا كانت كتب التاريخ تهتم بالجانب الفكرى والسياسى بالدرجة الأولى، فإن الكتب الأخرى تحوى تاريخ الشعوب الإسلامية فى جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وإذا كانت كتب التاريخ تنطوى على الكثير من المغالطات لأنها تعبر عن وجهات نظر أصحابها، ولأن معظم ماوصلنا منها من

تاريخ الدولة الأموية يعتمد على الرواية الشفهية، فإن الكتب الأخرى أكثر موضوعية ودرجة الصدق فى معلوماتها أشد وثوقا.

ومن المعلوم أيضاً أن تدوين التاريخ وظهوره كعلم مستقل قد تأخر حتى العصر العباسي، ولذلك فما كتب آنذاك عن تاريخ صدر الإسلام قد تلون برؤية مؤرخين عكسوا ايديولوجياتهم ووضعهم الاجتماعى والطبقى على ما كتبوا. يضاف إلى ذلك ما انطوت عليه كتاباتهم من منظور ضيق، لعبت فى تكوينه العوامل المذهبية والعصبية العنصرية والقبلية دورا هاماً ، كما لعبت الأسطورة والخرافة نفس الدور بسبب عجز الذاكرة البشرية عن استيعاب أحداث ووقائع كثيرة ومتلاحقة عن العصور السابقة.

ومع ذلك فإن المؤرخين المسلمين الأوائل مثل البلاذرى (٢٧٩هـ / ٨٩٢م) ، والدينورى ( ٢٨٢هـ / ٨٩٥م)، والطبرى (٣١٠هـ/٩٢٣م)، وغيرهم قد احتفظوا لنا بروايات متنوعة عن تاريخ العصر موضوع الدراسة، وسجلوا وجهات النظر المختلفة بأمانة وصدق فى غالب الأحيان، كما اتبعوا مناهج قويمة فى تقويم الروايات، فكانوا أول من ابتكر النظام الحولى فى كتابة التاريخ، أى تسجيل الأحداث وفقاً لتتابعها الزمنى، وأفادوا من منهج المحدثين فى الجرح والتعديل أى النقد التاريخى فى تمحيص الروايات وتبيان الغث من الثمين.

ومن أهم كتب الأدب التاريخى التى يعتمد عليها دارس تاريخ صدر الإسلام كتب السيرة النبوية ، وبخاصة الكتاب المعروف باسم : سيرة ابن هشام ( ٢١٣هـ/ ٨٢٨ م أو ٢١٨هـ / ٨٣٤م ) وهو أول كتاب تاريخى عن سيرة الرسولﷺ . وكتب المغازى والفتوح وعلى رأسها كتاب : التاريخ والمغازى والمبعث للواقدى (٢٠٧هـ/ ٨٢٢م )، وكتاب ابن عبد الحكم ( ٢٥٧هـ / ٨٧١م) المعروف بعنوان : فتوح مصر والمغرب والأندلس، وكتاب : فتوح البلدان للبلاذرى ( ٢٧٩هـ / ٨٩٢ م ).

ولا تقل كتب الطبقات والأنساب فى الأهمية عن كتب السيرة والمغازى والفتوح، ومن أهمها كتاب : الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد ( ٢٣٠هـ / ٨٤٥م ) الذى يلم فيه بسيرة الرسول ﷺ ومغازيه، وسير الخلفاء الراشدين والأمويين والصحابة

وغيرهم حتى عهده. وكتاب : أنساب الأشراف للبلاذرى الذى يسوق فيه تاريخ الأرستقراطية العربية على شكل قصص تتناول تاريخ الشخصية وأسرتها.

أما كتب التاريخ والأخبار فنذكر منها كتاب : الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى ( ٢٨٢هـ / ٨٩٥م ) ، وكتاب : التاريخ الكبير لابن واضح (٢٨٤هـ / ٨٩٧م )، وكتاب : تاريخ الأمم والملوك للطبرى (٣١٠هـ / ٩٢٣م ) ، والكامل فى التاريخ لابن الأثير ( ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م ).

وإلى جانب ذلك هناك كتب متعددة فى الجغرافية والنظم والفرق الدينية والأدب لا يستغنى عنها دارس تاريخ صدر الإسلام .

# القسم الأول
## ملامح من تاريخ العرب قبل الإسلام

# الفصل الأول
# الجغرافية الطبيعية والبشرية لبلاد العرب

**(١) الجغرافية الطبيعية :**

لاجدال فى أن دراسة الجغرافية ضرورية لفهم التاريخ، لما لها من دور فعال فى توجيه النشاط البشرى وتحديد أنماط الحياة البشرية إلى الدرجة التى جعلت بعض الدارسين يربطون بين الموقع الجغرافى ونشأة الحضارة، كما يربطون بين طبيعة البيئة الجغرافية وتطور الحضارة . ومن ثم فمن الضرورى أن نتعرف على جغرافية شبه الجزيرة العربية - وهى الموطن الأصلى للعرب - لنتبين مدى أثرها فى توجيه تاريخهم وحضارتهم.

ولما كانت التغييرات الطبيعية التى تطرأ على البيئة من حيث شكل الأرض وأحوال المناخ تتم بطريقة بطيئة غير محسوسة عبر العصور؛ فإن الطبيعة الجغرافية لشبه الجزيرة العربية - مثلما سجلها الجغرافيون والرحالة نتيجة لمشاهداتهم فى القرون الإسلامية الأولى - لم تختلف كثيرا عما كتبه الرحالة والجغرافيون فى العصور الحديثة، وعما نجده فى كتب الجغرافية المتداولة بين أيدينا. وعلى ذلك فإذا كانت الجزيرة العربية لم تتغير بشكل محسوس منذ أكثر من ألف سنة، أى منذ ظهور الإسلام، فإنه يمكن القول أن طبيعتها لم تختلف كثيراً فى ذلك الحين عما كانت عليه فى الألف سنة أو فى الألفى سنة السابقة على ظهور الإسلام.

وتقع شبه الجزيرة العربية فى الركن الجنوبى الغربى من قارة آسيا، وتحدها من جميع جهاتها حدود طبيعية، إذ يمتد الخليج العربى شرقا، والبحر الأحمر غرباً، وبحر العرب جنوباً، وبادية الشام شمالاً. وقد اختلفت أجزاء شبه الجزيرة فيما بينها من حيث طبيعتها، فالقسم الأكبر منها عبارة عن بادية تتخللها واحات تتجمع فيها مياه الأمطار أو تتسرب فى باطن الأرض؛ أما الوديان فهى قليلة وتتركز على الأخص فى الأطراف ، وترتب على هذا الاختلاف الواضح فى طبيعة البلاد جغرافياً وجود نوعين من السكان، أولهما الأعراب أو البدو الذين يسكنون فى البادية، ويعيشون حياة التنقل والترحال حيث موارد المياه ومواطن الكلأ؛ وثانيهما سكان المدن أو الحضر الذين يشتغلون بالزراعة والتجارة فضلاً عن بعض الحرف المرتبطة بهما.

هذا وقد درج مؤرخو العرب على تقسيم شبه الجزيرة العربية على أساس إقليمى، وبالتالى أصبحت تنطوى بتقسيمهم على خمسة أقاليم كبرى هى :

( أ ) **إقليم تهامة** : وهو المنطقة الساحلية الضيقة الموازية لامتداد البحر الأحمر، من اليمن جنوبا حتى العقبة شمالاً، ويحجزه عن داخل شبه الجزيرة سلسلة جبال السراة التى تعتبر أعظم جبال شبه الجزيرة، وسمى هذا الإقليم بتهامة لشدة حره وركود هوائه، كما سمى بالغور لانخفاض أرضه.

(ب) **إقليم نجد** : وهو الهضبة الوسطى فى شبه الجزيرة، وتقع بين بادية السماوة فى الشمال والدهناء فى الجنوب، وأطراف العراق شرقاً والحجاز غرباً، وهو أوسع أقاليم شبه الجزيرة وأحسنها هواء وأصحها أجواء، وتتخلله كثير من الأودية ذات المراعى الجيدة التى تربى عليها الخيول العربية، ولذلك كانت نجد أطيب أراضى شبه الجزيرة، ومهد عدد من شعراء العرب الذين خلدوها فى شعرهم وترنموا بها فى أناشيدهم.

(جـ) **إقليم الحجاز** : ويقع بين نجد وتهامة، ويحتل مكانة تاريخية ودينية هامة فى نفوس المسلمين باعتباره مهد الدين الإسلامى وموطن النبوة، وفيه من المدن الهامة مدينة مكة وبها البيت الحرام، والمدينة المنورة وبها قبر الرسول ﷺ ومقابر كبار الصحابة، فضلاً عن مدن الطائف وخيبر وفدك وغيرها.

( د ) **إقليم العروض** : ويشمل بلاد اليمامة والبحرين والبلاد المطلة على الخليج العربى، وقد سمى هذا الإقليم بذلك الاسم لاعتراضه بين اليمن ونجد من ناحية والعراق من ناحية أخرى.

( هـ ) **اليمن** : وتشغل الركن الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة، وتطل على البحر الأحمر غرباً وبحر العرب جنوباً، وإلى الشرق منها تمتد حضرموت وعمان ؛ وقد سميت باليمن السعيد أو الخضراء بسبب وفرة مياهها وزرعها وخيرها؛ وبها عديد من المدن مثل نجران فى الشمال وكانت مركزا من مراكز المسيحية قبل الإسلام، وصنعاء فى الوسط، ثم عدن التى كانت محط تجارة الهند والحجاز والحبشة، ولذلك كانت مفتاح الحركة التجارية فى البحر الأحمر، ونقطة الوصل بين الشرق والغرب.

والتساؤل الآن هو إلى أى حد أثر موقع وبيئة شبه الجزيرة العربية فى تشكيل تاريخها وحضارتها ؟

ففيما يتعلق بتأثير الموقع نلاحظ أنه يفصل شبه الجزيرة عن بقية بلاد الشرق الأدنى فى الشمال مناطق صحراوية، فشكلت لها نوعاً من الحماية الطبيعية بحيث لم تتعرض للغزو من ناحية الشمال إلا نادراً، وهو أمر أتاح لها مزيداً من حياة الاستقلال وتأكيد الشخصية العربية. وحسبنا فى ذلك ما آلت إليه الحملة التى أرسلها الوالى الرومانى فى مصر عام ٢٤ ق.م، إذ فشلت لأسباب بيئية فى الدرجة الأولى.

كذلك كان الموقع المتوسط لشبه الجزيرة من أسباب قيام العرب بدور الوساطة فى التجارة العالمية. فهى تقع بين أسواق الشرق الأقصى وأسواق البحر الأبيض المتوسط مما جعلها منطقة عبور للتجارة العالمية. وسنلاحظ أن الدول العربية التى قامت باليمن ارتكنت فى الغالب على التجارة؛ بل إن مكانة مكة قبل الإسلام كانت انعكاساً لدورها التجارى فى الوساطة بين الشمال والجنوب من ناحية، ولكونها سوقاً لعرب شبه الجزيرة كلها من ناحية أخرى.

وعلاوة على ذلك، فقد أتاح هذا الموقع المتوسط الفرصة للعرب للاتصال بدول الشرقين الأدنى والأقصي ومصر، مما ساعد على التأثير الحضارى المتبادل بين شبه الجزيرة وتلك البلاد. فمثلاً تركت المؤثرات العربية بصماتها على اللغة المصرية القديمة، فى الوقت الذى استفاد فيه العرب من المصريين فى هندسة بناء السدود والخزانات. ووجدت مؤثرات حبشية فى الثقافة العربية بل وفى اللغة العربية ذاتها نظراً للاتصال بالأحباش ، مثل : برهان وحوارى وجهنم ومائدة ومحراب ومنبر ومشكاة وشيطان . أما المؤثرات الفارسية فقد تسربت إلي شبه الجزيرة سواء عن طريق سيطرة الفرس علي بلاد اليمن أو من خلال إمارة الحيرة العربية، وبالذات ما يتعلق بأخبار الفرس وفنونهم العسكرية؛ وبالمثل وصلت المؤثرات البيزنطية عن طريق الغساسنة، فالآثار تبرز النمط المعمارى البيزنطى فى القلاع والحصون التى تم اكتشافها فى حوران ، كذلك جري اختطاط المدن علي النسق اليونانى ، وقد تأثر بعض الشعراء العرب ببعض الآراء والاصطلاحات البيزنطية ، كما اكتسبت اللغة العربية الكثير من الألفاظ اليونانية والآرامية مثل : كنيسة وبيعة ودمية وصورة وفدان وقنديل ... إلخ.

ومن جهة أخرى كانت شبة الجزيرة همزة الوصل بين حضارات بلاد الشرق

الأدنى ومصر بعضها ببعض ثم ربطتها بحضارات الشرق الأقصى فى الهند، وذلك عن طريق البحر الأحمر الذى صار الطريق الذى حمل إلى العالم القديم أولى مبادئ الاتصال الاقتصادى والفكرى .

كذلك فإن موقع شبه الجزيرة العربية المتوسط بالنسبة للعالم القديم قد جعلها همزة الوصل بين قارتى آسيا وأفريقيا مما يسمح بنسبتها إلى كل من القارتين؛ فهى بطبيعتها الإقليمية تعتبر امتداداً لصحراء شمال أفريقيا، رغم وجود البحر الأحمر الذى يعتبر موصلاً أكثر منه فاصلاً بين سواحل الحجاز واليمن والحبشة والصومال ومصر. ويؤيد ذلك أن طريق القوافل بين سواحل عمان وتهامة غربا والبحرين شمالا كانت من الصعوبة، بحيث كان طريق المواصلات بينهم هو الطريق البحرى فى الغالب، أما سيناء فكانت البوابة الكبرى لعبور الهجرات من شبه الجزيرة ومن آسيا إلى مصر والمغرب؛ فى الوقت الذى صار فيه مضيق باب المندب معبر المهاجرين من بلاد اليمن إلى الحبشة والصومال والعكس؛ وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار شبه الجزيرة العربية من أفريقيا.

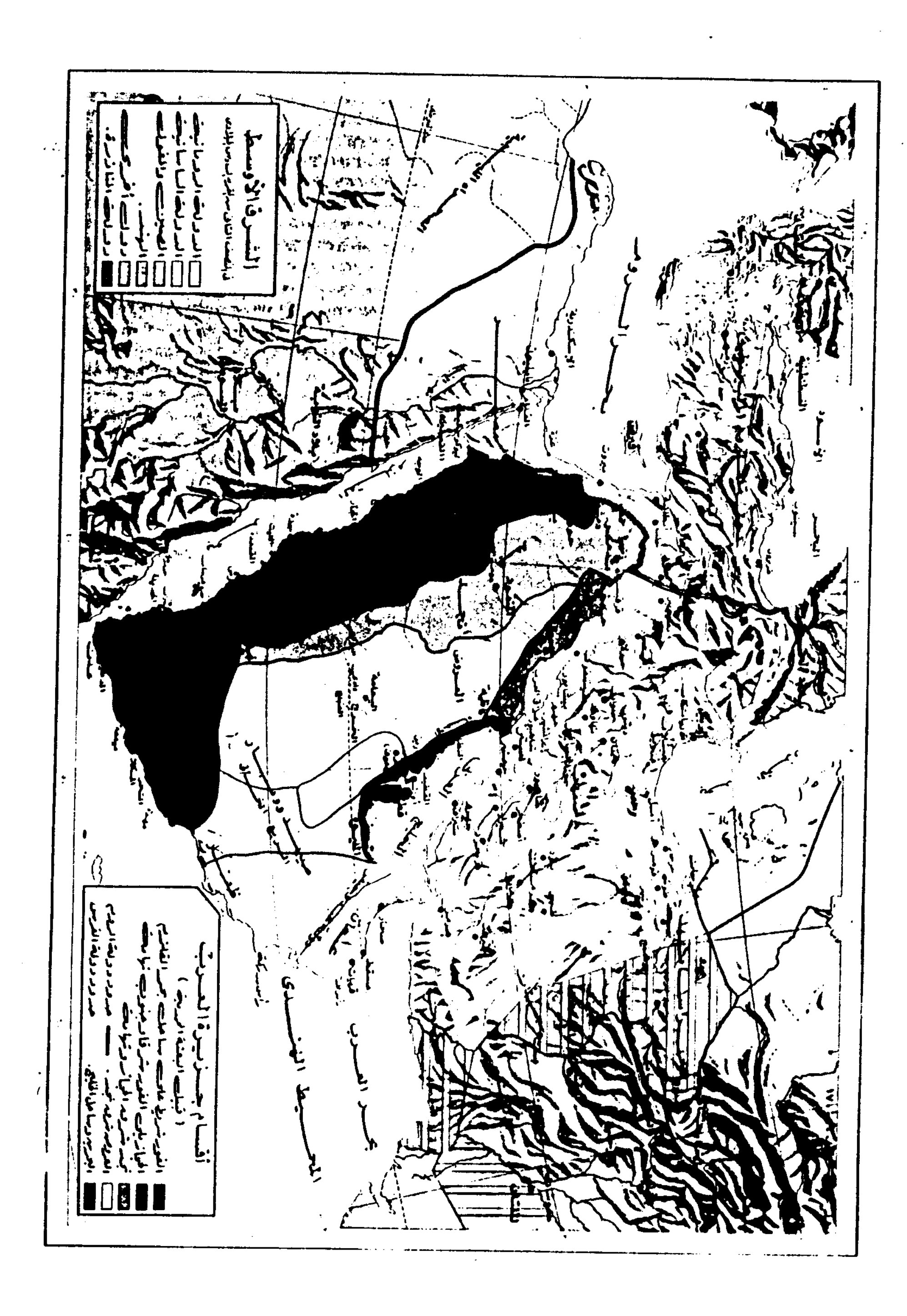
ومثل ذلك يقال عن صلات شبه الجزيرة العربية بآسيا، فإذا كان الخليج العربى يفصلها عن إيران، فإنه كان موصلاً جيداً خلال العصور، وكذلك كان الأمر بالنسبة لنهرى دجلة والفرات كموصلين بين شبه الجزيرة والهضبة الإيرانية من ناحية وآسيا الصغرى من ناحية أخرى، ومن هذا الوجه تعتبر شبه الجزيرة من آسيا، ونتيجة لذلك لم تكن شبه الجزيرة بمعزل عن العالم القديم سواء فى آسيا أو فى أفريقيا.

وثمة ملاحظة أخيرة بالنسبة لأثر موقع شبة الجزيرة فى تاريخها؛ ذلك أنها تقع وسط سلسلة الصحراوات التى تمتد كالحزام حول العالم القديم، نحو الغرب فيما يعرف بالصحراء الكبرى، ونحو الشرق إلى بلاد التركستان وصحراوات وسط آسيا، وهذا أمر له أهميته فيما يتعلق بتاريخ العرب، إذ على أساسه فسر بعض الباحثين طبيعة التوسع الإسلامى خلال القرن الأول الهجرى فى شكل أفقى إلي إسبانيا غرباً وإلى التركستان شرقاً، بمعنى أن العرب المسلمين توسعوا خلال هذا الحزام الأرضى لأنه لايختلف كثيراً فى طبيعته الجغرافية عن موطنهم الذى ألفوا فيه الحياة. وعلى ذلك تتضح أهمية الجغرافية فى تفسير حركة التاريخ عبر العصور.

أما عن أثر طبيعة بيئة شبه الجزيرة العربية فى توجيهها حضاريا، فنلاحظ أنه بسبب موقع اليمن الجغرافى وتمتعها بمناخ منفرد عن بقية أجزاء شبه الجزيرة، ووفرة أمطارها الموسمية، كانت اليمن أسبق فى الترقى على طريق التطور وبناء حضارة عربية مزدهرة. فقد نمت فيها الأشجار وأصبحت البلاد غنية بالأخشاب التى استخدمت فى بناء الأساطيل والمساهمة فى التجارة العالمية، كما استغلت الأمطار فى الزراعة، وشيدت الخزانات والسدود، وعرف نظام الرى المعقد، وكان ازدهار الزراعة والتجارة من أسباب الاستقرار الاقتصادى والاجتماعى، وبالتالى ظهور الوحدات السياسية وقيام الدول الكبرى مثل معين وقتبان وسبأ وحمير، وهى دول استمدت حضارتها من معطيات البيئة، حيث أصبحت الزراعة والتجارة مصدر النشاط البشرى. ولعل تقدم الزراعة والتجارة فيها كان من أسباب تعرضها للأطماع والغزو الأجنبى، وهذا يفسر الصراع بين الأحباش والفرس والروم لنشر نفوذهم فى شبه الجزيرة ، وما نجم عن ذلك من وجود مؤثرات أجنبية فى الحضارة العربية القديمة، وكذا وجود تأثير عربى فى حضارة هذه الشعوب.

كذلك كانت الطبيعة الجغرافية لشمال شبه الجزيرة العربية ذات أثر كير فى صياغة تاريخ وحضارة عرب الشمال، إذ لعبت الظروف دوراً فى عزل شرقى شبه الجزيرة عن غربيها، فلم نجد لإقليم العروض الذى يجاور ساحل الخليج العربى دوراً يذكر فى الحضارات العربية القديمة، وعلى العكس من ذلك شهد الساحل الغربى فى اليمن والحجاز ازدهار تلك الحضارة، فعلى الرغم من أن الحجاز عاش نمطاً من الحياة بين البداوة والاستقرار، ولم يكن غير الرعى وحياة التنقل والترحال فى المناطق النادرة المطر كما هو الحال فى نجد، فقد استقرت القبائل فى محطات القوافل وحول الآبار، ومن ثم احترفت الزراعة والتجارة. وهذا يفسر لماذا لم تستطع الأقاليم الشمالية أن تضارع حضارة الأقاليم الجنوبية، ولماذا كانت دول الجنوب فى اليمن تؤكد دوما سيطرتها على الشمال لتحقيق الأمن والاستقرار لحركة تجارتها.

خلاصة القول فقد أثرت طبيعة البيئة العربية تأثيراً فعالا فى التطور التاريخى لشبه الجزيرة العربية قبل الإسلام.



**( ٢ ) *الجغرافية البشرية* :**

يقسم علماء الأنساب تاريخ البشرية القديم إلى مرحلتين كبيرتين : الأولى منذ بدء الخليقة بظهور آدم والتقائه بحواء فى عرفات بالحجاز؛ ولازال اسم عرفات يحيى ذكرى ذلك اللقاء، وتتضمن هذه المرحلة تكاثر أبناء آدم ، أبو الانسانية الأول ، وبداية الشقاق بينهم منذ القدم فى قصة هابيل وقابيل؛ وكيف تفرقوا فى الأرض وانتشروا يحملون بذور الخطيئة والفساد، فكان لابد من هلاكهم فى الطوفان على عهد نوح عليه السلام.

وبعد الطوفان تبدأ دورة جديدة للإنسانية كأنها بداية للعصور التاريخية، وأصبح نوح أباً ثانياً للبشرية بعد آدم كما يقول ابن خلدون. وإلى نوح هذا وبنيه الثلاثة سام ويافث وحام نسب علماء الأنساب كل الشعوب المعروفة التى تفرقت بين الشرق والغرب؛ فيذكر علماء الانساب مثلاً أن الترك والصقالبة والخزر والقوط وعلى وجه العموم كل الجنس الهندوأوربى فى آسيا وأوربا من أبناء يافث ، ويذكرون أن الكنعانيين والبربر والحبشة ( أى السودان على الجملة ) والقبط والنوبة و سكان أفريقيا على الجملة من أبناء حام، أما أبناء سام فإليهم ينسب العبرانيون والعرب. وعلى هذا النحو كان تقسيم علماء الأنساب للبشرية إلى ثلاث مجموعات كبرى، وجعلوا العرب يمثلون الكتلة الكبرى من أبناء سام ممن اصطلح على تسميتهم بالجنس السامى.

ومع ذلك فلا زال علماء اللغة يختلفون فيما بينهم فى تفسير معنى كلمة عرب ومصدر اشتقاقها، لكن رغم كثرة تفسيراتهم اللغوية، فإن بعض العلماء يرون أن أصل هذه الكلمة لا يزال غامضاً، وإن كانت تطلق على أجيال من الناس منشؤها شبه الجزيرة العربية، دون تحديد لمعنى هذه الكلمة أو لتاريخ ظهورها على وجه الدقة.

وقد جاءت أقدم الإشارات عن هؤلاء العرب فى السجلات الأشورية التى ترجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد، ثم بدأت ترد بعد ذلك سواء فى السجلات البابلية أو فى الأسفار القديمة للتوراة وفى التلمود، ثم فى كتب الإغريق والرومان. أما فى النقوش العربية فقد تأخر ظهور كلمة العرب إلى القرن الأول قبل الميلاد حيث وردت فى النقوش السبئية على شكل الأعراب أى سكان البادية، أما أهل المدن فقد وردوا فيها بأسماء قبائلهم أو مدنهم.

ويعتبر القرآن الكريم أول مصدر عربي يستخدم لفظ عرب للدلالة على معنى قومى يتعلق بالشعب العربى، مما يدل على شمول هذه التسمية ووجودها قبل نزول القرآن، إذ ليس من المنطقى أن يخاطب القرآن قوما بهذا المعنى دون أن يكون لهم علم به. ومع أنه من الصعب تحديد التاريخ الذى بدأ فيه استخدام هذا اللفظ للدلالة على الشعب العربى فإن الفضل يرجع إلى الإسلام فى بعث روح القومية عند العرب، الذين أخذوا يتباهون بجنسهم العربى منذ ظهور الإسلام وقيام الدولة العربية الإسلامية .

هذا وقد قسم علماء الأنساب العرب إلى طبقتين، ودون الدخول فى متاهات التفصيلات وما تحمله فى ثناياها من اختلاف وأنماط، فهاتان الطبقتان هما :

( أ ) **العرب البائدة** : أى التى اندثرت وهلكت ولم يعد لها وجود، ولا نستدل عليها إلا بما جاء فى القرآن الكريم أو الشعر العربى. وأقدم هذه الطبقة مثلما تذكر الروايات العربية هم قوم عاد الذين كانوا يسكنون إما فى الأحقاف بين اليمن وعمان أو فى شمال غرب شبه الجزيرة العربية على مقربة من منازل قوم ثمود. وقد عاقب الله قوم عاد – مثلما ورد فى القرآن الكريم – على عصيانهم نبيهم هود عليه السلام واستكبارهم فى الأرض، بأن أرسل عليهم ريحا صرصرا وصواعق دمرت مساكنهم وقضت عليهم. أما قوم ثمود الذين سكنوا بين الشام والحجاز، فإنهم حينما خالفوا نبيهم صالح عليه السلام، أهلكهم الله إثر تفجير بركان صحبته رجفة عنيفة، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها. فى حين كانت أقوام طسم وجديس، الذين ورد ذكرهم فى كتب تاريخ العرب القديم ، تنزل فى بلاد اليمامة والبحرين التى كانت وقتذاك من أخصب بلاد العرب، لكنهم هلكوا بسبب الصراع بين بعضهم البعض. ثم أخيراً قوم جرهم الذين سكنوا اليمن ثم نزحوا منها حينما أصابها القحط إلى بلاد الحجاز ،فأقاموا فى مكة حتى قدمها إسماعيل عليه السلام وصاهرهم، وآلت إليهم زعامة البيت الحرام حتى غلبتهم عليه خزاعة ثم قريش، وقد آل مصير جرهم بعد ذلك إلى الهلاك بسبب وباء تفشى فيهم.

(ب) **العرب الباقية** : الذين يقسمهم علماء الأنساب إلى مجموعتين هما

عرب الجنوب أى سكان اليمن على وجه الخصوص، وعرب الشمال فى الحجاز ونجد، وهذا التقسيم ربما ناتج عن الطبيعة المزدوجة فى جغرافية شبه الجزيرة العربية التى أدت إلى وجود نوعين من السكان هما الحضر والبدو مثلما ذكرنا من قبل؛ ولما كان الحضر قد تركزوا فى المناطق الجنوبية الخصبة فقد عرفوا لذلك باسم عرب الجنوب؛ أما البدو فانتشرت مضاربهم فى المساحات الصحراوية الوسطى والشمالية وبالتالى عرفوا بعرب الشمال؛ ولذلك فهذا التقسيم تقسيم جغرافى يدل على موطن كل من المجموعتين ، وقد تفرعت كل مجموعة منهما إلى تجمعات قبلية كبرى تندرج تحتها قبائل أصغر فأصغر تتوالى فى حوالى عشر درجات أو طبقات ، تبدأ بالأصل أى الجذم يليه الطبقة المعروفة بالجماهير ثم القبيلة والعمائر والبطون والأفخاذ والحبال والعشائر والفصائل وتنتهى بالرهط.

ويعرف عرب الجنوب بالعرب العارية أى الراسخة فى العروبة؛ أو بالقحطانية نسبة إلى قحطان بن عامر الذى ينتهى نسبه إلى سام بن نوح، ويعتقد علماء الأنساب أن عرب هذه المجموعة هم أول أجيال العرب الباقية، وأنهم أصل الحضارة العربية وخاصة فى اليمن ، وأنهم ينقسمون إلى شعبين عظيمين هما كهلان وحمير، فأما شعب كهلان فهو الذى تصدر تاريخ اليمن حتى حوالى عام ١١٥ق.م وأقام دولتى معين وسبأ، ومن أهم مجموعات هذا الشعب طئ وهمدان وبنو عاملة والأزد، أما شعب حمير فهو الذى ظهر على مسرح الأحداث منذ عام ١١٥ق.م حينما أقام دولة بنفس الاسم بسطت سلطانها على اليمن، ومنها إلى بعض الأقاليم الشمالية، وظلت قوية حتى غزو الأحباش لها فى عام ٥٢٥م ، ثم فقدت مكانتها نهائياً بعد الغزو الفارسى فى عام٥٧٥م مثلما سنذكر فيما بعد ، وقد تفرع هذا الشعب إلى مجموعات كبرى منها قضاعة وتنوخ وكلب وجهينة وعذرة.

فأما عرب الشمال فهم الذين يعرفون بالعرب المستعربة بسبب حداثتهم عن العرب العارية فى العروبة، كما يعرفون بالعدنانية نسبة إلى عدنان من نسل إسماعيل عليه السلام . وهؤلاء العرب هم الذين سكنوا أواسط شبه الجزيرة فى نجد والحجاز ، ويتميزون عن القحطانية بأنهم بادية رحالة فى معظمهم باستثناء قريش. وقد تفرعوا مثل العرب القحطانية إلى شعبين كبيرين، هما ربيعة بقبائلها العديدة التى خاضت

المعارك الكثيرة فى العصر الجاهلى وهى المعارك التى عرفت بأيام العرب؛ ومن أهم مجموعات هذا الشعب بنو أسد الذين كان لهم دور واضح فى حركة الردة، وبنو وائل وتغلب وبكر . أما الشعب الثانى فهو مضر الذى أقام فى الحجاز وتبنى الدعوة الإسلامية فى بدايتها، ومن أهم مجموعاته قبائل تميم وقيس وهذيل ،وهذه الأخيرة كانت تضرب قرب مكة، ومن فروعها كنانة التى كانت قريش إحدى بطونها .

هذه التقسيمات السابقة تدل على وجود مجتمع جنوبى بشعبه العربى الأصيل، ومجتمع عربى شمالى بشعبه العربى الأصيل، فضلاً عن مجتمع عربى ثالث يمكن أن يطلق عليه المجتمع العربى المجاور، الذى يمثل امتداد عرب الجنوب والشمال معاً خارج حدود شبه الجزيرة؛ كما تدل على اختلاط الشعبين معاً اختلاطاً تاماً. ولأن هؤلاء العرب جميعاً قد شاركوا فى الحركة الإسلامية منذ القرن الأول الهجرى، وانتشروا فى سائر الأمصار فى المشرق وفى المغرب على السواء، فإنهم يشكلون بذلك الأصول الأصيلة لشعوب العالم العربى المعاصر.

# الفصل الثانى

## مواطن الحضارات العربية

يعتبر تاريخ العرب البائدة مقدمة لتاريخ العرب الباقية المعروف فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام، والذى يحوى تاريخ عرب الجنوب فى اليمن ، إلى جانب تاريخ عرب الشمال فى الحجاز بصفتها مهد الإسلام، فضلاً عن الأراضى المتاخمة للعراق والشام. فعرب هذه البلاد جميعاً شاركوا – مثلما ذكرنا من قبل – فى الحركة الإسلامية ، وانتشروا مع عرب الحجاز فى سائر الأمصار التى وصلها المد الإسلامى فى المشرق وفى المغرب على السواء، وكونوا على هذا النحو الأصول الأصيلة لشعوب العالم العربى المعاصر. وسنتناول فى إيجاز تاريخ عرب هاتين المجموعتين أى عرب اليمن ثم عرب تخوم الشمال ، يليهما تاريخ عرب الحجاز.

**أولاً :عرب *الجنوب* في *اليمن* :**

يتسم تاريخ عرب الجنوب – وهم القحطانية – فى اليمن بالغموض والتعقيد، لأن ما ورد عنه فى المصادر العربية القديمة مختلط بالخرافات والأساطير، وما جاء عنه فى كتب اليونان معظمه مزيف وبعضه صحيح، وإن كان هذا القليل الصحيح على درجة كبيرة من الأهمية نظراً لعدم توافره فى المصادر العربية؛ فذكر اليونان أمماً ودولاً ومدناً عربية لانجد لها ذكرا عند العرب، أو وردت عندهم عرضاً، فلم يعرف هؤلاء العرب مثلاً عن دولة سبأ شيئا يستحق الذكر، وجهلوا أخبار دولة معين كلية، بينما هى عند اليونان أمة عظيمة ذات تجارة واسعة وشأن كبير، على أن كثيراً مما ورد عند اليونان لم ينجح المؤرخون حتى الآن فى وضعه فى سياقه التاريخى الصحيح.

ولكن يرجع الفضل الأكبر فى كشف كثير من غوامض تاريخ عرب الجنوب إلى اكتشاف كثير من النقوش، التى أمكن قراءتها واستنطاق ما تدل عليه من أخبار تاريخية. ولما كان أقدم نقش مدون بلغة عرب الجنوب يرجع تاريخه إلى عام ١٣٠٠ ق.م، فقد استقر رأى المؤرخين على اعتبار هذا التاريخ بداية لتاريخ عرب الجنوب المعروف لنا إلى أن تظهر نقوش أكثر قدماً، وتتغير تلك البداية منطقياً .

لكن يجب أن نشير إلى أن معرفة عرب الجنوب الكتابة منذ هذا التاريخ البعيد له مغزاه للدلالة على وجود حضارة مزدهرة لهم منذ وقت مبكر. وهذه الحضارة تنم ولاشك عن تطور الإنسان العربى من مرحلة بدائية إلى مرحلة متقدمة، تعلم فيها

الزراعة وكون خبرة صناعية مكنته من قضاء حاجياته الملحة، ومبادلة منتجاته بالسلع الأخرى الواردة من البلاد المجاورة، مما يعنى أنه اشتغل بالتجارة أيضاً بل وصارت حرفته الأساسية. وقد أدت هذه الحرف زراعية وتجارية وصناعية بالإنسان العربى إلى تنظيم علاقاته الاجتماعية فى الداخل والخارج مما تطلب وجود نظم وقوانين ودساتير.

وكان من عوامل ظهور هذه الحضارة وتقدمها خصوبة التربة وصلاحيتها ووفرة الأمطار، والقرب من البحر، والموقع الفذ بين عالم البحر المتوسط وعالم أفريقيا الشرقية وبلاد الشرق الأقصى؛ لذلك كله كانت بلاد اليمن سباقة إلى دخول العصر التاريخى ، وقامت فيها دول حققت تقدما حضاريا ضارعت به وقتذاك حضارات غيرها من غير العرب.

لكن لازالت هناك بعض المشكلات المتعلقة بتاريخ هذه الدول، وأولها أنه لم يكن لهذه الدول تقويم زمنى متتابع، لأنها كانت تؤرخ بالأحداث الهامة وبأسماء الملوك أو شيوخ القبائل، وقد ذللت هذه المشكلة عن طريق مقارنة التاريخ العربى بتواريخ الدول المعاصرة التى كان لها تقاويمها كمصر وبابل وغيرهما . أما المشكلة الثانية فهى تداخل تواريخ هذه الدول المتعاقبة تداخلا يجعل من الصعب مع ندرة المعلومات التمييز بين الأحداث والوقائع وأسماء الملوك وحدود الدول التى تعاصرت وتصارعت على سيادة جنوب بلاد العرب، فدولة معين بدأ تاريخها فى حوالى عام ١٣٠٠ ق.م وسقطت نحو عام ٦٣٠ ق.م ، وقتبان قامت حوالى عام ١٠٩٠ ق.م وسقطت فى عام ٥٠ ق.م ، وسبأ ظهرت نحو عام ٩٥٠ق.م وسقطت فى عام ١١٥ ق.م الذى ظهرت فيه حمير التى سقطت عام ٥٢٥م. والسبب فى هذا التداخل التاريخى يرجع إلى النظام القبلى الذى ساد بلاد العرب، فارتبط قيام الدول وسقوطها بصعود نجم إحدى القبائل بحيث تتمكن من تكوين حلف من القبائل المجاورة تتصدر زعامته، ويتحول الحلف إلى دولة تدين لها بقية القبائل بالطاعة مع احتفاظها بكياناتها الذاتية، ثم لا يلبث الخلل أن يتطرق إلى القبيلة مؤسسة الدولة فتظهر قبيلة أخرى تلعب نفس الدور، وتظل الدولة القديمة قائمة فى كنف الدولة الجديدة بعد أن تقدم لها فروض الطاعة. وبهذه الكيفية نشأت فى اليمن عدة دول هى :

**(أ) دولة معين (١٣٠٠ - ٦٣٠ ق.م):**

وهى أقدم الدول التى ظهرت فى المنطقة السهلية الخصبة الواقعة بين حضرموت ونجران، واتخذت عاصمتها معين؛ ثم توسعت حتى ضمت كل جنوب بلاد العرب من البحر الأحمر غربا حتى الخليج العربى شرقا؛ ومدت نفوذها أيضاً إلى الحجاز شمالاً فأقامت مستعمرات تجارية لها على طريق التجارة المتجه نحو الشام.

ورغم وفرة النقوش المتعلقة بهذه الدولة، فإن أقدم نقش يرجع تاريخه إلى عام ١٣٠٠ق.م وبالتالى نجهل تاريخ نشأتها قبل هذا التاريخ؛ أو تنسيق أحداثها بين هذا العام وعام ١١٢٠ق.م على وجه التحديد . وربما كانت هذه الفترة فترة صراع بين قبائل معين وغيرها من القبائل انتهت بغلبة قبائل معين. أما الفترة الواقعة بين عامى ١١٢٠ - ٦٣٠ ق.م، وهو عام سقوط الدولة، فيستدل من النقوش على أنها شهدت ستا وعشرين ملكا توزعوا على خمس أسرات حاكمة، لعل كل منها كانت تمثل قبيلة من قبائل معين، الأمر الذى يؤكد استمرار الطابع القبلى داخل الدولة السياسية الموحدة.

ويتسم حكم الأسرة الأولى بسيطرة قبائل معين على اليمن، واستغلال الأمطار فى الزراعة وتأسيس المدن الأولى. أما عصر الأسرة الثانية فيمثل عصر التوسع ناحية الجنوب بالسيطرة على عدن وحضرموت، ثم التطلع إلى الحجاز وما يليها شمالاً لإحكام السيطرة على حركة التجارة، بحيث ظهرت مستعمرات ومحطات لمعين فى هذه الناحية.

وفى عصر الأسرة الثالثة وقعت تطورات خطيرة فى بلاد العرب، تمثلت فى ظهور قبائل سبأ بشمال اليمن، وتطلعها إلى الصدارة والسيطرة على تجارة العبور، فنازعت معين فى شمال بلاد العرب حتى انتزعت منها تلك الأقاليم، فى نفس الوقت الذى تمكنت فيه قبائل قتبان من غزو جنوب دولة معين.

أما فى عهد الأسرة الرابعة فقد تم الاتفاق بين سبأ وقتبان على اقتسام أراضى معين فيما بينهما، لكن لم تلبث سبأ أن استأثرت وحدها بالسيطرة عليها فى عهد الأسرة المعينية الخامسة، وفتحت لحسابها بلاد اليمن وأسقطت الحكم المعينى فى عام ٦٣٠ ق.م ؛ وظلت قبائل معين منذ ذلك الحين خاضعة لنفوذ سبأ ومن بعدها حمير

حتى ظهور الاسلام.

**(ب) دولة قتبان (١٠٩٠ - ٥٠ ق.م):**

تاريخ قتبان أكثر تواريخ دول اليمن غموضاً، فلم يرد عنها ذكر بالمراجع العربية القديمة، أما المراجع الحديثة فلا تشير إليها إلا فى بضع أسطر، تتعلق بمكان قيامها فى الطرف الجنوبى الغربى من بلاد اليمن، وبتحديد اسم عاصمتها وهى مدينة تمنع ( كحلان الحالية )، وبأنها شهدت سقوط دولة معين، ثم عاصرت دولتى سبأ وحمير .

ويرجع الفضل الأكبر فيما وصلنا أخيراً من أخبار هذه الدولة إلى النقوش القتبانية الكثيرة ، التى أماطت اللثام عن كثير مماغمض من تاريخ هذه الدولة وحضارتها. ولأن أقدم هذه النقوش يرجع تاريخه إلى عام ١٠٩٠ ق.م فقد اعتبر هذا التاريخ بداية ظهور الدولة مثلما هو الحال بالنسبة لبداية دولة معين. لكنه ابتداء من هذا التاريخ وحتى عام ٨٢٥ ق.م نقف على عصر مظلم يكتنفه غموض كثيف، أما منذ العام الأخير وحتى سقوط الدولة فى عام ٥٠ ق.م فهى فترة يمكن تقسيمها إلى عصور ثلاثة هى :

العصر الأول الذى يمتد بين عامى ٨٢٥ – ٤٥٠ ق.م، فقد شهد تجمع القبائل القتبانية فى شكل حلف قبلى لتؤسس دولة موحدة فى بلاد اليمن، تلقب ملوكها بلقب مكرب أى المقرب إلى الآلهة؛ مما يدل على اتسام الحكم بطابع دينى. وفى هذا العصر نجحت قتبان أيضاً فى السيطرة على جنوب بلاد اليمن بعد انتصارها على معين؛ وإلى هذا العصر اكتشفت تحف ونقود وأطلال مدن ذات طابع إغريقى، وهو ما يؤكد وجود جالية يونانية عاشت فى كنف ملوك قتبان، وتمتعت بنوع من التسامح الدينى وحماية مصالحها التجارية، وهذا يدل على تعاون وثيق فى مجال التجارة بين قتبان ومعاصريها من الدول، ويفسر لماذا أفاض مؤرخو اليونان فى ذكر هذه الدولة أكثر من غيرها من الدول العربية الأخرى.

أما أخبار العصر الثانى الممتد بين عامى ٤٥٠ – ٢٥٠ ق.م فهى فى غاية فى الغموض، إذ طغت عليه أخبار دولة سبأ التى ظهرت فى الشمال وتسلطت على حساب دولة معين ثم سيطرت أخيراً على قتبان، مثلما يفهم من النقوش التى

أوضحت أن ملوك قتبان كانوا يدفعون الجزية آنذاك لملوك سبأ وعبدوا آلهتهم .

وفى العصر الثالث والأخير الممتد بين عامى ٢٥٠ - ٥٠ ق.م ظهرت دولة حمير حوالى عام ١١٥ ق.م لترث دولتى سبأ وقتبان ،وظل أهل قتبان يتمتعون بنوع من الكيان الذاتى داخل دولة حمير حتى عام ٥٠ ق.م، حيث ذابوا تماما فى مجتمع حمير بعد أن خربت عاصمتهم تمنع.

**(جـ) دولة سبأ ( ٩٥٠ - ١١٥ ق.م ) :**

ذكر العرب هذه الدولة ذكراً مبهماً ، أما اليونان فاعتبروها إحدى أمم اليمن الأربعة ذات الشهرة التجارية والزراعية الفائقة، وهو ما أكده فيما بعد ما تم اكتشافه من نقوش تتعلق بهذه الدولة، ولم تكن دولة ذات أطماع توسعية بقدر ما كانت دولة عمران وتجارة وسلام.

ويختلف المؤرخون فيما بينهم فى تحديد تاريخ ظهور هذه الدولة، فيحدده بعضهم بعام ٩٥٠ ق.م ويجعله آخرون فى عام ٨٢٠ ق.م، بينما يضعه فريق ثالث فى عام ٦٢٠ ق.م . وهذا الخلاف ربما يعكس المراحل المتتابعة فى تطور الدولة وليس نشأتها، وهو ما يفهم من تطور ألقاب حكامها، إذ تلقبوا فى المرحلة الأولى بلقب مكرب سبأ؛ ثم بلقب ملك سبأ؛ ثم ملك سبأ وريدان ، وفى المرحلة الأخيرة تلقبوا بلقب آخر هو ملك سبأ وريدان وحضرموت واليمن .... وفى ضوء ذلك يمكن أن نعتبر عام ٩٥٠ ق.م هو بداية قيام الدولة. أما تاريخها منذ هذا العام وحتى عام ٨٢٠ ق.م فيعد مجهولاً تقريباً بسبب ندرة الوثائق ، وإن كان من المرجح أنه خلال تلك الفترة تعرضت قبائل سبأ التى كانت تضرب وقتذاك فى شمال اليمن لضغط الأشوريين عليهم من الشمال، فاضطرت إلى الهجرة لتستقر فى جنوبى اليمن، وكانت هجرتها هذه كفيلة بتفجير الصراع بينها وبين كل من معين وقتبان، وهو الصراع الذى خرجت منه قبائل سبأ ظافرة.

وإذا كان عام ٨٢٠ ق.م يشكل بداية وضوح تاريخ دولة سبأ وحتى سقوطها فى عام ١١٥ ق.م فيمكن تقسيم هذه الفترة إلى عصور ثلاثة هى :

العصر السبئى الأول الذى انتهى فى حوالى عام ٦٠٠ ق.م ، وهو العصر

الذى شهد تحالف قبائل سبأ وتأسيس العاصمة صرواح فى شمال اليمن، ثم توسيع منطقة نفوذها على حساب دولة معين حتى انتهى الأمر بالقضاء عليها فى عام ٦٣٠ ق.م ، كما خضعت لها دولة قتبان دون حرب. وبذلك تم لسبأ فى هذا العصر السيطرة الكاملة على كافة أقاليم اليمن، وفى هذا العصر أيضاً اشتغلت سبأ بنقل التجارة بين الهند والحبشة من ناحية وبين مصر والشام والعراق من ناحية أخرى حتى أصبحت أعظم وسيط لهذه التجارة فى المنطقة.

أما العصر الثانى فيما بين عامى ٦٠٠ - ٢٣٠ ق.م فمن أهم سماته ما شهدته البلاد من رخاء اقتصادى ناتج عن تطور الزراعة والسيطرة على طريق التجارة، فضلاً عن حركة عمرانية مزدهرة كان من مظاهرها تأسيس عاصمة جديدة هى مأرب، واتساع نفوذ الدولة حتى شمل من اليمن جنوباً إلى نجد والحجاز شمالاً.

فى حين شهد العصر الثالث والأخير، الذى انتهى بسقوط الدولة فى عام ١١٥ ق.م مرحلة الانهيار والتداعى، إذ أخذ الضعف يسرى فى جسد الدولة نتيجة للمنازعات والصراعات الداخلية العنيفة بين القبائل على العرش، وما صاحب ذلك من تخريب وتدمير، فضلاً عن تصدع سد مأرب وماتلاه من نزوح القبائل السبئية إلى الشمال، فتحولت الأراضى الزراعية إلى بور، فى الوقت الذى تعرضت فيه الدولة لأخطار خارجية تمثلت فى منافسة البطالمة فى مصر للسيطرة على طرق التجارة، مما أضر بالوضع الاقتصادى والسياسى للدولة ، فضلا عن ظهور قبائل حمير واستفادتها من هذا الوضع السيئ المتردى، فبسطت نفوذها على سبأ فى عام ١١٥ ق.م، وأسست دولة جديدة اتخذت من ريدان ( ظفار الحالية ) عاصمة لها ، بعدما ورثت أمجاد سبأ.

**( د ) دولة حمير ( ١١٥ ق.م - ٥٢٥ م ):**

ارتبط قيام هذه الدولة بتجمع قبائل حمير وتحالفها مع الحضارمة، وكان من مظاهر هذا التحالف توحيد العقيدة الدينية، ثم تمكن هذا الحلف من الاستفادة من الأوضاع الداخلية المضطربة فى دولة سبأ، فعقد صلات ودية مع البطالمة لتنظيم الملاحة فى البحرين الأحمر والأبيض المتوسط، وهو أمر عاد على الحلف بأرباح طائلة استغلها فى إعداد الجيوش التى مكنته من السيطرة على قتبان ثم على سبأ.

والظهور على مسرح الأحداث كدولة فى عام ١١٥ ق.م. وكانت دولة ذات طابع خاص اختلفت فيه عما سبقتها من دول : فكانت دول عسكرية بالدرجة الأولى اشتركت فى حروب خارجية، ودخلت فى معترك الصراع الدولى آنذاك ، حينما ظهرت الأطماع الخارجية للسيطرة على طرق التجارة العاليمة.

**ويمكن تقسيم تاريخ دولة حمير إلى عصرين متمايزين هما :**

العصر الأول فيما بين عامى ١١٥ ق.م –٣٠٠ م ، وهو عصر القوة والغلبة إذ امتد نفوذ الدولة إلى معظم أجزاء شبه الجزيرة، وعلى الأخص الحجاز ونجد، حيث كانت السيطرة عليهما أمراً تمليه الضرورة لدولة تتحكم فى تجارة العبور؛ ففتح ملوك حمير مدينتى يثرب ومكة وغيرهما من مدن الحجاز، وأنشأوا مستعمرات لهم فى نجد مثل إمارة كندة ، فضلاً عن عدد من المستعمرات فى الشمال، لتكون لهم محطات تجارية ، ولتأمين تجارتهم مع العراق والشام.

ويمثل هذا العصر أيضاً فترة الرخاء الاقتصادى فى الداخل، وقمة النفوذ التجارى لعرب الجنوب فى الخارج، إذ وصل نفوذ حمير التجارى إلى ميادين جديدة خارج شبه الجزيرة ، وتعكس المراجع العربية صدى هذا النفوذ السياسى والاقتصادى فيما حفلت به من روايات أسطورية، ومنها أن بعض ملوك حمير وطئ أرض العجم وفارس وخراسان وفتح مدائنها ووصل إلى ما وراء نهر جيحون وامتلك بلاد الروم. كما تذكر تلك المراجع أن بلاد المغرب دانت لبعض ملوك حمير، وأن أحد هؤلاء الملوك أوغل فى بلاد الهند وبعث بأبنائه إلى ديار الترك وبلاد الصين. ولاشك أن هذه الروايات لا يمكن تصديقها إذ لم يرد فى الكتب المعاصرة لهذه الدولة ذكر لمثل هذه الفتوحات ، لكنها مع ذلك روايات لا تخلو من دلالة على تغلغل نشاط حمير ونفوذها التجارى فى بلاد فارس وآسيا الصغرى وبلاد اليونان و شمالى أفريقيا.

أما العصر الثانى فيما بين عامى ٣٠٠ – ٥٢٥م فيمثل عصر الضعف والانهيار ومن مظاهره ما يلى :

( أ ) أن زمام السيطرة على البحر الأحمر أخذ يفلت رويدا رويدا من قبضة حمير، ويرجع السبب فى ذلك إلى أنه على الرغم من أن العرب حتى القرن الأول

الميلادى قد ظلوا يسيطرون على تجارة العبور، لكن عملهم وقتذاك انحصر فى جمع حاصلات أفريقيا الشرقية والهند ونقلها على ظهور الإبل إلى الشمال، ثم قاموا خلال العصر الحميرى الأول بنقل هذه المتاجر بحراً عن طريق البحر الأحمر إلى القناة التى كانت تربطه بالنيل، وإما براً عن طريق الصحراء الشرقية فى مصر إلى مدينة طيبة أو مدينة منف؛ وكان ملوك حمير يلجأون إلى زيادة الضرائب والمكوس كلما شعروا بازدياد ولع أهل الغرب بالسلع الشرقية، وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى رغبة البطالمة فى إقصاء حمير عن دور الوسيط ومحاولة السيطرة على البحر الأحمر من دونهم، وكانت جهود البطالمة فى هذا السبيل بداية نهاية النفوذ الحميرى، بحيث إنه حينما ورثت روما مصر من البطالمة، حذت روما حذو البطالمة فى التنافس البحرى مع عرب اليمن، وتشجع الأحباش فحالفوا الرومان الذين استطاعوا آنذاك أن يكتسبوا خبرة بحرية مكنت سفنهم من الوصول إلى المحيط الهندى، وكان هذا نذيراً بحلول التدهور الاقتصادى فى بلاد العرب وبالتالى انهيارها السياسى.

(ب) شهد هذا العصر أيضاً كارثة اقتصادية أخرى بانهيار سد مأرب نهائيا فى حوالى عام ٤٥٠م، على إثر سيل العرم الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم، ونتج عنه تفرق شمل قبائل حمير وعرب الجنوب عموماً، فهاجروا إلى الشمال وازدهرت بلاد العرب الشمالية فى الحجاز وعلى التخوم الشمالية لشبه الجزيرة العربية – فى العراق والشام – بعد هجرة عرب الجنوب إليها.

(جـ) قيام الحروب الداخلية بين قبيلتى حمير وهمدان، وما ترتب على ذلك من تمرد القبائل الأخرى واستقلالها بنواحيها، وقد واكب ذلك تداعى العقيدة الرسمية التى كانت من عوامل ربط القبائل مع بعضها؛ ثم وفدت عقائد خارجية جديدة كالنصرانية واليهودية، وهما عقيدتان استغلتهما الدولتان المتصارعتان فارس وبيزنطة لكسب مناطق نفوذ فى بلاد العرب، ولتحقيق أغراض سياسية بالقضاء على دولة حمير. وقد تأجج التنافس بين هاتين الدولتين على اليمن حينما اعتنق ملك حمير المدعو « ذو نواس » اليهودية وجعلها العقيدة الرسمية فى دولته ،وأظهر التعصب لليهود الذين كانوا صنائع للفرس، واضطهد النصارى ونكل بهم فيما عرف بحادثة الأخدود التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم، والخلاصة أن هذا الصراع الدينى بين

اليهودية والنصرانية فى اليمن كان يعكس أطماعا اقتصادية ومخططات سياسية أجنبية.

( د ) تعرض حمير لغزو الأحباش، فمنذ القرن الأول الميلادى والأحباش يحاولون السيطرة على اليمن، ودخلوا مع حمير فى حروب مستعرة كثيرة انتهت بسيطرتهم على دولة حمير باليمن فى عام ٥٢٥م؛ وبذلك انتقل حكمها إلى الأحباش الذين ولوا عليها أميراً مسيحياً يدعى أبرهة، فأنشأ فى صنعاء كنيسة عظمى سميت «القليس» لتنافس مكة مكانتها الاقتصادية، لكن لما لم تتزعزع مكانة مكة فى نفوس العرب وظلوا يقصدونها للحج والتجارة، قاد أبرهة حملة فى عام ٥٧٠م ( عام الفيل ) لغزو مكة وهدم كعبتها؛ وتقدم إليها وحاصرها بالفعل بجيش عظيم استخدم فيه الفيلة، إلا أن الوباء انتشر بين جنده، وأنجاها الله من يديه بأن أرسل عليه هو وجنوده طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل مثلما ورد فى القرآن الكريم.

وفى نفس الوقت اندلعت الثورة فى بلاد اليمن ضد سيطرة الأحباش، وهى ثورة تزعمها أحد سلالة البيت الحميرى ويدعى سيف بن ذى يزن، الذى استعان بالفرس فأمدوه بجيش مكنه من طرد الأحباش من اليمن عام ٥٧٥م، إلا أن تحرر اليمن منهم قد استبدل بوقوعها فريسة للاحتلال الفارسى؛ وتتابع على حكمها منذ ذلك العام ولاة فرس كان آخرهم باذان، الذى عاصر الرسول ﷺ ؛ فاعتنق الإسلام هو وأهل اليمن . وبذلك دخلت اليمن فى الدولة الإسلامية وعادت إلى الصف العربى.

وعلى هذا النحو انتهت دولة اليمن العريقة التى وصف كتاب العرب ملوكها بأنهم كانوا بنائين عظام، أقاموا السدود الهائلة والقصور الفاخرة، وشيدوا المدن الأسطورية والمقابر العجيبة، وكدسوا الثروات بفضل ما كان فى بلادهم من خيرات ، وما جمعوه من أموال عن طريق احتكار تجارة العالم القديم.

**ثانيا: عرب *التخوم الشمالية* :**

فى الوقت الذى كان فيه عرب الجنوب فى اليمن يكافحون ضغط الأحباش عليهم من الغرب، ثم ضغط الفرس من الشرق؛ كان أخوة لهم فى الشمال على حدود الشام والعراق قد استفادوا من موقع مواطنهم كنقطة وصل بين الشرق وعالم البحر المتوسط فاشتغلوا بالوساطة التجارية، وأثروا منها وأقاموا إمارات لهم هناك ، كإمارة

الغساسنة على حدود الشام وهى التى عرف ملوكها ببنى جفنة أو ببنى ثعلبة؛ وإمارة الحيرة ( المناذرة ) على حدود العراق .

**(١) إمارة الغساسنة :**

تاريخ الغساسنة كما ورد فى المصادر العربية مضطرب أشد الاضطراب ، إذ اختلف الرواة حول عدد ملوكهم فيما بين أحد عشر واثنين وثلاثين ملكاً، وهذا الخلاف يعكس خلافاً أساسياً حول نشأة وتطور الدولة . ولما كان قيام هذه الدولة وتطورها مرتبط بالتاريخ البيزنطى فإن المصادر البيزنطية عرضت لتاريخها بصورة أكثر ضبطا وتحديداً، واستطاع المؤرخ الألمانى نولدكه أن يفيد من هذه المصادر البيزنطية ويقارنها بالمصادر العربية، وقدم فى النهاية تاريخاً محققاً لها؛ ترجم إلى العربية بعنوان : أمراء غسان ، نشر فى بيروت عام ١٩٣٣م.

والغساسنة من عرب الجنوب من قبيلة مازن أحد قبائل الأزد الكبيرة الذين نزحوا إلى الشمال لأسباب سياسية واقتصادية، ومنها انهيار سد مأرب والصراع الداخلى فى بلاد اليمن ثم التعرض للغزو الأجنبى، فاستقروا حينا شمالى الحجاز ثم نزحوا بعد ذلك إلى الشام فى القرن الخامس الميلادى.

ويرتبط تأسيس هذه الإمارة فى الشام فى أواخر القرن الخامس الميلادى بمعطيات الظروف الدولية آنذاك، حيث كانت القبائل العربية المقيمة ببادية الشام دائمة الإغارة على حدود الدولة البيزنطية، التى عمدت إلى مسالمتها ثم سمحت لبعضها من بنى سليح من قضاعة بالاستقرار وإقامة إمارة على الحدود عرفت باسم إمارة الضجاعمة، لكن هذه الإمارة لم تنجح فى حماية الحدود البيزنطية من إغارات القبائل الأخرى، ولما لم يكن بوسع بيزنطة وضع حد للفوضى على حدودها نظراً لانشغالها بمشاكلها الداخلية، لاسيما المشاكل الدينية التى ثارت حول طبيعة السيد المسيح؛ فضلاً عن مشاكلها الخارجية وعلى رأسها الصراع مع الفرس، فقد انتهز البيزنطيون فرصة نزوح الغساسنة بزعامة جفنة بن عمرو، واتفقوا معهم على أن يحلوا محل الضجاعمة كحلفاء لبيزنطة ومدافعين عن حدودها. فأقاموا إمارتهم فى المنطقة الواقعة جنوب شرقى دمشق والممتدة حتى شمال الحجاز؛ واتخذوا من مدينة بصرى عاصمة لهم ثم هجروها فيما بعد إلى مدينة جلق على نهر بردى. وقاموا

بالفعل بمعاونة بيزنطة فى صراعها ضد الفرس الذين أسسوا أيضاً إمارة المناذرة العربية فى الحيرة كصنيعة لهم. واشتغل الغساسنة بالوساطة التجارية وأثروا ثراء عريضاً وارتبطت طموحاتهم بالمشروعات البيزنطية فى السيطرة على طرق التجارة، وعلى ذلك حظى الغساسنة برعاية بيزنطة.

وقد بلغت إمارة الغساسنة أوج مجدها فى عهد الحارث بن جبلة ( ٥٢٩ – ٥٦٩م) الذى استطاع أن يناوئ الفرس فى وقت مال الصراع بينهم وبين البيزنطيين لصالحهم؛ بحيث أنه حينما هجم الفرس على الشام وآسيا الصغرى لم يتمكن البيزنطيون من صدهم إلا بمعاونة هذا الأمير الغسانى. ولما عقد الصلح بين فارس وبيزنطة فى عام ٥٤٦م لم يتوقف الحارث عن مناوأة المناذرة إلى أن هزمهم وقتل أميرهم المنذر الثالث عام ٥٥٤م. وقد كافأه الامبراطور البيزنطى جستنيان على هذه الخدمات بأن جعله سيدا على كل عرب الشام، واستقبله فى العاصمة البيزنطية بحفاوة بالغة فى عام ٥٦٣م ؛ وليس أدل على ما تمتع به الحارث من منزلة لدى الامبراطور البيزنطى من أنه تمكن أن يظفر من الامبراطور بالموافقة على تعيين الأسقف يعقوب البرادعى أسقفا للكنيسة الشامية – التى عرفت منذ ذلك الحين بالكنيسة اليعقوبية نسبة إلى هذا الأسقف –على الرغم من الخلاف بين كنيسة بيزنطة وكانت على المذهب الملكانى وبين الكنيسة الشامية وكانت على المذهب المونوفزيتى القائل بالطبيعة الواحدة الإلهية للسيد المسيح.

على أن العلاقة بين الغساسنة وبيزنطة قد اهتزت فى عهد ابنه المنذر ( ٥٦٩ – ٥٨٢م ) نظراً لإسرافه فى التعصب للمذهب اليعقوبى ( المونوفزيتى ) المناوئ لمذهب الدولة الرسمى ( الملكانى ) الأمر الذى عرضه للشبهات؛ وبرغم توفيقه فى الإغارة على الحيرة وإضرام النيران فيها فى عام ٥٨٠ م، وبرغم استقباله فى العاصمة البيزنطية وترحيب الامبراطور تيبريوس به، إلا أن الأخير انتهز الفرصة فأمر بالقبض عليه ونفاه إلى جزيرة صقلية فى عام ٥٨٢م. فلما هم ابنه النعمان – الذى خلفه – بالثورة واجه نفس مصير أبيه، وذلك بعد عام واحد من الحكم أى فى عام ٥٨٣م.

ومنذ ذلك الحين فصاعدا تدهور الحكم فى إمارة الغساسنة نتيجة ولاية بعض

الأمراء الضعاف؛ فضلاً عن تفرق شمل القبائل العربية وانقسامهم على أنفسهم، مما مهد لسقوط الإمارة في يد الفرس في عام ٦١٣م. ورغم أن الإمبراطور البيزنطي هرقل قد تمكن من استرداد الشام من الفرس بعد ذلك في عام ٦٢٩م، وأعاد حكم الغساسنة لأحد أحفادهم وهو جبلة بن الأيهم؛ إلا أن ضعف الإمارة في عهده، فضلاً عن انشغال البيزنطيين آنذاك بمشاكلهم الداخلية والخارجية قد كشف الحدود البيزنطية أمام الجيوش الإسلامية حينما اقتحمتها في عهد أبي بكر الصديق؛ وأنزلت الهزيمة القاسية بهم في معركة اليرموك في عام ٦٣٤م؛ ومع أن جبلة قد حارب المسلمين في هذه المعركة إلى جانب البيزنطيين لكنه أسلم بعدها؛ ثم ارتد ثانية عن الإسلام في عهد عمر بن الخطاب وهرب إلى العاصمة البيزنطية .

**(٢) إمارة المناذرة :**

معلوماتنا عن المناذرة مستمدة من المصادر العربية وخاصة الشعر الجاهلي ، فضلاً عن الحوليات الفارسية والبيزنطية . وقيام هذه الإمارة على التخوم الفارسية ارتبط بنفس الظروف التي ساعدت على قيام إمارة الغساسنة، ولا غرو فقد توحد نفس الدور التاريخي للإمارتين، فبينما كان الغساسنة صنائع للروم كانت إمارة المناذرة – التي قامت في الحيرة في القرن الثالث الميلادي – تدور في فلك الفرس ، ومعنى ذلك أن بلاد الشرق الأدنى وبالذات باديتي الشام والعراق كانت مجالاً حيوياً مستهدفاً من الدولتين الأعظم فارس وبيزنطة.

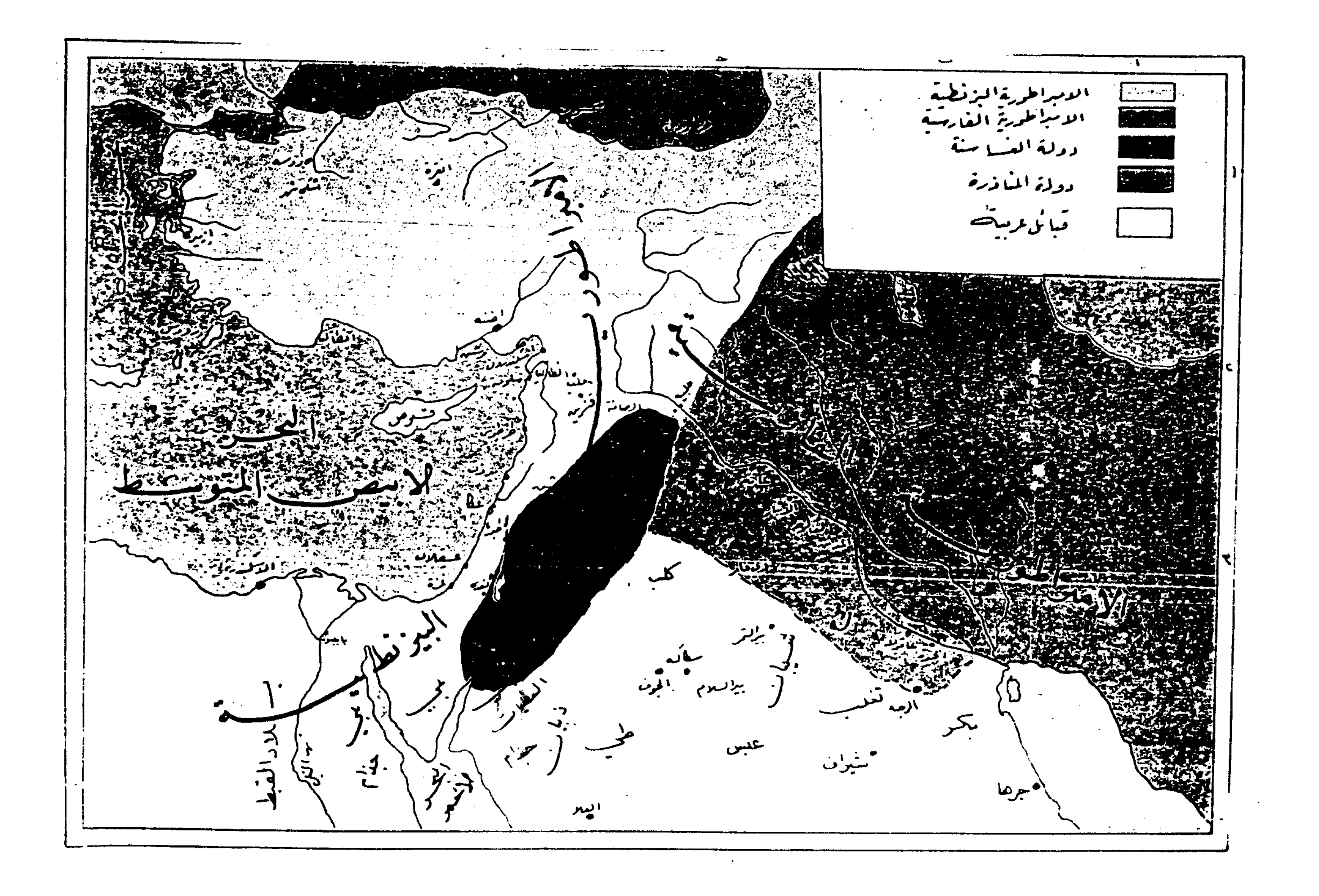
كان المناذرة قبائل عربية تنسب إلى لخم ، التي اتجهت من اليمن نحو الشمال وضربت خيامها على مشارف الحيرة، التي كان يسكنها عناصر عربية مسيحية عرفت بالعرب العباد أي عباد المسيح، ولم يلبثوا أن أقاموا معهم حلفاً بقيادة عمرو بن عدي اللخمي ( ٢٦٨ – ٢٨٨م ) . ولما دخل الفرس مع الروم في الصراع اعتمد الفرس على هؤلاء المناذرة في الدفاع عن حدودهم ضد غارات البدو؛ كما استخدموهم في الصراع ضد بيزنطة نفسها، ولذلك اعترف الفرس بإمارة الحيرة رغم الخلاف الديني ، إذ كان الفرس مجوسا والمناذرة نصارى على المذهب النسطوري القائل بالطبيعتين الإلهية والبشرية للسيد المسيح. ولهذا يعتبر عمرو بن عدي المؤسس الحقيقي لإمارة المناذرة اللخميين في القرن الثالث الميلادي.

وقد وصلت إلينا أسماء نحو عشرين أميراً ( ملكاً ) منهم وأهمهم امرؤ القيس الأول (٢٨٨ – ٣٢٨م ) الذى ينسب إليه نقش النمارة بجبل الدروز فى بلاد الشام ، وهو نقش يؤكد أنه كان محاربا شجاعاً امتد نفوذه خارج حدود إمارته ، وأنه أخضع القبائل العربية فى شمال شبه الجزيرة. ومن سلالته النعمان الأول ( ٤٠٠ – ٤١٨ م) الذى كانت علاقته بأكاسرة الفرس وطيدة بحيث وثقوا فيه لتربية أبنائهم، مثلما فعل يزدجرد الذى عهد إليه بتربية ابنه بهرام جور الذى نشأ بفضل ذلك نشأة عربية. ورغم أن النعمان لم يعتنق المسيحية فإنه لم يضطهد أتباعها، وإنما أباح لهم حرية ممارسة شعائرهم وبناء كنائسهم.

وبعد موت النعمان خلفه ابنه المنذر الأول ( ٤١٨ – ٤٦٢م ) الذى بلغت الإمارة فى عهده شأو مجدها، وحسبنا فى ذلك أنه تدخل فى شئون الحكم الفارسى؛ بأن زحف بجيشه على العاصمة الفارسية المدائن؛واسترد العرش لولى العهد بهرام جور، ونصبه عليه بعد أن قضى على معارضيه؛ ثم اشترك معه فى عام ٤٢١م فى قتال خصومه الروم والغساسنة . ولما ارتقى العرش المنذر الثالث المعروف بابن ماء السماء (٥٠٥ – ٥٥٤م) تابع محاربة الروم فى الشام ، وامتدت غاراته عليهم حتى أنطاكية إلى أن قتل على يد الحارث بن جبلة الغسانى .

ومنذ ذلك الحين ابتدأ الضعف يتطرق إلى الحيرة، لا سيما فى عهد النعمان الثالث ( ٥٨٥ – ٦٠٥م تقريباً ) ، كما ساءت علاقته بكسرى فارس لأنه تقاعس عن نصرته ضد أعدائه؛ فضلاً عن أنه تقارب بعلاقته مع الغساسنة عن طريق المصاهرة؛ ثم اعتنق المسيحية على المذهب النسطورى، وهو ما أفزع كسرى فارس الذى أخذ يتحايل عليه حتى استدرجه إلى العاصمة الفارسية، وهناك تمكن منه فقتله، وولى مكانه زعيماً عربياً آخر من قبيلة طئ ويدعى إياس بن قبيصة، تحت وصاية مقيم فارسى يهيمن على السلطة، وظل الأمر على هذا النحو إلى أن أقدم المسلمون على فتح منطقة الحيرة فى عهد أبى بكر الصديق.

وجدير بالذكر أن النعمان كان قد أودع عند أحد زعماء العرب ويدعى هانئ



الامبراطورية البزنطية
الامبراطورية الفارسية
دولة الغساسنة
دولة المناذرة
قبائل عربية
البحر الابيض المتوسط
قبرص
كلب
طي
عبس
بكر
تغلب
شيراز
جرها

ابن مسعود الشيبانى أمواله وسلاحه وأولاده، قبل أن يذهب إلى العاصمة الفارسية؛ وبعدما قتله كسرى طلب من هانئ أن يقوم بتسليم ما أودعه النعمان عنده. فلما رفض هانئ جرد إليه كسرى جيشا لتأديبه، فتكاتف العرب لأول مرة فى تاريخهم حول قوميتهم، وتصدوا لهذا الجيش وتمكنوا من إيقاع هزيمة فادحة به فى موقعة خالدة تعرف بذى قار فى حوالى عام ٦٠٩م؛ وهو أمر بالغ الدلالة على ضعف الفرس وقتذاك – مثلهم فى ذلك مثل الروم – من جراء الحروب المتصلة بينهما، وما أضيف إليها من اضطرابات داخلية، وهو ما مهد للجيوش الإسلامية لأن تعصف بأراضيهما حينما انطلقت نحوهما فى عهد أبى بكر الصديق ومن بعده عمر بن الخطاب.

**ثالثا: عرب *الشمال* في *الحجاز*:**

حينما اضطربت أحوال عرب الجنوب فى أطراف شبه الجزيرة العربية سواء فى اليمن جنوباً أو فى باديتى الشام والعراق شمالاً، وانهارت حكومتهم خلال القرن السادس الميلادى مثلما أوضحنا من قبل، انتقل مركز الثقل السياسى والحضارى إلى إخوانهم عرب الحجاز منذ ذلك الحين وحتى ظهور الإسلام؛ وذلك بفضل موقع بلادهم التجارى بين الشام واليمن، وبفضل مركزها الدينى فضلا عن بعدها عن الأخطار الأجنبية، التى هددت أطراف شبه الجزيرة العربية فى الشمال وفى الجنوب.

ولا يعنى ذلك أن الحجاز قبل ذلك التاريخ كان منسياً أو منعزلا عن مسرح التاريخ، وإنما على العكس من ذلك كان ممراً للقوافل التجارية بين الشام واليمن، ولذلك اشتغل أهله بالتجارة فى المقام الأول؛ وخاضوا بتجارتهم أسواق الشمال والجنوب، وبالتالى اتصلوا بالأمم هنا وهناك، وليس أدل على ذلك من محاولة الرومان إخضاع الحجاز لسيطرتهم فى عام ٢٤ ق.م؛ كما أن حملة أبرهة الحبشى على مكة فى عام ٥٧٠م وإن تخفت تحت ستار هدم الكعبة فإنها كانت تهدف إلى السيطرة على مكة، ومن ثم على القبائل المنتشرة فى الحجاز، إلا أن الحملتين فشلتا فشلاً ذريعا؛ وقدر للحجاز أن يحافظ على استقلاله من السيطرة الأجنبية، وبالتالى

حافظ أهله العرب على عروبتهم الأصيلة، التى ميزتهم عن إخوانهم عرب الأطراف فى الشمال، الذين أصابتهم حضارة الفرس والروم؛ وعلى ذلك كان عرب الحجاز مهيئين لحمل رسالة الإسلام وتكوين الدولة العربية الكبرى.

وقد برزت مكة من بين مدن الحجاز خلال القرن السادس لتكون أشبه بعاصمة الحجاز؛ إذ على الرغم من وقوعها فى واد غير ذى زرع إلا أنها صارت مركزا للحج العربى السنوى، نظراً لانفرادها بوجود البيت العتيق الذى كان قد وضع قواعده إبراهيم عليه السلام بالاشتراك مع ابنه إسماعيل؛ وعلاوة على ذلك فقد ساعدها موقعها عند منتصف الطريق التجارى بين الشام واليمن على تطورها ونموها بسرعة.

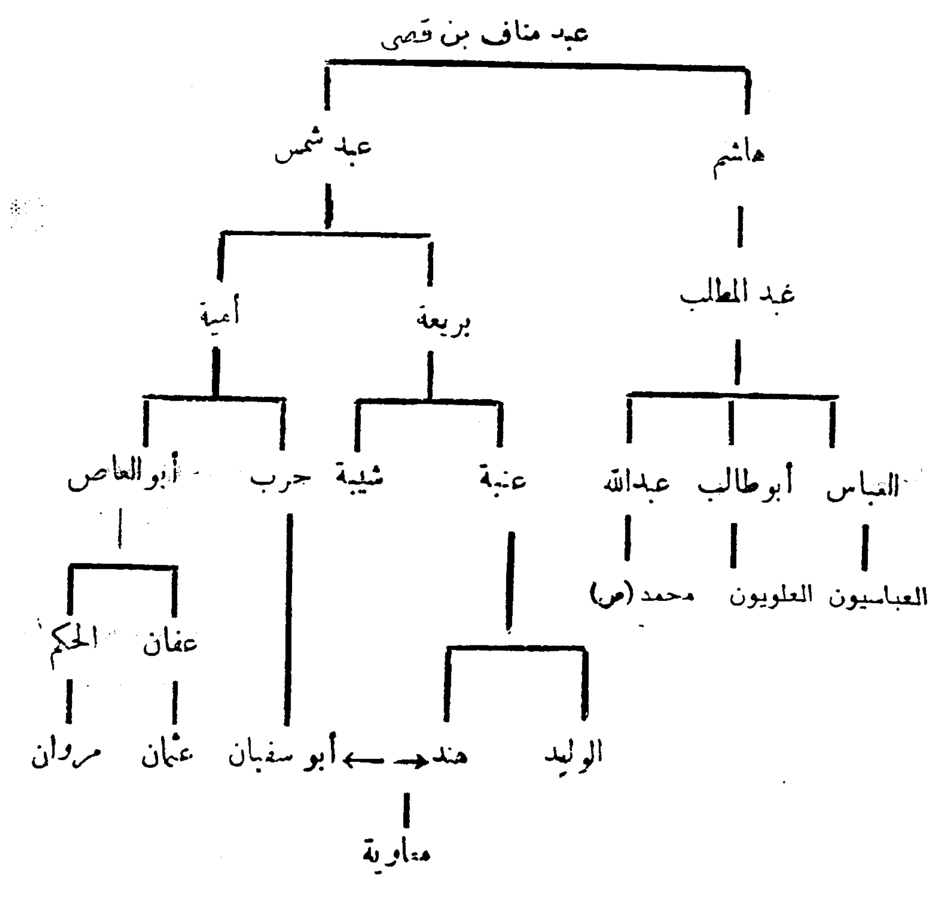
ومن أقدم القبائل العربية التى سكنت مكة قبيلة جرهم، التى جاءتها من اليمن إثر ما حل بها من قحط، وهى القبيلة التى نشأ بينها إسماعيل عليه السلام، وتكلم لغتها وتزوج منها؛ وصارت لجرهم الولاية أى الاشراف على البيت العتيق، حتى وفدت قبيلة خزاعة اليمنية مع بداية القرن الثالث الميلادى؛ فغلبت جرهم وانتزعت منها الزعامة التى صارت بأيديها نحو ثلاثمائة عام، أحدثت خلالها كثيرا من الأوهام لاسيما عبادة الأوثان التى يقال أن زعيمها عمرو بن لحى هو الذى أدخلها من الشام. وظل الأمر بيد خزاعة فى مكة حتى ظهر قصى بن كلاب فى قريش التى كانت تسكن قلب تهامة، فناصب خزاعة العداء وتمكن فى نهاية الأمر من إخراجها من مكة فى القرن الخامس الميلادى؛ وبذلك استولت قريش على مقاليد الأمور فى مكة، لا سيما حق الإشراف على البيت وعلى الحج السنوى العربى إلى الكعبة.

وقد وضع قصى لمكة نظاماً إدارياً يكفل لها الاستقرار السياسى، ويهيئ لقريش طريق الزعامة على بلاد العرب كلها قبل الإسلام؛ وكان أول أركان هذا النظام أن جمع قصى أحياء قريش وبطونها المتفرقة فى شعاب مكة وأسكنها فى مكة ذاتها، وأكسبه هذا العمل لقب « المجمع » إذ جعل لكل بطن من بطون قريش حياً خاصا بها على مقربة من الكعبة لحمايتها من أى عادية. كما شيد قصى لنفسه دارا يؤدى بابها إلى الكعبة مباشرة سماها « دار الندوة » ، لتكون منتدى وملتقى زعماء قريش للتشاور

وتبادل الآراء فى أمورهم. وإلى جانب رئاسته لدار الندوة فقد احتفظ قصى لنفسه بوظيفة الحجابة أو السدانة أى الإشراف على الكعبة وحفظ مفاتيحها لا يفتحها إلا هو ولا تبتدئ الشعائر الدينية إلا بإذنه؛ فضلا عن وظيفة اللواء أى حمل راية الحرب وقيادة الجيش وقت الحرب . وفى نفس الوقت نظم ما سمى بالسقاية وهى تدبير الماء للحجاج، وفرض ما سمى بالرفادة وهى ضريبة ترافدت أى تعاونت قريش فيما بينها على إخراجها سنوياً لتصنع منها طعاما لفقراء الحجاج وغيرهم ممن يهبطون مكة وقت الحج.

وعلى هذا النحو جمع قصى فى شخصه كل مظاهر الرئاسة والزعامة الدينية والمدنية على مكة والكعبة، وهى زعامة ظلت فى قريش يتوراثها أحفاده من بعده، ومن أهمهم عبد المطلب بن هاشم جد الرسول ﷺ، ثم ابنه العباس الذى عاصر الرسول ﷺ ، فلما أسلم العباس انتقلت زعامة قريش على مكة إلى أبى سفيان بن حرب حتى فتحت مكة فى العام الثامن اللهجرة ودخلت قريش برمتها فى الاسلام.

والمهم أن زعامة قريش لم تقتصر على مكة وحدها وإنما امتدت أيضا إلى سائر القبائل العربية التى تؤم البيت الحرام من كافة أرجاء شبه الجزيرة العربية، بحيث صارت لها مكانة خاصة فى نفوس هذه القبائل؛ كما أن هذه الزعامة أتاحت الفرصة لكثير من رجال قريش فظهرت مواهبهم بعد ظهور الإسلام ؛ وصار منهم رجال كثيرون يعدون من أكبر قادة العالم فى السياسة وفى الحرب على السواء .




**عبد منـــاف**

**الجد الأعلى للأسر الاسلامية التى حكمت فى القرون الاولى**

# الفصل الثالث

# أحوال العرب عشية ظهور الإسلام

جرى العرف على إطلاق مصطلح الجاهلية على تاريخ العرب قبل ظهور الإسلام، ومعلوم أن الجهل لغويا يعنى نقيض العلم، وبالتالى فلا يستقيم هذا الاصطلاح مع حقيقة ما عرفه المجتمع العربى قبل الإسلام من ازدهار ثقافى؛ ونعتقد أن صياغة هذا المصطلح جرت من قبل الفقهاء بعد ظهور الإسلام انطلاقاً من التعبير القرآنى « الجاهلية الأولى » حيث كان العلم يتصور فى إطار الدين، لكن التعبير القرآنى ينطوى على مرامى أبعد وأعمق وأشمل مما تصوره الفقهاء، فدلالته تمتد إلى كافة الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعقلية والعقيدية، التى كانت عشية ظهور الإسلام قد بلغت حداً من التدهور، بحيث تطلب الأمر تغييرا شاملاً لإعادة صياغة هذه الأوضاع على أسس جديدة، لتحقيق مجتمع تسوده الوحدة السياسية والديمقراطية والتكامل الاقتصادى والمساواة والعدالة والعقلانية ارتكازا على عقيدة توحيدية سماوية .. ولتوضيح ذلك يقتضينا الأمر أن نلم بأحوال العرب عشية ظهور الإسلام.

**( ١ ) *الأحوال السياسية* :**

إن استقراء الأحوال السياسية للعرب عشية ظهور الإسلام يفسر أن الجاهلية فى جانبها السياسى كانت تعنى الافتقار إلى وجود حكومة مركزية تخضع لها كافة أقاليم شبه الجزيرة العربية.

فقد تدهورت الحكومات المركزية القوية فى الدول التى قامت باليمن وآخرها دولة حمير، بسبب الصراعات الداخلية التى لعبت فيها الأقليات اليهودية والنصرانية دوراً مخرباً ، أفضى إلى التدخل الأجنبى طمعاً فى السيطرة على معابر التجارة واحتكار حركة الوساطة التجارية؛ وهذا يفسر حملة أبرهة الحبشى التى حاولت هدم الكعبة لا لأسباب دينية، وإنما لإقامة مركز تجارى يستقطب النشاط الاقتصادى ، الذى كانت مكة محوره. وبالمثل كانت الحملات الفارسية لذات الأهداف، وقدر لها أن تحقق طموحاتها فأسقطت دولة حمير وظلت تتحكم فى اليمن حتى ظهور الإسلام.

كذلك فقد تدهورت أوضاع إمارتى المناذرة والغساسنة على التخوم الشمالية

بسبب سياستهما الخرقاء فى معاداة بعضهما البعض، التى جرتهما إلى معترك الصراع بين الفرس والروم الذين استخدموهما لتحقيق أغراضهم فحسب، فخاضتا حروبا طويلة مريرة لا ناقة لهما فيها ولا جمل، وهو ما أنهكهما وأضعف كيانهما فى سنيهما الأخيرة؛ وقلب الفرس لأمراء المناذرة الأواخر ظهر المجن فأقصوهم عن العرش، ونصبوا مكانهم حاكما فارسيا دلالة على زوال استقلال هذه الإمارة العربية، فتفرق شمل قبائلها العربية حتى ظهر الإسلام الذى أعادهم إلى أمتهم العربية الناهضة. وفى نفس الوقت نظر الروم لأمراء الغساسنة الأواخر نظرة ريبة وشك بسبب الاختلاف المذهبى معهم، فألقوا عليهم القبض ونفوهم وضعف أمر إمارتهم، وانفرط عقد قبائلهم العربية مثلما حدث لأقرانهم فى إمارة الحيرة، ولم ينقذهم من تلك الفوضى الضاربة سوى ظهور الإسلام، وقيام حركة الفتوح الإسلامية التى نجم عنها ميلاد الأمة العربية الجديدة.

أما أوضاع نجد فقد اتخذت طابعاً قبليا، أى تركز السلطة فى يد شيخ القبيلة ، وهو أمر أفرزته الطبيعة البدوية لسكانها. وتاريخ هؤلاء البدو فى غالبه سجل حافل بالحروب غير المنظمة المعروفة بأيام العرب، التى شجرت بين القبائل العربية بسبب الصراع على موارد الماء ومواطن الكلأ وهما مصدرا الحياة للبدو. وقد تعددت هذه الأيام وكثرت وما يعنينا منها هو أنها أجرت الدماء العربية سيولا على أرض شبه الجزيرة ، وتطلب حقنها نظاماً جديداً يوحد الطاقات العربية ويوجهها نحو العدو المشترك، وبالتالى ظهر لدى القبائل العربية ميل عام إلى الحياة السلمية؛ وهو ميل كان ضروريا لقيام الوحدة العربية التى تحققت على يد الرسول ﷺ. ومن ناحية أخرى كانت هذه الأيام بمثابة تدريب عسكرى متصل أكسب العرب مهارة حربية فذة، استثمروها فيما بعد فى فتوحاتهم الكبرى على أيام الخلفاء الراشدين فى أراضى الفرس والروم.

ولم يكن الحال فى الحجاز بأحسن مما كان عليه فى نجد، على الرغم من بروز الحجاز آنذاك كمركز للتجارة بين الشمال والجنوب؛ فتمثلت الحياة السياسية فيها فى ظهور نظم ذات طبيعة خاصة. فكانت دار الندوة التى أقامها قصى بن كلاب فى مكة هى مركز السلطة السياسية التى عرفت باسم حكومة الملأ، والتى تكونت من

زعماء الأسر المكية لإدراة شئون مكة. وارتبطت مدينة الطائف بهذا النظام المكى ارتباطاً وثيقاً نظرا لاقتناء الأرستقراطية المكية الضياع فيها، وبالتالى مارست هذه الأرستقراطية فى الطائف نوعاً من النفوذ والسيادة؛ وظل الحال على هذا المنوال حتى ظهور الإسلام؛ بحيث أن سكان الطائف من قبيلة ثقيف تنكروا للرسول ﷺ تحت تأثير هذه الأرستقراطية المكية حينما لجأ إليهم.

أما يثرب فكانت تحت سيادة اليهود من بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع الذين وضعوا أيديهم على أراضيها الزراعية ، واحتكروا صناعاتها الذهبية وهيمنوا على شئونها المالية، بحيث صارت لهم السيادة والنفوذ فيها. فى الوقت الذى كانت فيه العلاقات بين قبائل الأوس والخزرج العربية على غير ما يرام، وشهدت العلاقات بينهما عديدا من الحروب التى أذكى اليهود لهيبها؛ وبالرغم من اتفاق هذه الأطراف على إفراز حكومة تشيع السلام فى المدينة ، إلا أن كافة القوى كانت تتربص ببعضها البعض، وتنتظر الفرصة المواتية للثأر والسيطرة على المدينة؛ إلى أن ظهر الإسلام وتغير فيها الحال.

صفوة القول أن أوضاع العرب السياسية عشية ظهور الإسلام كانت مضطربة من جراء الحروب القبلية والإقليمية والخارجية، وحال هذا الاضطراب دون تحقيق وحدة سياسية تجمع شمل عرب شبه الجزيرة، تلك الوحدة التى قدر لها أن تتحقق بفضل الإسلام.

**(٢) الأوضاع الاقتصادية :**

لعبت الظروف الجغرافية دوراً موجها فى صياغة وتوجية النشاط الاقتصادى فى شبه الجزيرة العربية. فنظرا لتوافر الأمطار الموسمية وخصوبة التربة فى بلاد اليمن فقد ظهر فيها مجتمع زراعى؛ ونظراً لموقعها وهيمنتها على مدخل البحر الأحمر فقد لعبت الممالك التى قامت فيها دوراً هاماً فى تجارة العالم القديم ، وظهرت فيها طبقة تجارية أفادت من دورها كوسيط فى تجارة العبور ؛ إلا أن هذا النشاط الاقتصادى المزدهر قد تدهور عشية ظهور الإسلام ، نتيجة لانهيار سد مأرب والصراعات الداخلية فى أواخر عصر دولة حمير، فضلاً عن خضوع البلاد للاحتلال الأجنبى الحبشى ثم الفارسى.

ونفس الشئ يقال عن اقتصاد الغساسنة والمناذرة، إذ كان اقتصادهما تابعاً للقطبين المتنافسين الفرس والروم؛ وعملت الحروب المتصلة بينهما عملها فى تخريب النشاط الزراعى والرعوى، فضلاً عن تهديد حركة التبادل التجارى.

أما موسطة بلاد العرب فكانت جرداء قاحلة، ولذلك كان الرعى هوالحرفة الأساسية لسكانها من البدو، بالإضافة إلى زراعة محدودة فى الواحات؛ وقبل ظهور الإسلام تدهور هذا النشاط الاقتصادى بسبب الصراع بين القبائل على موارد المياه ومواطن الكلأ.

أما فى مدن الحجاز فقد اشتهرت الطائف بوفرة مياهها، ولذلك شهدت نشاطا زراعياً، فضلاً عن غابات ثرية بالأخشاب، وحسبنا أن أثرياء مكة كانوا يقتنون فيها العقارات حتى ارتبطت المدينتين بوشائج اقتصادية متينة، فعرفتا باسم القريتين أو المكتين، وبديهى أن تقوم على هذه المنتجات الزراعية بعض الحرف اليدوية والصناعات التحويلية.

فى حين كانت أراضى يثرب التى اشتهرت بخصوبتها فى حوزة اليهود، الذين هيمنوا أيضاً على تجارتها واحتكروا شئون ماليتها، فضلاً عن بعض الصناعات كصناعة الأسلحة وأدوات الزراعة. أما مدينة مكة فكانت محور النشاط الاقتصادى ليس فقط فى الحجاز وإنما فى شبه الجزيرة برمتها، إذ على الرغم من افتقارها إلى الانتاج الزراعى؛ ولم تعرف نشاطا صناعيا مكثفا بالمعنى المعروف ، وإنما مجرد حرف بدائية كالحدادة والنجارة والنسيج وصناعة السروج، وكلها كانت تخدم الحرفة الأساسية لأهل مكة وهى التجارة . ومع أن هذه التجارة لم تكن تعدو مكة فى بداية الأمر، إلا أن وقوعها عند منتصف الطريق بين الشام واليمن قد أهلها لأن تنفرد بالسيطرة على الطريق التجارى بينهما، وترث دور ممالك اليمن فى القيام بدور الوسيط فى التجارة العالمية، حينما تدهورت هذه الممالك فى القرن السادس الميلادى وهو القرن السابق على ظهور الإسلام.

ويرجع الفضل إلى هاشم بن عبد مناف وإخوته فى تركيز هذه السيطرة والوساطة التجارية العالمية بأيدى قريش، بما قاموا به من تنظيم لقوافل قريش

فى رحلتى الشتـاء والصيف بين الشام واليمن، وتأمين رحلاتها بعقد عديد من المحالفات التجارية مع الدول المجاورة كالروم والفرس والأحباش؛ فضلاً عن إبرام الإيلافات مع معظم القبائل العربية الواقعة فى طريق رحلات هذه القوافل؛ ونتيجة لذلك زاد نفوذ قريش التجارى محليا وعالميا، إلى جانب نفوذها الدينى على القبائل العربية بسبب إشرافها على البيت الحرام .

وفى ذات الوقت صارت مكة سوقاً محلياً وعالمياً، لتبادل السلع والحصول على البضائع المستوردة من أسواقها التى عقدت فيها مثل عكاظ وذى مجنة وحباشة وذى المجاز، إذ لم تقتصر هذه الأسواق على القبائل العربية التى تفد فى مواسم الحج من سائر أنحاء شبه الجزيرة العربية، وإنما أيضاً شهدت وكلاء تجاريين من مختلف البلاد المجاورة كمصر والشام وفارس والحبشة، وتبعاً لذلك يستطيع المرء أن يتصور كيف غصت مكة بالفنادق والخانات والمصارف إلى غير ذلك مما يخدم شئون التجارة، ويقدم سبل الراحة للتجار الوافدين أو العابرين، مما يدل على ازدهار تجارة مكة محليا وعالمياً ازدهاراً نتج عنه كثرة الأموال وتراكمها فى أيدى سادتها من قريش .فيتحدث القرآن الكريم بوضوح عن فئة من هذه الطبقة تكسب القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، وعن الذين يكنزون « الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله »؛ كما يسمى على الأقل واحداً من أثرياء مكة، الذين جمعوا قدراً هائلاً من المال وهو أبو لهب، مشيراً إلى موقفه الطبقى المتعنت اعتماداً على ثروته.

خلاصة القول أن التجارة فى المجتمع المكى عشية ظهور الإسلام شكلت عصب الحياة الاقتصادية؛ لكن نظرا لارتكازها على أساس الاستغلال فقد تفشت كثير من المساوئ الاجتماعية والاقتصادية، لا سيما الربا والمضاربات والاحتكار، وهى مساوئ انعكست على أوضاع مكة السياسية بحيث كان المجتمع المكى يعانى أزمة خانقة فى كافة جوانبه. وليس أدل على هذه الأزمة من ظهور ردود فعل معارضة تمثلت فى حركتى الفتوة والصعلكة كمحاولة للتصدى لهذه الأوضاع. والمقصود بالفتوة أن قطاعات مستنيرة من الطبقة الأرستقراطية ساءها استغلال الأقلية للأغلبية فانشقت على طبقتها، ووقفت إلى جانب الطبقات المستضعفة تساعدها ما أمكن للتخفيف من حدة مشاكلها. أما الصعاليك فكانوا من الطبقات المعدمة وشكلوا

جماعات خارجة تغير على قوافل كبار التجار وتنهبها وتوزع بعضها بالتساوى بين أفرادها، وتهب البعض الآخر للفقراء والمعوزين. لكن لم تسفر هذه الحركات عن الإطاحة بالنظام السائد ، ولم تنجح فى إصلاحه أو ترشيده لأن المشكلات القائمة كانت تتطلب حلاً جذرياً ، ولم يكن هذا الحل إلا ظهور الإسلام.

**(٣) الأوضاع الاجتماعية :**

كانت الأوضاع الاجتماعية خليطاً من النظام القبلى ونظام الطبقات، نظراً لطبيعة النظام الاقتصادى الذى كان مزيجا من الأنماط الزراعية والتجارية والرعوية، كما يرجع أيضاً إلى طبيعة النظام السياسى الذى استند على العصبية؛ وبالتالى أفرز هذا النظام السياسى والاقتصادى البنية الاجتماعية عشية ظهور الإسلام على أساس طبقى لا عنصرى أو طائفى؛ ويمكن رصد هذا البناء الطبقى على النحو التالى :

**( أ ) الطبقة الأرستقراطية** : وتتكون من كبار التجار الذين كانوا فى نفس الوقت يقتنون الضياع ويهيمنون على الحرف ويتحكمون فى شئون المال، وبالتالى تكونت منهم الطبقة الحاكمة لأن الثروة كانت أساس الحكم، أى أن من يملك يحكم. هذا وقد عاشت هذه الطبقة حياة ترف وبذخ فشيدت القصور واقتنت الغلمان والجوارى، وتقلبت فى حياة المجون وتفشت بينها الأمراض الاجتماعية كاحتساء الخمر ولعب الميسر.

ومن الخطأ الشائع اعتبار قريش برمتها تدخل ضمن هذه الطبقة ، إذ يجب التمييز بين قريش البطاح وقريش الظواهر، فمن قريش البطاح تشكلت شرائح هذه الطبقة، أما قريش الظواهر فكانت تقيم فى أطراف مكة وتعيش حياة شبه بدوية، وسنلاحظ أن الأرستقراطية المكية هى التى ستتصدى لمقاومة الدعوة الإسلامية، لا لأسباب دينية وإنما لأن الإسلام حمل عليها وجاء ليزحزحها عن مكانتها؛ ويمكن قياساً على ذلك اعتبار شيوخ القبائل فى سائر أنحاء شبه الجزيرة ممثلين لهذه الطبقة الأرستقراطية، وكذلك القبائل اليهودية فى يثرب .

**(ب) الطبقة الوسطى** : وتضم فى الغالب صغار التجار والحرفيين الذين يتاجرون فى عروض بسيطة ، ويقترضون من كبار التجار والملاك لمباشرة نشاطهم

الاقتصادى ويمارسون بعض الحرف، ويديرون الفنادق والخانات والحوانيت، أو يسهمون بأسهم متواضعة فى قافلة من قوافل كبار التجار، وعلى وجه الإجمال كانت شرائح هذه الطبقة تمتهن شتى الحرف، والقاسم المشترك بينهم هو تملك رأس مال سواء كان عقاراً أو إبلاً أو مالاً أو جوارى، ويوظفون رأس المال فى إطار الأعراف السائدة.

**(جـ) المعدمون** : الذين لا يملكون شيئاً سوى قوة عملهم، يوظفونها لحساب الغير إما فى الزراعة أو الرعى أو حراسة القوافل، ويشكلون السواد الأعظم من السكان، ويعيشون فى فقر مدقع بحيث كانت المجاعات تلتهم منهم أعداداً غفيرة. وقصص الموت جوعاً من الأمور المألوفة فى الروايات التاريخيةفيصف بعض صعاليك العرب حالة الجوع الحادة التى كان يعيشها أفراد هذه الطبقة إلى درجة أنهم كانوا يماطلون الجوع بأن يستفوا التراب حتى لاتظهر عليهم آثاره فتشمت فيهم الطبقة الأخرى، كما أشار القرآن إلى طبقة متعددة الشرائح من الذين بينهم وبين الطبقة الثرية هوة واسعة؛ ومن بينهم الفقراء والمساكين والسائلين واليتامى، الذين لم يكن يضمن لهم المجتمع وقتذاك أى نوع من الكفالة الاجتماعية. كما شاعت بينهم ظاهرة وأد البنات خشية الإملاق . ومن هذه الطبقة نشأت جماعات الصعاليك التى كانت رد فعل لتسلط الطبقة الأرستقراطية، ولسوف ترحب هذه الطبقة بالدعوة الإسلامية بهدف الخلاص من وضعها المزرى، على أساس أن الإسلام يدعو إلى التكافل والعدل والمساواة.

**( د ) الأرقاء أو العبيد** : وجد العبيد على نطاق واسع لا سيما فى مكة، حيث قاموا بدور هام فى عمليات الإنتاج سواء فى الزراعة أو الرعى أو الحرف أو التجارة فضلاً عن الخدمة المنزلية. وكانت الطبقة الأرستقراطية تتملك العبيد سواء من العرب نتيجة الحروب أو حالة الفقر الشديد التى عاشها المعدمون، بحيث شاعت ظاهرة تحول الأحرار إلى أرقاء تحت إلحاح الحاجة. كما حرصت الطبقة الأرستقراطية فى مكة على شراء العبيد الأبيض والأسود من أسواق النخاسة ، وعلى سبيل المثال نذكر أسماء سلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى. وسنلاحظ أن هذه الطبقة ستكون حليفة للمعدمين، وسترحب باعتناق الإسلام الذى فتح الباب على مصراعيه لتحرير العبيد.

خلاصة القول أن الهوة الواسعة بين الطبقات وما ترتب عليها من أمراض اجتماعية كانت تتطلب حلا جذريا، يعيد ترسيخ الأوضاع على أساس متوازن؛ ويكفل لكافة السكان حياة قوامها التآخى والمساواة ، وكان ظهور الإسلام هو الحل الناجح لكافة تلك المشكلات .

**(٤) *الحياة العقلية* :**

معلوم أن الفكر عموماً هو انعكاس أمين للواقع الاقتصادى الاجتماعى؛ ومن هذا المنظور يمكن أن نرى حقيقة الأوضاع الفكرية فى شبه الجزيرة العربية؛ ومع أن تلك الأوضاع تباينت بتباين أنماط الواقع الاقتصادى الاجتماعى بين أقاليم شبه الجزيرة؛ فإنها اتحدت فى وجود قاسم مشترك لأن الاختلافات فى أنماط الانتاج لم تكن جذرية ، اللهم إلا فيما بين المراكز التجارية والأقاليم الصحراوية، وقد خفف من غلوائه حركة الاتصال بين البادية والحواضر ؛ بحيث نجد أن اللغة العربية كانت اللغة السائدة رغم اختلاف لهجاتها بين عرب الجنوب وعرب الشمال؛ غير أنه بتدهور ممالك بلاد اليمن سياسياً حلت محلها لغة عرب الشمال؛ التى تطورت تطوراً عظيماً بفضل اتصال أهلها عن طريق التجارة بلغات البلاد المجاورة؛ ثم أسهمت اللقاءات الأدبية بين القبائل العربية المختلفة فى مواسم الحج بمكة فى أن نالت لهجة قريش سيادة على سائراللهجات؛ بحيث لم يأت القرن السابق على الإسلام حتى أصبحت لغة قريش هى السائدة فى بلاد العرب؛ وبالتالى كانت اللغة التى نزل بها القرآن ؛ ومن ثم يمكن اعتبارها اللغة القومية.

وقد ظهرت روائع هذه اللغة فى ثلاث نواح هى الأمثال والقصص النثرى والشعر ، وإن كان ما وصلنا من هذا التراث دون فى وقت متأخر. والأمثال هى صدى لحياة الناس على اختلاف طبقاتهم، وهى من حيث صياغتها اللغوية بليغة مختصرة؛ تنطوى على تجارب ومعان عميقة تجسد نوعا من التفكير الفلسفى، الذى عبرت عنه القريحة العربية، ويكفى دليلاً على ذلك أن نتصفح كتاب الأمثال للميدانى، وجمهرة الأمثال لأبى هلال العسكرى.

أما النثر فلم يلق انتشارا كبيراً وَاقتصر على القصص المتعلقة بأحداث العرب

وأيامـهم، وربمـا كـان السبب فى ذلك عدم اهتمـام العرب بالخط والكتـابة وإحلال الذاكرة محل التدوين المكتوب، ومن هنا كان اهتمامهم بالشعر لسهولة إيداع الأخبار بين أبياته، وحظى الشعراء بمكانة خاصة بين قبائلهم فى السلم وفى الحرب، إذ كانوا هم المعبرين عن حياة هذه القبائل وطموحاتها، وبالتالى صار الشعر سجل حياتهم وتقاليدهم وعاداتهم وتاريخهم؛ لذلك قيل أن الشعر ديوان العرب.

ولا يعنى ذلك أن العرب افـتـقروا إلى الإلمـام بالعلوم والفنون ؛ ولكنهم على العكس من ذلك فقد ألموا ببعض المعارف والعلوم التى أملتها عليهم طبيعة حياتهم؛ مثل علم الأنساب الذى كان لأبى بكر الصديق باع فيه؛ كما كان لهم علم بمواقع النجوم وحركة الكواكب ومواقيت الرياح والمطر وتتبع الأثر، وفوائد بعض النباتات طبياً ووسائل العلاج البشرى والبيطرى. ومن ناحيـة أخرى فإن مـا خلفه العرب وراءهم من منشآت معمارية كالقصور والمعابد والسدود لها دلالاتها على وجود علم وتقنية وذوق فنى، وإن كان ما وصلنا فى هذا الصدد نادر وشحيح.

كذلك فقد لعبت الأسواق العربية التى كانت تعقد فى مكة دوراً هاماً فى إذكاء الحركة الفكرية عند العرب، بحيث وصلت هذه الحركة قبل الإسلام إلى درجة كافية من التقدم والرقى لأن تتقبل العقلية العربية الديانة الإسلامية وتتفهمها، وليس أدل على ذلك من أن هذه العقليـة استطاعت أن تتذوق القرآن الكريم الذى يعتبر نصه معجزا سواء من ناحية البناء اللغوى أو بلاغة التعبير؛ وأن تفهم الفرق بينه وبين غيره من أشعار وأقوال . كذلك يتجلى هذا الرقى الفكرى فى المقدرة التى أبداها قادة قريش فى إدارة شئون الدولة الإسلامية بعد وفاة الرسول ﷺ، سواء فى إطارها العربى على أيام أبى بكر، ثم فى إطارها العـالمى منذ أيام عـمـر بن الخطاب الذى لم تعـرف الإنسانية قاطبة رجل دولة على مستواه.

**(٥) *الحالة الدينية* :**

لم يكن التدين لدى العرب فى العصر الجاهلى عقيدة بقدر ما كان عادة ؛ كما كان تأثير الدين فى حيـاتهم ضئيلا، بدليل أن الشعر العربى وهو مرآة حيـاتهم لا يحوى شيئا يذكر عن الدين. وكان ارتباط العربى بآلهته مؤقتاً ومرتبطاً بمصالحه

المادية، حتى لقد بلغ استهتار بعض القبائل بآلهتها أنها صنعت أصنامها على شكل تماثيل من التمر تأكله وقت الحاجة غير آسفة عليه ، بل إن أحد الشعراء مر قرب الكعبة بصنم بال ابن آوى على رأسه، فلم يتمالك نفسه وأنشد ساخراً :

أرب يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب

ولعل الظاهرة الإيجابية الوحيدة فى هذه الحياة الدينية هو تقديس العرب العام للكعبة التى حلت محل المثل الأعلى المشترك، ومن هنا كان دورها الدينى والقومى فى وقت واحد .

ومع أن التاريخ لم يحفظ لنا شيئا ذا بال عن ديانة العرب فى الجاهلية، فقد انتشرت فى شبه الجزيرة العربية عبادة مظاهر الطبيعة من شمس وقمر ونجوم وكواكب ، لما كان لها من تأثير مباشر ودور هام فى حياة العربى اليومية. فقد عرفت المجتمعات الرعوية عبادة القمر لارتباطها بتحركاتها الليلية ومعرفة المواقيت، أما المجتمعات الزراعية المستقرة فقد شاعت فيها عبادة الشمس التى تعطى النماء للزرع وتنضج المحاصيل.

كذلك فقد انتشرت فى شبه الجزيرة الوثنية التى كانت تجسيدا لعبادة مظاهر الطبيعة والرمز إليها بأصنام على صورة إنسان أو حيوان أو طير أو نبات، ويكاد يجمع المؤرخون على أن عمرو بن لحى الخزاعى هو الذى أدخل عبادة الأوثان بين العرب، حينما استقدم معه من الشام صنما يدعى هبل ، فنصبه ودعى الناس إلى عبادته. هذا وقد تعددت الأصنام فكان لكل قبيلة أصنامها الخاصة؛ ومن أشهر هذه الاصنام اللآت وهى صخرة مربعة فى الطائف؛ والعزى وتمثلها شجرة فى وادى نخلة شرقى مكة، ومناة على شكل حجر أسود أقيم له معبد على الطريق بين مكة ويثرب؛ كما وجدت أصنام أخرى كثيرة منها أساف ونائلة وسواع وودا ويعوق ونسرا ويغوث ... الخ. وقد عمدت قريش إلى جمع أصنام القبائل المشهورة ووضعها حول الكعبة حتى بلغت ثلاثمائة وستون صنماً، وذلك رغبة من قريش فى إرضاء كافة القبائل العربية خدمة لمصالحها الاقتصادية.

كذلك دخلت اليهودية شبه الجزيرة لا سيما فى اليمن وصارت الديانة الرسمية

فى عهد أبى نواس الحميرى؛ ومن اليمن انتشرت شمالاً فى وادى القرى وخيبر وتيماء ويثرب حيث أقامت قبائل بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع؛ وقد نشر هؤلاء اليهود تعاليم التوراة من بعث وثواب وعقاب فيما نزلوه من أماكن. وانتشرت المسيحية أيضاً فى اليمن حتى صارت نجران أهم مواطنها هناك ، كما انتشرت فى إمارتى الغساسنة والمناذرة بشمال شبه الجزيرة؛ وإلى جانب المسيحية فى إمارة المناذرة فقد انتشرت المجوسية الفارسية، وليس أدل على تفشى تلك العقيدة بين كثير من القبائل العربية فى شمال شبه الجزيرة من اعترا ف الإسلام فيما بعد بأتباع هذه العقيدة باعتبارهم أهل ذمة.

وبسبب اختلاط العرب الوثنيين باليهود والنصارى، فقد فطن بعض المستنيرين منهم إلى سوء حالتهم الدينية ، وحاولوا الارتقاء بالوثنية إلى اعتقادات أرقى، فدعوا إلى دين توحيدى جديد له علاقة بالمسيحية ؛ ونبذ عبادة الأوثان، والتخلص من عادات الجاهلية كوأد البنات وشرب الخمر ولعب الميسر؛ واعتقدوا فى البعث وفى وجود إله واحد يحاسب ويجازى؛ وقد أطلق على هذه النزعة اسم التحنف وعلى أصحابها الحنفاء أو التائبون المعترفون؛ ومنهم أمية بن أبى الصلت الشاعر ، وورقة ابن نوفل ابن عم السيدة خديجة، وقيس بن ساعدة وغيرهم، وكان ظهور هذه النزعة يعنى الاتجاه إلى التوحيد.

وعلى وجه الإجمال فإنه حينما ولد الرسول ﷺ كانت الوثنية قد أخذت فى الضعف؛ وأخذ بعض العرب يؤمنون بالحياة الأخرى؛ وكان للمسيحية ولليهودية أتباع كثيرون يؤمنون بتلك العقيدة القائلة بالتوحيد. على أنه لم يقدر لأى منهما الفوز والغلبة فى شبه الجزيرة لأن المسيحية كانت مذهبا معقدا متعدد الفرق، وكانت اليهودية دين الشعب المختار الذى لم يقبل العرب على أنفسهم أن يضحوا له باستقلالهم، كما ضعف مذهب الحنفاء؛ ومع ذلك فقد مهدت الآراء والمذاهب المسيحية واليهودية والحنيفية الطريق لظهور الإسلام.

وعلى هذا النحو كانت الأوضاع العامة فى بلاد العرب بكافة جوانبها – السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعقيدية – تعارك أزمة طاحنة تتطلب حلا جذريا لعلاجها، ولم يكن هذا الحل سوى ظهور الإسلام.

# القسم الثانى
# البعثة النبوية

# الفصل الأول
## مولد الرسول ﷺ حتى الهجرة إلى المدينة

رأينا أنه مع بداية القرن السابع الميلادى كان العرب بشبه الجزيرة العربية مهيئين لنقلة جديدة، ومتأهبين لثورة دينية وسياسية كبرى، اتخذت فى البداية مظهراً دينياً لم يلبث أن اكتسب طابعا سياسيا. وقد ظهرت تلك الثورة فى مدينة مكة معقل الوثنية وأهم مركز تجارى على نطاق شبه الجزيرة كلها. وصاحب هذه الدعوة هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب من بنى هاشم.

كان جده عبد المطلب قد جاوز السبعين حين حاول أبرهة الحبشى مهاجمة مكة وهدم البيت العتيق، وكان ابنه عبد الله فى الرابعة والعشرين فرأى أن يزوجه، واختار له آمنة بنت وهب بن عبد مناف سيد بنى زهرة وقتذاك سنا وشرفا. وقد أقام عبد الله مع آمنة فى بيت أهلها ثلاثة أيام، على عادة العرب حين يتم الزواج فى بيت العروس، فلما انتقل وإياها إلى منازل بنى عبد المطلب لم يقم معها طويلاً، إذ خرج فى تجارة إلى الشام وتركها حاملا، ومكث فى رحلته هذه أشهرا، وفى عودته عرج على أخواله بيثرب يستريح عندهم من عناء السفر، لكنه مرض عندهم فتركه رفاقه حتى إذا بلغوا مكة أخبروا أباه بمرضه. فأوفد الحارث أكبر أبنائه ليعود به بعد شفائه، وعلم الحارث حين بلغ المدينة أن أخاه مات ودفن فيها بعد شهر من مسيرالقافلة إلى مكة، فرجع أدراجه ينعى أخاه إلى أهله ويثير من قلب عبد المطلب ومن قلب آمنة هماً وشجناً؛ لفقد زوج كانت آمنة ترجو فى حياته هناء وسعادة، وكان عبد المطلب عليه حريصا حتى افتداه من آلهته فداء لم تسمع العرب من قبل بمثله.

وتقدمت بآمنة أشهر الحمل حتى وضعت حملها فجر يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول ( ٢٠ أغسطس ٥٧٠م )؛ فبعثت إلى عبد المطلب عند الكعبة تخبره أنه ولد له حفيد غلام؛ وفاض بالشيخ السرور فأسرع إليها، وأخذ طفلها بين يديه وسار حتى دخل الكعبة وسماه محمدا، ثم رده إلى أمه وجعل وإياها ينتظر المرضعات من بنى سعد، لتدفع الأم بوليدها إلى إحداهن على عادة أشراف العرب من أهل مكة . فلما جاءت المرضعات يتلمسن الأطفال لإرضاعهن لم تقبل واحدة منهن على محمد، إذ كن يعرضن عن اليتامى لأن الرجاء فيهم قليل، وعادت كل مرضعة بمن ترجو من أهله وافر الخير.

على أن حليمة السعدية التى أعرضت عن محمد أول الأمر، كما أعرض عنه غيرها، لم تجد من يدفع إليها طفلها، لأنها كانت على جانب من ضعف الحال صرف الأمهات عنها. فلما أجمعت المرضعات على الانطلاق من مكة قالت حليمة لزوجها الحارث: والله إنى لأكره أن أرجع مع صواحبى ولم آخذ رضيعا، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم ولآخذنه. فأجابها زوجها قائلا: لا عليك أن تفعلى، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة؛ وأخذت حليمة محمدا وانطلقت به مع قومها إلى البادية.

أقام محمد ﷺ فى الصحراء سنتين ترضعه حليمة وتحتضنه ابنتها الشيماء، فلما أتم سنتيه وآن فصاله ذهبت به حليمة إلى أمه ، لكنها عادت به إلى البادية خوفا عليه من وباء كان فى مكة، وأقام الطفل بالصحراء سنتين أخريتين يمرح فى جوها الصحو الطلق، الذى لا يعرف قيدا من قيود الروح أو المادة، وينهل من صفائها روح الحرية والاستقلال النفسى، ويجد فى هوائها وخشونة العيش فيها ما يسرع به إلى النمو، ويزيد من دماثة خلقه وحسن تكوينه، حتى صار قوى البنية سليم الجسم فصيح اللسان يحسن ركوب الخيل وهو ما يزال فى تلك السن المبكرة .

وفى سن الخامسة عاد الطفل إلى أمه، فكفله جده عبد المطلب وأغدق عليه كل حبه، وأسبغ عليه جم رعايته حتى كان يؤثره على بنيه، ويرفه عنه أكثر مما يرفه عن ولده، ويقربه منه ويدنيه إليه، ولا يقدم على تناول طعام إلا وهو معه ، فيقعده على فخذه ويؤثره بأطيب طعام. فيذكر هشام بن محمد أن عبد المطلب كان يفرش له فى ظل الكعبة، ويجلس بنوه حول فراشه إلى أن يخرج، فإذا خرج قاموا على رأسه مع عبيده إجلالاً له ، وكان الرسول ﷺ يأتى وهو بعد غلام فيجلس على الفراش، فيأخذه أعمامه ليؤخروه ويبعدوه، فيأمرهم عبد المطلب بابقائه بقوله : دعوه فإن له شانا أما ترونه ؟ ويقبل رأسه وفمه ويربت على ظهره وبذلك أقلعوا عن تأخيره إلى حيث يجلسون. وزاد فى إعزاز الجد لحفيده أن آمنة خرجت به إلى يثرب لتريه أخوال أبيه من بنى النجار، وأخذت معها أم أيمن حاضنته ومربيته؛ فلما كانوا بها أرت الغلام البيت الذى مات فيه أبوه والمكان الذى دفن فيه، فكان ذلك أول معنى لليتم انطبع فى نفس الصبى، ولعل أمه حدثته طويلا عن هذا الأب المحبوب الذى غادرها بعد مقامه أياماً معدودة ليجيئه أجله بين أخواله، فقد كان الرسول ﷺ بعد

هجرته إلى يثرب يقص على أصحابه حديث تلك الرحلة الأولى إليها مع أمه، حديث محب لها حزين لمن تحوى القبور من أهله فيها، وبعدما أمضت الأم وابنها وحاضنته شهرا بيثرب اعتزموا العودة؛ وفى الطريق مرضت الأم بالأبواء وماتت فدفنت بها، وعادت أم أيمن بالطفل إلى مكة منتحباً وحيداً، يشعر بيتم ضاعفه عليه القدر فيزداد وحشة وألما، لقد كان منذ أيام يسمع من أمه أنات الألم بفقد أبيه وهو ما يزال جنينا، وها هو ذا قد رأى بعينيه أمه تذهب مثلما ذهب أبوه، وتدع جسمه الصغير يحمل هموم اليتم كاملا، ولما لم يجاوز عمره السادسة.

زاد ذلك فى إعزاز عبد المطلب إياه، ومع ذلك بقيت ذكرى اليتم أليمة فى نفسه، ولعل هذه الذكرى كان يخف بعض الشئ لو أن عبد المطلب عمر أكثر مما عمر، لكنه مات ومحمد مايزال فى الثامنة، وحزن الحفيد لموت جده حزنه لموت أمه، وظل دائم البكاء وهو يتبع نعشه إلى مقره الأخير، وحتى كان دائم الذكر له من بعد ذلك، مع ما لقى من بعده فى كفالة عمه أبى طالب من عناية وحماية امتدت إلى ما بعد بعثته ودامت إلى أن مات عمه.

كان عبد المطلب حين حضرته الوفاة قد جمع بنيه وأوصاهم بالصبى، فاقترع عليه بعد وفاته الزبير وأبو طالب أيهما يكفله، وأصابت القرعة أبا طالب فضمه إليه، أو أن الصبى هو الذى اختاره على عمه الآخر الزبير، إذ كان أبو طالب ألطف عميه به بحيث أحبه، فكان لاينام إلا بجواره فإذا خرج رافقه فى خروجه . وقد أحبه أبو طالب كحب عبد المطلب له حتى كان يقدمه على أبنائه، واجدا فيه من النجابة والذكاء والبر وطيب النفس مايزيده به تعلقا. وهكذا شب الرسول ﷺ فى رعاية عمه أبى طالب؛ لكن لما كان هذا العم فقيرا على عكس بقية أخواته، فقد اشتغل الرسول ﷺ وهو صبى برعى الغنم لأهله ولأهل مكة، فلما صار يافعا فى الثانية عشرة من عمره سأل عمه أن يصحبه فى تجارته إلى الشام ، إلا أنه أبى ضناً به وخوفاً عليه من مشقة الطريق ، فاغتم الرسول ﷺ وبكى فرق له قلب عمه واصطحبه معه، وحينما وصلت القافلة إلى بصرى ، رآه راهب نصرانى يدعى بحيرى، وكان منقطعاً فى صومعة، فلمح فيه مخايل النبوة وعلاماتها، فأوصى أبا طالب بأن يعود به إلى بلده، وأن يحذر عليه مكائد اليهود، قائلاً له : « ارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه

اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً، فإنه كائن له شأن عظيم ». ولذلك فما أن انتهى أبو طالب من تجارته حتى بادر بالعودة إلى مكة، ولم يسافر به بعد ذلك خوفاً عليه.

وفى هذه الرحلة وقعت عينا الرسول ﷺ على فسحة الصحراء، وتعلقتا بالنجوم اللآمعة فى سمائها الصافية البديعة، وجعل يمر بمدين ووادى القرى وديار ثمود، وتستمع أذناه إلى حديث العرب وأهل البادية عن هذه المنازل وأخبارها؛ ووقف فى بلاد الشام عند الحدائق اليانعة التى أنسته حدائق الطائف وما يروى عنها، والتى تبدت له جنات إلى جانب جدب الصحراء المقفرة والجبال الجرداء حول مكة.

كان الرسول ﷺ فقيراً لا يكاد يملك شيئا، وكان يكسب قوته من رعى الغنم، ولكنه فتى من قريش وأشرافها ورعى الغنم قد يليق بالصبية وأمثالهم من الذين لم يتقدم بهم الشباب، فأما إذا شبوا وبلغوا أشدهم فلابد لهم أن يسلكوا طرقا أخرى إلى الرزق، وعمه صاحب تجارة وأبوه مات تاجراً أيضاً، فما يمنعه أن يسلك الطريق التى ألفت قريش سلوكها؛ لا سيما وأن أنباء أمانته وصدقه ووفائه قد ذاعت فى مكة. وحينذاك ألحت عليه السيدة خديجة بنت خويلد - وكانت من أكثر قريش مالا وأوسطهم نسباً - أن يتولى تجارتها ، فقبل وخرج بتجارتها إلى الشام حيث باع لها واشترى ما أراد ، حتى تضاعفت تجارتها وأموالها؛ وكأن الله لم يجعل هذه التجارة إلا وسيلة لشئ آخر وراءها. ذلك أنه لما عاد الرسول ﷺ هو وميسرة غلام السيدة خديجة من الشام إلى مكة، حدث ميسرة سيدته بما رأى من أمانة الرسول ﷺ وصدق حديثه وعفافه وطهارته، وعما بشره به أحد رهبان الشام - وهو نسطور - من نبوته، فوقع الرسول ﷺ من قلب السيدة خديجة ورغبت فى أن تتزوجه، ودست إليه من عرض عليه ذلك إلى أن وافق فتزوجها فى حضور عمها عمرو بن أسد وعميه أبى طالب وحمزة، فكانت أول سيدة يتزوجها وهو ابن خمس وعشرين عاماً وهى فى الأربعين، ولم يتزوج غيرها حتى ماتت بعدما ولدت له أبناءه كلهم إلا إبراهيم.

ومنذ اليوم الذى ارتبط فيه الرسول ﷺ بالسيدة خديجة عاش فى مكة عيشة الموفورين لايشكو حاجة ولا يجد ضيقاً ، وأتيح له معها الأمن والدعة، ولكنه فى ذلك

الطور من أطوار حياته ظهرت فيه خصال لم تكن مألوفة فى شباب قريش : فهو شديد النفرة من اللهو واللغو والعبث، وأبعد الناس عن التعسف وأقربهم إلى السماحة واليسر، وأبغض الناس للأوثان التى كان قومه يعبدونها، وأصدق الناس إذا تكلم، وأوفاهم إذا عامل، وأبعدهم عن كل مايزرى بالرجل الكريم، وهو بعد ذلك أوصل الناس للرحم، وأرعاهم للحق، وأشدهم إيثارا للبر، فهو يجد عمه الذى كفله صبيا ويافعا قد كثر ولده، فأعانه دون أن يؤذى مشاعره، وأخذ منه صبيه عليا، ورد عليه من العناية واللطف والبر بعض ما أدى إليه أبوه حين كان صبيا يتيما؛ وعلاوة على ذلك اشتهر بالحكمة بحيث أنه حينما تفاقم الخلاف بين بطون قريش حول وضع الحجر الأسود بالكعبة حين تجديد بنيانها إثر سيل أصابها، كان هو الذى أنهى الخلاف بأن أشار عليهم بوضعه فى ثوب تمسك أطرافه كافة ممثلى قريش لوضعه فى مكانه فرضوا بذلك وانتهوا عن الشرور. وفى هذا الطور أيضاً أخذ يميل إلى العزلة شيئاً فشيئاً للتأمل فى ملكوت السموات والأرض حتى اشتد عليه حب العزلة، فجعل يترك مكة بين حين وآخر، ويمضى وقد تزود لعزلته حتى إذا بلغ غار حراء خلا فيه إلى نفسه الأيام والليالى، فإذا قضي أمره وانتهي زاده عاد إلي مكة فيطوف بالكعبة سبعاً ، ثم يمضى إلي داره ليتزود من جديد ويرجع إلي غاره، ومازال كذلك حتى بلغ الأربعين عاماً، وحينذاك بعثه الله رحمة للعالمين وبشيرا للناس كافة، وجاءه الحق وهو فى ذلك الغار، فكان أول ما بدأ به الوحى هو الرؤيا الصادقة أثناء نومه، فكان لايرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصباح؛ وكان إذا خرج إلى الغار لا يمر بحجر ولا بشجر إلا قال : السلام عليك يارسول الله، فيلتفت حوله فلا يرى إلا شجرا وحجارة دون أن يسمع أو يرى من يدعوه .

ومازال الرسول ﷺ يتابع خلواته وانفراده فى الغار حتى نزل عليه الوحى فى السابع عشر من شهر رمضان ، إذ جاءه جبريل عليه السلام وقال له : إقرأ فرد الرسول ﷺ قائلاً : ما أنا بقارئ، فأخذه وضمه إليه ضمة قوية ثم أطلقه، وعاد يقول له : إقرأ ، فكرر عليه الرسول ﷺ قوله : ما أنا بقارى، ومازال به جبريل حتى قال له الرسول ﷺ ماذا أقرأ ؟ فقال جبريل : إقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، إقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم. فقرأها الرسول ﷺ

وانصرف عنه جبريل، وعاد الرسول ﷺ إلى زوجته يرجف فؤاده، فدخل عليها قائلاً : زملونى زملونى – أى غطونى – فزملته حتى ذهب عنه الروع فقال: خشيت أن يكون قد عرض لى أمر، فسألته : وماذاك ؟ قال : إذا خلوت دعيت فأسمع صوتا ولا أرى شيئاً فقد خشيت، فأجابته: أبشر يا ابن عم واثبت، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة، والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، فقص عليه الرسول ﷺ ما سمعه، فطمأنه ورقة وقال له: هذا الناموس الذى نزل الله على موسى، ياليتنى فيها جذعاً، ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك؛ فقال له الرسول ﷺ: أو مخرجى هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركنى يومك لأنصرنك نصراً مؤزرا. وهكذا بشر ورقة الرسول ﷺ بنبوته، فأعلنت خديجة إسلامها وإيمانها برسالته، فكانت بذلك أول النساء إسلاماً.

فتر الوحى عن الرسول ﷺ بعد ذلك فترة، فحزن لإبطاء التنزيل عليه، وذات يوم وهو سائر سمع صوتاً ، فرفع رأسه نحوه فإذا هو جبريل بين السماء والأرض، فخشى منه الرسول ﷺ رهبة وداخله منه روع ، وأسرع إلى داره يرتجف حتى أتى زوجته وطلب منها أن تدثره، فنزلت عليه سورة المدثر : « ياأيها المدثر، قم فأنذر ، وربك فكبر، وثيابك فطهر .... »

وحينذاك أدرك الرسول ﷺ أنها الرسالة والنبوة والدعوة إلى الإسلام وترك عبادة الأوثان، فتجرد لأداء ما كلف به وما حمل من أمانة، لكنه طفق يفكر كيف يدعو قريشا إلى الإيمان بما جاء به وهم أحرص على باطلهم. وانتظر الرسول ﷺ هداية الوحى فى أمره، فإذا بالوحى يفتر عنه ثانية فحزن لإبطائه عليه، وبينما هو كذلك حتى جاءه قوله تعالى : « والضحى والليل إذا سجى، ما ودعك ربك وما قلى .... » ، وهنا تيقن الرسول ﷺ أن الله لا يتخلى عنه ، وأن عليه أن يعمل لإعلاء كلمة الحق، فبدأ بعشيرته وأقربائه، فاستجاب له ابن عمه على بن أبى طالب – الذى كان أول صبى فى الإسلام – ثم أبى بكر الصديق فعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبى وقاص والزبير بن العوام، ثم توالى إسلام

بعض رجالات قريش فضلاً عن المستضعفين من الموالى الذين كان زيد بن حارثة أولهم، ومن العبيد وعلى رأسهم بلال بن رياح ، حتى انتشر ذكر الإسلام فى مكة وتحدثت قريش به.

ومع ذلك ظل الرسول ﷺ يدعو للإسلام سراً قرابة ثلاثة أعوام، كان أصحابه خلالها يؤدون الصلاة خفية فى شعاب مكة ثم فى دار الأرقم بن أبى الأرقم، حتى أمره الله بإظهار دينه والجهر به، فى قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر، وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين »، أى لا تبالى بهم ولا تلتفت إلى لومهم إياك على إظهار الدعوة، تلاه قوله تعالى « وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين، فإن عصوك فقل إنى برئ مما تعملون ». حينذاك دعا الرسول عشيرته الأقربين إلى طعام فى بيته ، وحاول أن يحدثهم داعيا إياهم إلى الله فقطع عمه عبد العزى (أبو لهب) حديثه واستفز القوم ليقوموا؛ فدعاهم الرسول ﷺ فى الغداة كرة أخرى، فلما طعموا قال لهم : « ما أعلم إنساناً فى العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرنى ربى أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر؟ » فأعرضوا عنه وهموا بتركه، لكن عليا - وكان لايزال صبياً - نهض وقال : «أنا يارسول الله عونك، أنا حرب على من حاربت»، فابتسم بنو هاشم وقهقه بعضهم، وأخذوا يقلبون أنظارهم بين أبى طالب وابنه، ثم انصرفوا مستهزئين غير مكترثين.

انتقل الرسول ﷺ بدعوته بعد هذه الحادثة إلى أهل مكة جميعاً ، فتوجه إلى جبل الصفا وصعده ونادى قومه من بطون قريش كل باسمها، فلما أقبلوا عليه سألوه عما يريد، فقال لهم : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقون؟»، فردوا عليه : نعم .. أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذبا قط. حينذاك قال لهم: « إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين، وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله »، فنهض أبو لهب وصاح : تباً لك .. ألهذا جمعتنا ؟ ، فأنزل الله عز وجل فيه قوله : « تبت يدا أبى لهب وتب .... ».

على هذا النحو قوبلت دعوة الرسول ﷺ بالاستهزاء لا سيما من الملأ المكى،

لأن الدعوة كانت تعنى فقدان الطبقة الأرستقراطية نفوذها. وهنا يجدر بنا أن نتعرف على تعاليم تلك الدعوة، وأسباب معارضة الأرستقراطية القرشية لها.

لاشك أن الإسلام ، إلى جانب كونه دعوة للتوحيد، فقد كان ثورة إنسانية شاملة على المظالم الاجتماعية واستبداد الطبقات، كما انطوى على رؤية جديدة للعالم فى شتى جوانبه، رؤية تمسك بزمام الوجود وتقوده إلى طريق أعظم اتساعاً فى التطور الإنسانى. فللإسلام رؤيته للطبيعة وما وراءها وللاجتماع والاقتصاد والسياسة والأخلاق إلى غير ذلك من المجالات.

ففى المجال الروحى جاء الإسلام بالوحدانية ونبذ الوثنية والشرك. وتمثل الوحدانية فى الإسلام طوراً جديداً فى تاريخ العقائد، فهى ليست كالموسوية التى تقصر عقيدتها على شعب الله المختار، وليست كالمسيحية التى تضحى بالحياة البشرية من أجل خلاص السيد المسيح الذى اتخذ صفة إلهية، بل هى دعوة عالمية تنزه الخالق الذى يخضع له الوجود برمته، فهى دعوة لتوحيد العباد على صعيد العالمين، إذ قال تعالى : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً» .

أما فى مجال الأخلاق فقد عرض الإسلام للفضائل وجردها مما لحق بها على يد البشر، وردها إلى طبيعتها الأولى بعد أن أكسبها مفهوما جديداً. فالكرم والإحسان فضائل فى حد ذاتها ، وليست للفخر والتباهى إنما تقرباً إلى الله وزلفى. ولم تقم الأخلاق فى الإسلام على أساس القوة والقهر وإنما هى اختيار إنسانى لعمل الخير والكف عن الشرور، والجزاء من جنس العمل « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ».

وعرض الإسلام لمعالجة مشاكل المجتمع الإنسانى فلخص السياسة فى «الشورى» و «العدل» . وفى الاقتصاد انطوى على مبادئ فى الاشتراكية كشيوعية الماء والكلأ وبالتالى كافة موارد الانتاج فى مجتمع متطور، وحرم الاحتكار والربا واكتناز المال ودعى للتكافل والمساواة، والرؤية الاجتماعية الإسلامية تشجب طغيان الفرد، وتلفظ العصبية والعنصرية. والمفاضلة بين إنسان وآخر على أساس التقوى، والتقوى ليست مجرد التبتل والعبادة وإنما مراعاة تعاليم الإسلام فى العلاقات البشرية.

لقد انطوى الإسلام على أفكار ثورية تضع تاريخ البشرية في الاعتبار، وتوازن بين الحياتين الدنيوية والأخروية، فقد اعترف الإسلام بالنبوات السابقة انطلاقاً من الاعتراف بمسيرة التطور الروحي للبشرية كما احترم رحلة العقل البشرى. وأهم ما يميز الثورة الفكرية للإسلام التسليم بالجوانب الحياتية المعاشية، باعتبارها مختبراً ومدخلاً للحياة الأخرى، ثم تقدير إنسانية الإنسان باعتباره أعظم المخلوقات، وبالتالى تقدير العقل البشرى باعتباره أعظم ما خلق الله فى الإنسان. والآيات القرآنية والأحاديث النبوية تركز على تمجيد العقل وحضه على طلب العلم حتى فى المسائل الميتافيزيقية، فالعلم لا يتعارض مع العقيدة « إنما يخشى الله من عباده العلماء». وكان تحرير الإنسان من إسار الأغلال الاقتصادية والاجتماعية موازيا لتحريره من أغلال الوهم والخرافة. صحيح أن الإسلام لم يأت بنظرية فى المعرفة - لأنه ليس كتاب نظريات - إنما بسط رؤى ومبادئ وسنن وطرائق فى التفكير، وفى ذلك تكمن أصول « جدلية » إسلامية انطوت عليها المعارف القرآنية. وفى الآيات القرآنية ما يجعل من الإسلام - لو أحسن فهمه - اديولوجية متكاملة لبناء مجتمع الأخوة.

بديهى أن تلك الثورة التى تضمنتها الدعوة الإسلامية كان لابد وأن تصطدم بالأرستقراطية القرشية، لأن الإسلام استنكر المظالم الاجتماعية والأوضاع الطبقية وحض على العدالة، فهبت تلك الأرستقراطية تناوئ الدعوة حفاظا على امتيازاتها بينما أقبلت الطبقات المستضعفة على اعتناقها. وبديهى أن تتخذ هذه الأرستقراطية من الدين ستاراً لمعارضتها فادعت أن الرسول ﷺ يسفه الأصنام ومعتقدات السلف، زاعمة أن الإسلام بدعة وسحراً. لقد كان دفاعها عن أصنام الكعبة وأزلامها دفاعاً عن مصالحها الاقتصادية مع القبائل العربية، التى تفد على مكة فى مواسم الحج وما ينجم عن ذلك من نشاط تجارى. كما أن موقف الإسلام من الرق كان لابد وأن يؤثر فى مصالح الرأسمالية القرشية التى استخدمت العبيد على نطاق واسع فى الزراعة والحرف والتجارة إلى جانب الخدمة واللهو. وبديهى أن الدعوة الإسلامية ستضع حدا لنفوذ الأرستقراطية وذلك بإثارة الطبقات المستضعفة وما يترتب على ذلك من صراع يهدد النشاط الاقتصادى، وفضلاً عن ذلك فالإسلام الذى جاء ليقيم وزنا لشخصية الفرد فى إطار صالح الجماعة كان يضع بذلك بذرة خطيرة تهدد نمط الحياة القبلية السائدة وقتذاك.

لذلك كله انطلقت الأرستقراطية القرشية فى معارضة الدعوة الإسلامية، واتخذت معارضتها أشكالاً وأطواراً شتى . وقد بدأت قريش كما رأينا معارضتها لتلك الدعوة الإسلامية بالاستهزاء؛ فلما شعرت بما فى هذه الدعوة من خطر على مكانتها، بدأت تجابه الرسول ﷺ بالحط من شأنه وبتكذيبه وتكذيب نبوته؛ وكان أول ما صنعته قريش من هذا أن أغرت به شعراءها يهجونه ويقارعونه، فتولت طائفة من شعراء المسلمين الرد عليهم من غير أن يكون الرسول ﷺ فى حاجة إلى مساجلتهم . كما تقدم غير الشعراء يسألون الرسول ﷺ عن معجزاته التى يثبت بها رسالته، ولم يقف أمرهم عند التهكم من هذه المعجزات وإنما أخذوا يسفهونه ويكذبونه، ويرمونه بالشعر والسحر والكهانة والجنون، وطال بهم اللجاج حتى أنزل الله قوله : « قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله، ولوكنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » .

وما كان من الرسول ﷺ أمام هذا الاستهزاء ثم التكذيب والتسفيه إلا أن بادأهم بانتقاد آلهتهم والسخرية منها وتحقيرها، وعند هذا الحد عظم الأمر على قريش وأجمعوا على معاداته، وهبوا يعارضون دعوته بأساليب شتى، كالإنذار والتهديد والمساومة والضغط والتيئيس فحرب الكلام فالاضطهاد فالمقاطعة ثم السنان.

وأول ما بدأت به قريش أن أرسلت وفدا إلى أبى طالب تنذره بأن ابن أخيه محمداً سب آلهتهم وعاب دينهم وضلل آباءهم، وطلبوا منه - بما يشبه الإنذار - إما أن يكفه عنهم وإما أن يخلى بينه وبينهم. فردهم أبو طالب رداً جميلاً ووعدهم بمخاطبة الرسول ﷺ فى ذلك . لكن الرسول ﷺلم يأبه بقريش ولم يرهبه إنذارهم، وإنما واصل دعوته حتى أدركت قريش مدى خطورة الدعوة خاصة وأنها انتشرت فى مكة، بحيث لم يكن يمضى يوم إلا ويسلم فيه فريق من أهلها.

لذلك اجتمع وفد قريش مرة أخرى وقصدوا أبا طالب يهددونه هذه المرة بصورة واضحة ، إذ قالوا له : يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله، وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد

الفريقين، ثم انصرفوا عنه. ومعنى ذلك أنهم أظهروا العداوة له، فعظم الأمر عليه وحار فيما يفعل أمام ضغوط قريش عليه، حتى أنه حينما أفضى إلى الرسول ﷺ بما حدثه به وفد قريش، ورجاه أن يبقى على نفسه وعليه من غير أن يحمله ما لايطيق، أحس في الرسول ﷺ ظنونه بأنه تراجع عن نصرته، إذ أطرق الرسول ﷺ إطراقة وقف عندها التاريخ، ثم رفع رأسه وقال لعمه في إباء : « ياعم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته »، ثم انصرف عنه. ولكن أبا طالب حاول صرف تلك الظنون عن الرسول ﷺ ، فألح في مناداته حتى يعود فلما أقبل عليه قال له : « اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشئ تكرهه أبداً ».

ومع ذلك فلم تيأس قريش من أبي طالب وعادت إليه للمرة الثالثة ومعها أحد شبابها ويدعى عمارة بن الوليد، لتساوم أبا طالب عليه في مقابل الرسول ﷺ فقالوا له : هذا عمارة فتى قريش وأشعرهم وأجملهم، فخذه فلك عقله ونصره، فاتخذه ولداً وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذي سفه أحلامنا وخالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك نقتله فإنما رجل برجل . فرد عليهم قائلاً : والله لبئس ما تسومونني ! أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه ؟ هذا والله لا يكون أبداً. فقال المطعم بن عدي: لقد أنصفك قومك وما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً. فرد عليه : والله ما أنصفوني ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم علي ، فاصنع ما بدا لك. وبذلك فشلت مساعي قريش لدى أبي طالب، وانقطع عنده خط الرجعة عليها.

حينذاك عولت قريش على مساومة الرسول ﷺ نفسه بتوليته الملك إذا كف عما هو بصدده من الدعوة إلى الإسلام ومهاجمة الأوثان، فكان رده عليها قاطعاً إذ قال «إن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » فسئمت قريش من محاولة إثناء الرسول ﷺ عن دعوته، وأيقنت أنه متمسك بها حتى النصر عليها أو الشهادة في سبيلها.

وأمام هذا الإصرار كان على قريش أن تجرب وسيلة أخرى ، فلجأت إلى اضطهاد وتعذيب كل من اعتنق الإسلام من أفراد قبائلها، اعتقادا منها أن ذلك يفت فى عضد الرسول ﷺ فيكف عن دعوته، وقد بالغت قريش فى استخدام تلك الوسيلة لمناهضة الدعوة الإسلامية ومناواة الرسول ﷺ وأتباعه، فوثبت كل قبيلة منها على من أسلم من أبنائها رجالاً أو نساء، منهم على سبيل المثال بلال بن رباح، وعمار بن ياسر مع أبيه وأمه، وصهيب الرومى، وعامر بن فهيرة، ولبيبة جارية بنى مؤمل؛ فأخذوا يعذبونهم بالضرب والتجويع والتعطيش وبرمضاء مكة فى أيام الحر الشديد بطريقة يندى لها الجبين، وبصورة تدل على مبلغ تعصب قريش وقسوتها.

لما رأى الرسول ﷺ ما أنزلته قريش بأتباعه من بلاء واضطهاد وأذى، دون أن يستطيع أن يحميهم أو يرد عنهم الأذى ، أذن لهم بالهجرة إلى أرض الحبشة لما عرفه عن ملكها من تسامح، فقال لهم : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهى أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه ».

لم يفكر الرسول ﷺ فى هجرة المسلمن إلى إحدى القبائل العربية داخل شبه الجزيرة ، لأنه يعلم أنها سترفض دعوته مجاملة لقريش، أو تمسكاً بدينها الوثنى؛ كما لم يفكر فى اليمن لأنها مستعمرة للفرس الذين لم يدينوا بدين سماوى، فلم يطمئن إلى الالتجاء إليها؛ وقد برهنت الأيام على حصافته وبعد نظره، حيث كتب كسرى إلى عامله فى اليمن بقوله : ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين جلدين من عندك فيأتيانى به، وكذلك كان شأن إمارتى الحيرة والغساسنة. كذلك كان اختيار الرسول ﷺ للحبشة بالذات هدفاً للهجرة يرجع إلى رغبته فى كسب التأييد لدعوته الناشئة من شعب مؤمن بالمسيحية، لا سيما وقد انتشر بين أهل الحبشة المذهب المنوفزيتى أى التوحيدى، وهو أقرب المذاهب المسيحية إلى الإسلام، أو أنه تطلع إلى اجتذاب أفواج جديدة من خارج شبه الجزيرة إلى دين الإسلام فيعز ويمتنع، فضلاً عن الإيماء لقريش بأن عدوانها على المسلمين قد يضطرهم إلى الالتجاء إلى قوة خارجية لحمايتهم، خاصة وأن الأحباش كانوا ناقمين على قريش احتكارها تجارة العبور العالمية.

انتهى عدد من هاجر من المسلمين إلى الحبشة نحو خمسة وتسعين رجلا، بخلاف الزوجات - وكن نحو خمس عشرة - فضلا عن الأبناء، وصلوها على فوجين متتابعين . وقد حوى الفوج الأول منهما أحد عشر رجلا وأربع نسوة منهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت الرسول ﷺ والزبير بن العوام وجعفر بن أبى طالب، ركبوا جميعا من ميناء الشعيبة سرا ، فلما نمى الخبر إلى قريش خرجت تطاردهم لكنها لم تدرك أحدا منهم ، إلى أن أدركوا الحبشة فدخلوها وسارع ملكها إلى الترحيب بمقدمهم وتأمينهم على حياتهم .

وليس هناك من شك فى أن هجرة هؤلاء المسلمين إلى بلاد الحبشة كان لها أثر كبير فى توسيع دائرة انتشار الإسلام، حتى أنه ذاع بين العرب وقتذاك أن فريقا من القرشيين هاجروا إلى الحبشة فرارا بدين تلقوه عن نبى مكة ، وبذلك تسامع بالدعوة الإسلامية من لم يسمع بها من قبل . كما كان للهجرة أثر فى تخفيف حدة اضطهاد قريش للمسلمين إذ عملت عاطفة القرابة عملها فى هذا المجال أيضا .

ومع ذلك فلم تستسلم قريش للأمر الواقع وإنما ساءها إفلات المسلمين من أيديها واستقرارهم فى الحبشة بعيداً عن أذاها، فعملت على الإيقاع بين هؤلاء المسلمين المهاجرين وبين ملك الحبشة، وأرسلت إليه رجلين - هما عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة - ومعهما كل ما هو مستطرف من متاع مكة كهدايا إليه بهدف إقناعه بتسليم أولئك المهاجرين المسلمين، كى يعودا بهم إلى قريش فى مكة للاقتصاص منهم.

قدم المبعوثان على ملك الحبشة وقدما إليه هدية قريش، وحاولا الوقيعة بينه وبين المسلمين المهاجرين قائلين له : أيها الملك ! ... إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا فى دينك وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت. ثم سألاه أن يرد إليهما هؤلاء المسلمين، لكنه أبدى امتعاضه وغضبه وأبى أن يسلمهما قوما استجاروا به واختاروه دون غيره لحمايتهم، قبل أن يسألهم رأيهم فيما يقول المبعوثان، ثم أمر بإحضار المسلمين وسألهم عن مبادئ الإسلام الذى فارقوا من أجله دين قومهم ودين المسيحية . وحينذاك انبرى جعفر بن أبى طالب من

بين المسلمين ورد عليه ردا مقنعا ، وصف له فيه حالة العرب قبل الإسلام وبعده، وشرح له أن دعوة الرسول ﷺ ترمى إلى ترك الأوثان لعبادة الله، والتخلق بمكارم الأخلاق، ومما جاء فيه : « أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيئ الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا كذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولانشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ... فصدقناه وآمنا به وأتبعنا ما جاء به من الله». وبعد ذلك قص جعفر عليه ما لقيه المسلمون من اضطهاد قريش وتعذيبهم لهم لإرغامهم على الارتداد إلى الوثنية، وأنهم آثروا أن يفروا بدينهم إلى بلاد لايظلمون فيها فاختاروا بلاد الحبشة.

وحينذاك طلب الملك من جعفر أن يقرأ عليه شيئا مما جاء به القرآن، فقرأ عليه صدرا من سورة مريم وفيها قصة ميلاد السيد المسيح : « كهيعص ذكر رحمة ربك عبده زكريا ، إذ نادى ربه نداء خفيا ... » فلما سمعها الملك انخرط فى البكاء حتى اخضلت لحيته، وأمر بصرف المبعوثين القرشيين، بعدما أعلمهما برفض طلبهما الذى جاءا من أجله.

انصرف عمرو ورفيقه غاضبين لفشلهما فى مسعاهما، ولكنهما لم ييأسا وعملا على إثارة العواطف الدينية للوقيعة بين الملك وبين المسلمين، حيث عادا إلى الملك ثانية يدعيان عنده بأن المسلمين يطعنون فى عيسى بن مريم ويتقولون عليه قولاً عظيماً. وحينذاك انفعل الملك واستدعى المسلمين إليه ثانية، وسألهم عما يقوله الإسلام فى عيسى، فرد عليه جعفر قائلاً : « هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول » ، أعجبت تلك الإجابة الملك حتى أنه لم يتعهد فقط بحماية المهاجرين المسلمين وإنما توعد من يتعرض لهم بسوء، بل إنه أمر بهدية قريش فردت إلى أصحابها. وبذلك فشلت وفادة قريش فى تحقيق ماسعت إليه، بينما أمن المسلمون فى أرض الحبشة، وتمتعوا بحرية تامة ورعاية شاملة فى ظل

ملكها بعيداً عن قريش فى مكة، إلى أن عاد بعضهم إلى مكة قبل هجرة الرسول ﷺ إلى يثرب، وبقى بعضهم الآخر حتى السنة السابعة من الهجرة.

أما فى مدينة مكة فقد ظل الرسول ﷺ يواصل دعوته وسط جو رهيب من العنت والإضطهاد من جانب قريش، وكان أشدهم في اضطهاده أبو جهل عمرو بن هشام وأبو لهب بن عبد المطلب وعقبة بن أبى معيط. لكن الله خفف عن رسوله وقتذاك، فأسلم حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب فكانا كسبا للإسلام، إذ قويت بهما شوكة المسلمين، فاستطاعوا الجهر بتلاوة القرآن والصلاة فى الكعبة ذاتها، كما دخل فى الإسلام كثير من أهل مكة اقتداء بحمزة وعمر.

فلما تيقنت قريش أن مكائدها فى مناهضة المسلمين والرسول ﷺ قد أخفقت، لجأت إلى وسيلة خطيرة فى مناهضتهم، بأن اتفق شيوخها على مقاطعة بنى هاشم وبنى عبد المطلب بحيث لايتعاملون معهم فى بيع أو شراء أو مصاهرة، أى مقاطعتهم مقاطعة تامة حتى يسلموا إليهم الرسول ليقتلوه ؟ وتوكيدا لذلك كتب شيوخ قريش وثيقة بهذا المضمون وعلقوها فى جوف الكعبة، مع هلال شهر المحرم سنة سبع من البعثة ( ٦١٧م ).

وعلى هذا النحو حاصرت قريش الرسول ﷺ والمسلمين على مدى ثلاث سنوات، منعت عنهم خلالها الميرة حتى بلغ بهم الجهد كل مبلغ وتصايح صبيانهم جوعاً، بل مات نفر منهم، فأخذت الرأفة والشفقة ساعتئذ نفرا من قريش ردوا الهاشميين إلى ديارهم بعد أن كانوا قد غادروها إلى شعب أبى طالب بشرق مكة، ففشلت المقاطعة بالعام العاشر من البعثة النبوية.

ومع ذلك ، فقد بلغ الحرج بالرسول ﷺ أيما مبلغ ، إذ فقد سندين ناصراه فى نضاله ضد قريش، وهما زوجته السيدة خديجة وبعدها بثلاثة أيام عمه أبى طالب ، فتجرأت قريش على إيذائه هو لأول مرة، واشتدت عليه فى ذلك، بحيث اعتبر العام العاشر من بعثته من أشق أعوام الدعوة الإسلامية بحيث كان يقول: « ما نالت قريش منى شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب » وبذلك أحكمت قريش حصارها حول

الدعوة وصاحبها، وهو ما دفع الرسول ﷺ آنذاك إلى التفكير طويلا فى كسر هذا الحصار القرشى، والخروج من دائرته المغلقة، لفتح منافذ جديدة تصل منها كلمة الإسلام إلى جبهات أخرى تكون مستعدة لاحتضان الإسلام والدفاع عن المسلمين.

ومن هنا كانت رحلته إلى بنى ثقيف فى مدينة الطائف فى أواخر شوال من السنة العاشرة للبعثة (٦٢٠م)، ومعه مولاه زيد بن حارثة، يلتمس منهم النصر والعون، فلما انتهى إليهم عمد إلى ثلاثة نفر من سادتهم، ودعاهم إلى الإسلام ونصرته والقيام معه على من خالفه، بيد أنه لم يجد عندهم ماكان يأمله، بل ردوه رداً قبيحاً وأخذوا يتهكمون عليه ويسخرون منه، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم فترصدوا له على الطريق صفين يرمونه بالحجارة حتى أدموا قدميه، وظلوا يطاردونه إلى أن احتمى منهم ببستان أحد سادة قريش، وهنا يئس الرسول ﷺ من ثقيف ولكنه لم ييأس من مواصلة الدعوة والإصرار على فتح مسالك جديدة لها.

نجح الرسول ﷺ فى إيجاد تلك المسالك الجديدة، إذ أدرك أن اجتماع القبائل العربية فى بعض الأسواق القريبة من مكة فى مواسم الحج قد يكون فرصة مواتية، وكانت العرب إذا حجت تقيم بعكاظ شهر شوال، ثم بسوق مجنة عشرين يوماً ثم بسوق ذى المجاز أيام الحج، فلم يتردد فى أن يعرض نفسه على هذه القبائل، ويعرض على وفودها الإسلام، لكنه ما كان يجتمع بجماعة منهم ويدعوهم إلى الإسلام حتى يأتى أبو لهب ويناديهم قائلاً: «إنما يدعوكم إلى أنْ تسلخوا اللآت والعزى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه». وبذلك لم يلق الرسول ﷺ من هؤلاء جميعاً إلا الإعراض والردود السيئة، وبدا واضحاً أن هذه المحاولات لم تحقق النجاح المطلوب وقتذاك بل لم تؤت ثمرة على الإطلاق، إذ كانت هذه القبائل خاضعة لنفوذ الأرستقراطية القرشية التى كانت تمدها بالسلع والبضائع وتوفر لها الحماية والأمن طوال تواجدها بمكة.

لكن وسط هذا الجو المثبط الميئس تتحقق سنة الله فى كونه، وفى حياة الرسل وأصحاب الدعوات بصفة خاصة، كقانون صارم لا يتبدل كما يتمثل فى قوله تعالى:

«حتى إذا استيأس الرسل، وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا، فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين» . ذلك أنه لما أراد الله إظهار دينه، وإعزاز نبيه وإنجاز وعده له، هيأ له فرصة الالتقاء بأحد الوفود العربية القادمة من يثرب، وكانوا ستة من الخزرج، «أراد الله بهم خيراً، كانوا قادمين إلى مكة للتحالف مع سادة قريش ضد بنى عمومتهم من الأوس، المشتبكين معهم فى حرب عصبية طاحنة لا تنطفئ جذوتها، «فلما لقيهم الرسول ﷺ سألهم من أنتم؟ قالوا : نفر من الخزرج. قال : أمن موالى اليهود ؟ قالوا نعم ، قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى ، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام، ثم تلا عليهم آيات من القرآن، فأجابوه إلى مادعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام».

وهنا نتساءل عن السر فى هذه الاستجابة السريعة للإسلام من قبل الخزرج ؟ وهل كانت لديهم القابلية الدينية للإيمان بهذا الدين الجديد أكثر من غيرهم ؟ أم كانت هناك عوامل موضوعية أخرى جعلتهم لا يترددون فى موقفهم من الإسلام، أو الانصراف عن دعوته ؟

لاشك أن فهم هذه العوامل وتحليلها لمعرفة دورها فى تمهيد يثرب لقبول الإسلام ، ولكى تكون مقرا لدعوته، ومجالاً لدولته تنطلق منه عبر المكان والزمان، أمر على درجة بالغة من الأهمية، فهى ناحية توضح العوامل الحقيقية التى مكنت للإسلام فى يثرب ، وتفسر من ناحية أخرى حرص الخزرج والأوس على الإسراع فى تنفيذ الخطوات الإيجابية بينهم وبين الرسول ﷺ لإبرام الاتفاقيات المبدئية، وإتمام المعاهدات النهائية، والاتفاق على الشروط والمواثيق التى تؤخذ عليهم، وبيان المسئوليات والواجبات التى يكلفون بها لقيام دولة الإسلام ونصرتها والدفاع عنها، والتمكين لها بشتى الطرق والأساليب.

فمن المعروف أن يثرب تمتعت ببعض الخصائص التى أهلتها لأن تكون ذات شأن فى عالم الإسلام عندما تقبل إليها دعوته، فلقد كانت تضم مجموعتين من العرب هما الأوس والخزرج وكانوا أبناء عمومة ، لكن روح العصبية الجاهلية فرقت

بينهم ، فاستعرت بينهم نيران العداوة والبغضاء ، واشتبكوا معاً فى صراع مسلح لا يكاد ينتهى حتى يبدأ من جديد إلى أن أنهكت قواهم، وتبددت طاقاتهم، وتمنوا أن تنتهى تلك الحروب المتصلة ليعم الهدوء والوئام بينهم تحت زعامة رئيس لا ينتمى إلى أى من عصبيتهما. يضاف إلى ذلك رغبتهم فى زحزحة نفوذ اليهود بيثرب، إذ كان اليهود مصدر احتكار لمقدراتهم الاقتصادية ، ومصدر استغلال للحروب الدائمة بينهم بتغذيتها وإذكاء نيرانها ضماناً لفرض نفوذهم من خلالها. وفوق هذا وذاك كان الأوس والخزرج يعيشون حالة ترقب وحذر مشوبة بالخوف من المستقبل الذى يهددهم به اليهود. فقد كان اليهود يتوعدونهم بالهلاك والدمار شفاء لما فى نفوسهم من الحقد عليهم لأنهم كانوا قد أخرجوهم من يثرب، وأزاحوهم عن مكانتهم التى كانوا يتمتعون بها من قبل ، ويقولون : « أن نبيا يبعث الآن ونقتلكم معه قتل عاد وثمود » ، وكان اليهود يعتقدون أن النبى سيبعث فيهم ويكون منهم، ومن هنا كان الاستعداد النفسى لدى الأوس والخزرج للدخول فى الإسلام بمجرد أن عرضه الرسول ﷺ عليهم لكى يسبقوا به اليهود ، حتى لا تكون لهم الفرصة لتحقيق آمالهم التى كانت تطوف بأذهانهم.

ويشير ابن الأثير وابن هشام إلى هذا الاستعداد النفسى وأمنية الأوس والخزرج فى وضع نهاية لتلك الحرب. فيروى ابن هشام أن وفد الخزرج قالوا للرسول ﷺ حينما التقى بهم وآمنوا به : « إنا كنا قد تركنا قومنا، لا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه ( أى على الإسلام ) فلا رجل أعز منك » . أما ابن الأثير فيقول : « إن أولئك النفر قال بعضهم لبعض : هذا والله النبى الذى توعدكم به اليهود، فأجابوه وصدقوه » . يضاف إلى ذلك أن تبشير اليهود ببعث نبى لهم قد هيأ أذهان الأوس والخزرج لتقبل الدين الجديد، لا سيما وأنهم لن يجدوا ضررا فى نبذ الوثنية كالضرر الذى يمكن أن يحل بقريش.

وعلى أى حال فلم يلبث أن ذاع خبر الإسلام فى يثرب بعد عودة هؤلاء الخزرج إلى ديارهم ودعوتهم إلى الإسلام، والإنضواء تحت لوائه، فاستجاب كثير من

الأوس والخزرج إلى دعوة الإسلام بسرعة مذهلة حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور يثرب إلا وفيها ذكر الرسول ﷺ .

فلما جاء العام التالى ( ٦٢١م ) - أى العام الثانى عشر للبعثة - قدم إلى موسم الحج من الأنصار عشر من الخزرج واثنان من الأوس، من بينهم أسعد بن زرارة وعوف بن الحارث، وعزموا على الاجتماع بالرسول ﷺ، فقابلوه بمكان يقال له العقبة بمنى، وبايعهم على بعض المبادئ الأخلاقية الإسلامية، التى تهدم فى نفوسهم ما كان شائعاً فى الجاهلية من عادات وتقاليد مذمومة، ويربى فيهم الشخصية المسلمة، فعاهدوه على : ألا يشركوا بالله شيئا، وأن يجتنبوا السرقة والزنا وقتل الأولاد، وألا يأتوا بهتانا يفترونه بين أيديهم وأرجلهم، وألا يعصوا الرسول ﷺ فى معروف.

وقد عرفت هذه البيعة ببيعة النساء، ربما لأن القرآن تحدث عنها موجها الخطاب للمؤمنين بصفة عامة لكن من خلال الحديث إلى نسائهم، فقال تعالى : « يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أ لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله، إن الله غفور رحيم ». وهنا نلحظ أن القرآن يشير فى هذه البيعة إلى موقف سياسى وقيادى مرتقب للرسول فى قوله : « ولا يعصينك فى معروف »، فهذا النص يشير إلى ضرورة التزام هؤلاء المبايعين مستقبلا بكل ما يأمر به الرسول ﷺ، أو ما يطالبهم بالعمل من أجله أو تنفيذه، وقد تمت هذه البيعة قبل الهجرة بأربعة عشر شهراً. فكانت بداية جديدة لاتحاد الأوس والخزرج ونبذ ما كان بينهم من خلافات ونزاعات.

لم يتوقف الرسول عند هذا الحد بل إنه أرسل مع هؤلاء المبايعين - المؤمنين الجدد - مصعب بن عمير معلما لهم وهاديا ومرشداً لكى يواصل ترسيخ عقيدة الإسلام فى نفوسهم أولاً ، ونشر الدعوة فى ربوع يثرب ثانياً، ولذلك كان يلقب مصعب فى يثرب بالمقرئ، لأنه كان يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين، وقد أدى مهمته على أكمل وجه، واستطاع بذكائه وقوة حجته استقطاب كثير

من رؤساء القبائل إلى الإسلام، فكان إسلام هؤلاء الرؤساء مضاعفاً لأعداد المسلمين فى لحظة واحدة، كما حدث عندما أسلم سعد بن معاذ وأعلن فى قومه أنه سيقاطعهم إن لم يؤمنوا فأطاعوه ودخلوا جميعا فى الإسلام. وظل مصعب يواصل مهمته حتى لم تبق دار من دور عرب يثرب إلا وفيها رجال ونساء مسلمون. وهكذا يمكن القول أن مصعباً كون النواة الصلبة من الرجال الذين يوثق فيهم ويعتمد عليهم فى نصرة الدين؛ ثم عاد إلى مكة - ربما - ليقدم تقريره إلى الرسول ﷺ عن الأوضاع فى يثرب، ومدى صلاحيتها واستعداد المؤمنين فيها للخطوة التالية.

وقد تمثلت الخطوة التالية فيما عرف ببيعة العقبة الثانية، تلك البيعة التى كانت حاسمة فى مسيرة الدعوة الإسلامية، إذ أقبلت إلى مكة جماعة كبيرة من مسلمي يثرب، عددهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان ، وذلك فى موسم حج العام التالى ( ٦٢٢م ) - وهو العام الثالث عشر من البعثة - على أمل لقاء الرسول ﷺ ومبايعته فى نهاية موسم الحج، وتمت هذه البيعة فى العقبة وسط إجراءات مشددة من الحيطة والحذر حتى لا تتسرب أنباؤها إلى قريش فتتدخل وتحول بينهم وبين لقاء الرسولﷺ ، حيث تسلل الأنصار من أماكنهم فى جوف الليل بعد أن اطمأنوا إلى أن من معهم من المشركين - الذين كانوا قد قدموا معهم إلى مكة للحج - لم يشعروا بهم. ومع هذا فقد تأنى الرسول ﷺ فى لقائهم حتى يتأكد أن قريشا لم تتنبه إلى حركتهم، ثم قدم إليهم ومعه عمه العباس - الذى لم يكن قد أسلم بعد - وجاء معه ليشد من أزره، وليؤكد للأنصار أن الرسولﷺ مع منابذته لقومه فإنهم لايفرطون فيه بسهولة، أو يتخلون عنه إلا إذا أراد هو بمحض رغبته واختياره.

بدأ العباس بن عبد المطلب بكلمة قصيرة بين فيها للأنصار أن يكونوا على ثقة من الثبات على موقفهم مهما كانت الظروف وإلا فلا داعى للمغامرة وقال : يا معشر الخزرج، إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو فى عز من قومه ، ومنعة فى بلده ، وأنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفوه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه ، فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده ». وكان العباس أراد بتلك

الكلمات أن يستثير حماس القوم ويوضح لهم المخاطر التى يقدمون عليها حتى لا يتورطوا فى شئ غير مستعدين له.

وما أن أتم العباس تلك الكلمات حتى أبدى الأنصار صدق نيتهم وأظهروا إخلاصهم للرسول ﷺ ، ثم طلبوا منه أن يحدثهم قائلين : « تكلم يارسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت »، وهنا تتجلى عزيمة الأنصار فى الإصرار على السير فى الطريق الذى آمنوا به حتى نهاية الشوط، ولذلك تلا عليهم الرسول آيات من القرآ ن الكريم ودعاهم إلى الإسلام، ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » فوافقوه على ذلك قائلين : نعم والذى بعثك بالحق نبيا لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يارسول الله فنحن والله أبناء الحرب، وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر ».

لكن رجلاً منهم هو أبو الهيثم بن التيهان أراد أن يستوثق من أن يثرب ستكون المقر الدائم للدولة الإسلامية فقال : « يارسول الله إن بيننا وبين الناس - أى يهود يثرب - حبالاً وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله ثم قال : « بل الدم الدم والهدم الهدم » - أى أن ذمتى هى ذمتكم وحرمتى هى حرمتكم - « أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم » . وهكذا يعطى الرسول التأكيد القاطع بأن يثرب ستكون مقر الدعوة والدولة الإسلامية ، وأنه سيظل بها مهما كانت الظروف، ثم اتفق معهم على أن يختاروا منهم اثنى عشر نقيبا يمثلون قومهم، فاختاروا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

ولما اجتمع النقباء لبيعة الرسول ﷺ ذكرهم العباس بن عبادة الأنصارى بما سبق أن تحدث به العباس عم الرسول ﷺ، تأكيداً للعهد والبيعة والذب عن الرسول وافتدائه بالمال والروح، فقال لهم : « يامعشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم، قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتموه ، فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه

على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة، قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا بذلك ؟ قال : الجنة، قالوا : ابسط يدك ، فبسط يده فبايعوه ، ثم تفرقوا إلى رحالهم، وعادوا إلى يثرب فأظهروا الإسلام ، فأسلم بها من ساداتها عدد كبير.

ولأن الشرط الأساسى الذى دارت حولة بيعة العقبة الثانية هذه كان الحرب والقتال، فقد سميت بيعة الحرب. ولذلك يقول عبادة بن الصامت عن هذه البيعة مع إضافة بعض الشروط التى أكد الرسولﷺ عليها أيضا : « بايعنا رسول الله بيعة الحرب على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم » .

كذلك فقد حددت بيعة العقبة الثانية وضع الرسول ﷺ بين أهل يثرب، فقد اعتبرته واحداً منهم ، دمه كدمهم وحكمه كحكمهم، وقضت بخروجه من مكة فانتقلت تبعيته إلى يثرب ، ولهذا السبب حرص المسلمون على إخفاء أمر هذه البيعة والتكتم عليها حتى لا تعلم بها قريش، إذ أن حماية الأوس والخزرج للرسول ﷺ لن تبدأ إلا بعد وصوله إلى يثرب.

يضاف إلى ذلك أن هذه البيعة قد وضعت – بما لا يدع مجالاً للشك – الأساس الأول لقيام الدولة الإسلامية ، وهو التعاقد العملى بين الرسولﷺ باعتباره صاحب دعوة يجب أن تصل إلى الناس كافة، وبين جماعة مؤمنة التقت إرادتها الحرة لكى تكون الآداة والقوة فى سبيل الدفاع عنها، ويتجلى هذا فى تلك الروح التى تملكت الأنصار بعد البيعة مباشرة ، فأظهروا أنهم على استعداد للقيام بدورهم غداة البيعة مباشرة، إذ قال العباس بن عبادة للرسول : « والذى بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا » . لكن الرسول ﷺ لم يشأ أن ينازل المشركين فى هذه الجموع الحاشدة وفى أيام الحج، فقال له : لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم ». وبذلك كان الرسول ﷺ يدخر قوة الأنصار للدور المنتظر منهم القيام به فى يثرب.

كذلك فقد أعطت هذه البيعة للمؤمنين فى مكة زادا جديدا من الصبر، وأملا

فى اقتراب انفراج الكرب الذى يعانونه، فبدأوا بعد البيعة يتطلعون إلى إخوانهم فى الدين من الأنصار فى يثرب.

وبالجملة يمكن القول أن بيعة العقبة الثانية قد حركت الأحداث بشدة ، وأخرجت الدعوة من مسارها الذى كان يلتقى دائماً بالجبهات المغلقة، إلى آفاق رحبة جديدة توحى بالثقة والتفاؤل فى النصر القريب ، وكانت النتيجة المباشرة للبيعة أن تهيأ للمسلمين دار هجرة، فأمر الرسول ﷺ أتباعه المقيمين فى مكة بالهجرة إلى يثرب واللحاق بإخوانهم الأنصار، قائلاً لهم : « إن الله قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها».

خرج مسلمو مكة سرا إلى يثرب جماعة فى إثر جماعة، أما الرسول ﷺ فقد ظل بمكة ينتظر أن يأذن له ربه بالخروج إلى دار الهجرة، ولم يبق معه بمكة من المسلمين إلا على بن أبى طالب وأبو بكر الصديق ومن كان قد حبسه المشركون فى مكة كرها أو فتن عن دينه ، وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن الرسول فى الهجرة، فينصحه بالتمهل عسى أن يتخذه صاحباً ورفيقاً. فلما رأت قريش أن الرسول ﷺ قد أصبح له شيعة وأصحاب من غيرهم وفى غير بلدهم مكة، وأن أصحابه الذين هاجروا إلى يثرب قد أصابوا فيها منعة، خافوا لحاق الرسول ﷺ بهم، وأدركوا أنه عزم على محاربتهم، فاجتمعوا فى دار الندوة، ولم يتخلف أحد من أهل الرأى منهم، ليتشاوروا فيما يصنعون فى أمره، واقترح عليهم أبو البخترى بن هشام أن يحبسوه فى الحديد، ويغلقوا عليه بابا، وقال قائل بنفيه من أرض الحجاز. ولكن شيوخ قريش لم يأخذوا بأى من الاقتراحين ، ثم اقترح عليهم أبو جهل أن يجمعوا من كل قبيلة فتى شابا قويا شريفا فى قومه ذا نسب يسلحونه بسيف صارم، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد فيقتلوه ويتفرق دمه فى القبائل جميعاً، وعندئذ لا يستطيع بنو عبد مناف أن يحاربوا كل قبائل قريش، فأجمعت قريش على هذا الرأى وتفرقوا وهم مجمعون عليه.

وصلت أنباء مؤامرة القرشيين إلى سمع الرسول ﷺ ، وأمره الله بعدم المبيت فى فراشه فى تلك الليلة كما أمره بالهجرة، وأنزل عليه قوله : « وإذ يمكر بك الذين

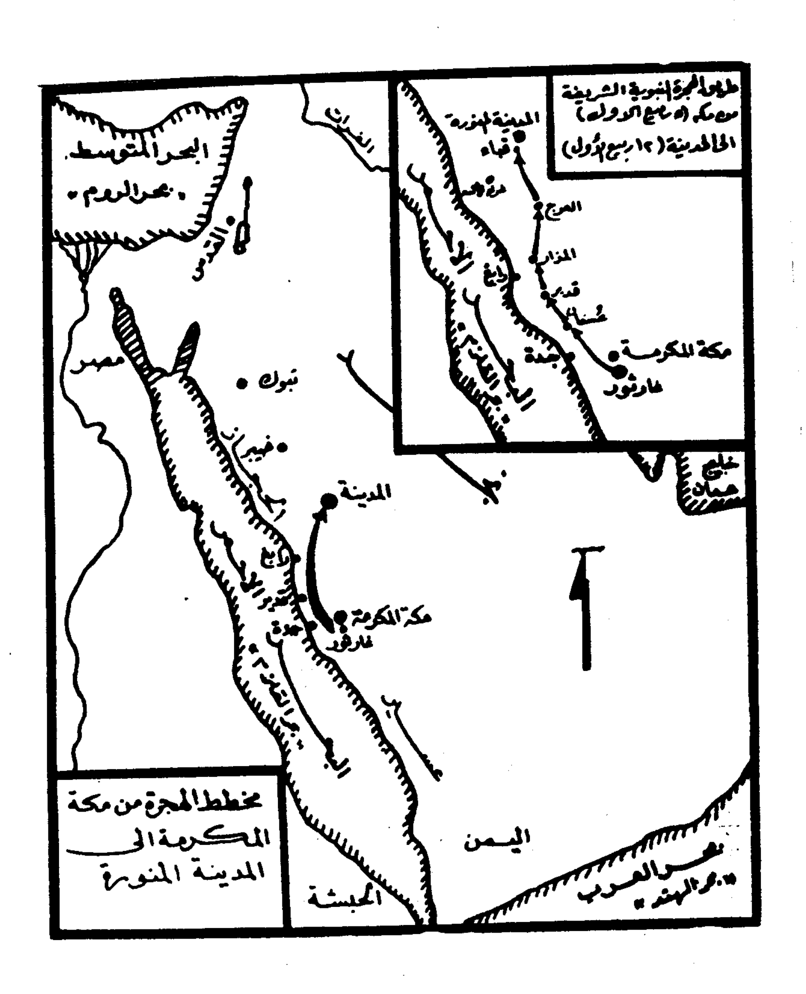
كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين » وقوله أيضاً : « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون، قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين» .

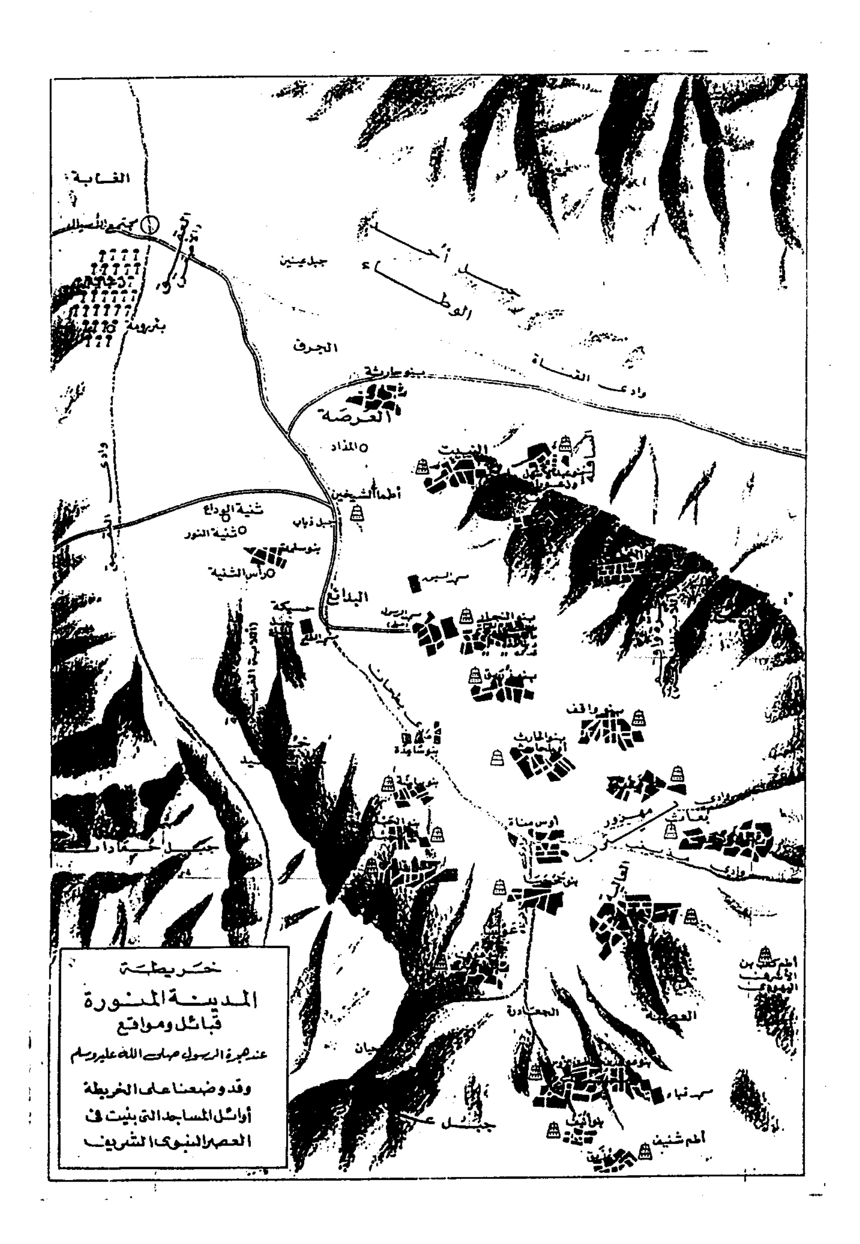
فلما حل الظلام اجتمع المتآمرون على باب الرسول ﷺ يرصدونه حتى ينام ثم يثبون عليه فيفتكون به، وحينذاك عهد الرسول ﷺ إلى على بن أبى طالب بأن يبيت فى فراشه ويحتمى ببرده الحضرمى الأخضر حتى يختلط الأمر على المتآمرين فيظنون أنه الرسولﷺ، ثم خرج وسط المتآمرين دون أن يفطنوا إلى خروجه أو يبصروه ، إذ أخذ حفنة من تراب فى يده وذرها على رءوسهم وهو يتلو قوله تعالى : « يس والقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم » إلى قوله تعالى : «وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون » . ومضى الرسولﷺ إلى دار أبى بكر فى وقت لم يكن يتوقعه، ودخل عليه وأبلغه أن الله أذن له فى الخروج والهجرة، فخرجا من خوخة فى ظهر دار أبى بكر، وركبا راحلتين ومضيا فى طريق يثرب فى أول ربيع الأول (٦٢٢م ) حتى أتيا غار ثور على بعد ثلاثة أميال جنوب غربى مكة فدخلاه ، ولم يعلم بخروجه أحد سوى على بن أبى طالب الذى استبقاه الرسول ﷺ على فراشه خديعة للمشركين، وحتى يؤدى عنه الودائع التى كانت عنده للناس، وأبو بكر وبنتاه عائشة وأسماء وابنه عبد الله. فأقام الرسول ﷺ وصاحبه فى الغار ثلاثة أيام كان عبد الله بن أبى بكر يزودهما خلالها بأنباء مكة ، أما أسماء فكانت تأتيهما بما يصلحهما من الطعام وقت المساء، كما كان عامر بن فهيرة مولى أبى بكر يمر عليهما ليلاً بغنمه ليأخذا حاجتهما من لبنها. فى حين بات المتآمرون أمام دار الرسول ﷺ وأقاموا كذلك طوال الليل، فلما أصبحوا لم يجدوه وإنما وجدوا عليا على فراشه، فبادروا باقتفاء أثره حتى انتهوا إلى باب الغار، فألفوه وقد كسى بابه بنسيج عنكبوت، فأدركوا أن الرسول ﷺ لم يدخله فانصرفوا. وكان الرسول ﷺ قد سمعهم يتناقشون فجزع أبو بكر ، وقال للرسول : « لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه »، فقال الرسول ﷺ : « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما » . فأنزل الله عليه قوله : « إلا تنصروه فقد نصره الله، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله

سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هى العليا، والله عزيز حكيم» .

ارتحل الرسول ﷺ وصاحبه فى الرابع من ربيع الأول بعد أن استأجرا دليلاً يقال له عبد الله بن أرقط الليثى، وصحبهما أيضاً عامر بن فهيرة مولى أبى بكر إلى يثرب، وسمع المسلمون فى يثرب بخروج الرسول ﷺ من مكة فكانوا يخرجون يتحينون قدومه من مطلع النهار حتى يشتد عليهم حر الشمس فيعودوا إلى دورهم .ولما شارف الرسول ﷺ ورفاقه يثرب انتشر الخبر سريعاً بين المهاجرين والأنصار فانجفلوا إليه وخرجوا للقائه، وكان هو قد نزل فى قباء على ميلين من المدينة عند حى يقال لهم بنو عمرو بن عوف، فأقام هناك أربع ليال أسس خلالها المسجد الذى تأسس على التقوى وهو مسجد قباء ، وفيه يقول الله تعالي : «لمسجد أسس علي التقوي من أول يوم أحق أن تقوم فيه. فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين»، ثم ركب الرسول ﷺ راحلته يريد يثرب وسار يمشى ومعه الناس حتى بركت ناقته فى مريد للتمر لغلامين يتيمين من بنى النجار فى كنف أسعد بن زرارة يقال لهما سهل وسهيل، فقال الرسول حين بركت ناقته : « هذا إن شاء الله المنزل »، وكان وصوله إليها فى السادس عشر من ربيع الأول ( ٢٠ سبتمبر ٦٢٢م) ، ثم دعا بالغلامين وساومهما المربد ليتخذه مسجداً فابتاعه منهما، ونزل بدار أبى أيوب خالد بن زيد حيث أقام سبعة أشهر ، حتى بنى مسجده ومساكنه فانتقل إليها .

والتفت جموع المؤمنين بالرسول ﷺ القائد لكى يضعوا أساس عصر جديد ، أخذ فيه كيان الدولة الإسلامية يبدو للعيان واضحاً؛ إذ لم تعد مهمته تقتصر على تبليغ الوحى والدعوة إلى دين الله فحسب ، بل غدا قائد أمة ورئيس دولة عليه أن يضع أساسها.


طريق الهجرة النبوية الشريفة
من مكة (١ ربيع الأول)
الى المدينة (١٢ ربيع الأول)
المدينة المنورة
قباء
العرج
المزار
قديد
عسفان
مكة المكرمة
غار ثور
جدة
رابغ
البحر الأحمر
البحر المتوسط
بحر الروم
القدس
مصر
تبوك
خيبر
المدينة
مكة المكرمة
غار ثور
رابغ
خليج عمان
اليمن
الحبشة
بحر العرب
مخطط الهجرة من مكة
المكرمة الى
المدينة المنورة


الغابة
جبل أحد
الجرف
العرصة
ثنية الوداع
خريطة
المدينة المنورة
قبائل ومواقع
عند هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم
وقد وضعنا على الخريطة
أوائل المساجد التى بنيت فى
العصر النبوى الشريف

# الفصل الثانى

## تأسيس الدولة الإسلامية فى المدينة

عندما تمت هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، وجد أن الجماعة الإسلامية فيها – أوس وخزرج – مملوءة حماسة وتطلعاً إلى وضع المبادئ الإسلامية التى التزمت بها فى بيعتى العقبة موضع التنفيذ، وأن روح تعاليم الإسلام قد نفخت فيهم حياة جديدة قوامها التمسك بهذا الدين ، والتضحية فى سبيله، ولذلك بادر الرسول ﷺ إلى توجيه هذه الطاقات المتقدة وتجنيدها لوضع الأسس الإسلامية فى إطارها التنفيذى، حتى تبرز صفة هذه الجماعة المؤمنة، وتتميز عن غيرها من القبائل الوثنية، وبعض الطوائف الدينية المحيطة، والممالك الصغيرة المنتشرة فى شمالى وجنوبى شبه الجزيرة.

ولا شك أن الرسول ﷺ كان يدرك تماماً أهمية أن تكون لهذه الجماعة المسلمة الناشئة شخصيتها المستقلة، وسياستها الواضحة المستمدة من رسالتها الجديدة حتى يلفت إليها الأنظار، وفى ذلك دعوة صريحة لغير المسلمين أن يحددوا موقفهم من هذه الجماعة، وأن يفكروا فى علاقتهم بها، كما كان على هذه الجماعة أن تكون على استعداد لمجابهة أية أخطار تتهددها أو تبغى النيل منها نتيجة لتشبثها برسالة الإسلام، ولذلك بدأ الرسول ﷺ يضع لهذه الجماعة الإسلامية – وإن شئت فقل من الآن الدولة الإسلامية – الأطر والأسس التى تحكم حياتها وتنظم أمورها فى شتى المجالات حتى يستقيم أمرها، وتضمن استمرار نموها وتقدمها، فصار الرسول ﷺ زعيماً سياسياً إلى جانب كونه نبياً يبشر بالإسلام.

بدأ الرسول ﷺ بإقامة المنشآت الأساسية لهذه الدولة، مع تحديد عناصر الجماعة التى تشكل نواة الأمة الإسلامية، وتوضيح الروابط بين أفرادها وتقرير الواجبات والمسئوليات المكلفين بها، مع بيان الرقعة الجغرافية التى تعتبر الحدود المؤقتة لهذه الدولة، والتركيز بشدة على العلاقات المتبادلة بين الدولة الإسلامية وبين الذين لم يدخلوا الإسلام سواء كانوا من أصحاب الكتاب أم من المشركين، وقد تمثلت تلك الأسس فى الأشكال التالية :

**أولاً : *المسجد الجامع في المدينة* :**

منذ أن وصل ركب الهجرة إلى المدينة بدأ الرسول ﷺ يولى عنايته لإقامة مسجد، يكون مهوى أفئدة المؤمنين يقدمون إليه فى كل وقت ، ليتعرفوا على ما

يجئ به الوحى من جديد فى أمر دينهم، ويتزودوا من الرسول بالعلم والمعرفة ويقيموا فيه الصلوات، كما يهرعون إليه عندما تنزل بهم حادثة خارجية، أو تتعرض حياتهم لما يكدر صفوها من أحداث أو منازعات داخلية طلبا لمشورة الرسول ﷺ ، والتماسا لحكمه وفصله فى هذه القضية أو ذاك، وهكذا يمكن القول أن المسجد كأول مؤسسة أنشأها الرسول بالمدينة كانت أقرب إلى بيت للأمة الإسلامية تجتمع فيه لمعرفة التشريعات الجديدة، وتتبادل فيه الرأى والمشورة مع قائدها فيما تتعرض له من أحداث، أو يلم بها من خطوب، فضلاً عن مقابلة الوفود العربية فيه، وعقد ألوية المسلمين عند خروجهم إما للاستطلاع أو الغزو، بالإضافة إلى كونه مركزا لصلاتهم وندواتهم وتعليمهم.

وقد بدئ فى بناء المسجد فى نفس المكان الذى انتهت إليه رحلة الهجرة وبركت فيه الناقة، رغم إلحاح كل جماعة من الأنصار على الرسول ﷺ أن ينزل عندها، ولكنه كان يقول لمن يحاول إيقاف الناقة « خلوا سبيلها فإنها مأمورة»، وكأن الله سبحانه وتعالى هو الذى اختار مكان المسجد وحدده بأن جعل الناقة تنتهى إليه، ويقول ابن هشام أنها « بركت على باب مسجده ﷺ »، وعندئذ اشترى الأرض من أصحابها - كما ذكرنا - وأقام فيها المسجد.

وقد انطلق المسلمون يتسابقون فى بناء المسجد بعد أن وضع الرسول ﷺ أول حجر فيه فى موضع القبلة حتى تم فى فترة وجيزة ، وقد جاء بناءً متواضعا للغاية : جدرانه من اللبن وسقفه من الجريد وسعف النخيل المرتكزة على بعض الأعمدة من جذوع النخيل أيضاً ، وأرضه مفروشة بالحصباء. ومع هذه البساطة التى تتميز بها المظاهر الإسلامية فإن المسجد كان من أخطر المؤسسات الإسلامية على الإطلاق، فمنه انطلقت التشريعات والنظم التى استوى على أساسها شكل الدولة الإسلامية، ومنه خرج الرجال الذين قادوا وأداروا هذه المؤسسات، وصار رمزاً للوحدة الدينية والاجتماعية والسياسية، وإعلاناً رسمياً لسيادة الدين الإسلامى، وتعبيراً عن وحدة الجماعة الإسلامية، إذ كان المؤسسة الجامعة التى ضمت المسلمين فى مكان واحد، ثم وجهتهم نحو غاية واحدة، ومن هنا تأتى مكانتها والتركيز عليها كأول مؤسسة أقامها الرسول ﷺ فى المدينة.

**ثانيا: *المؤاخاة بين المهاجرين والانصار:***

أصبح من المؤكد الآن أنه لن يكتب لأية دولة أن تعيش فى أمن واستقرار حتى تتمكن من الانطلاق لتحقيق أهدافها، ما لم تكن هناك وحدة تجمع عناصر هذه الدولة، وقد تختلف الأسباب الدافعة إلى هذه الوحدة حسب الظروف والملابسات التى تمر بها هذه الدولة أو تلك، سواء كانت أسباباً اقتصادية واجتماعية أم أسبابا عرقية عنصرية أم تهديدا خارجيا تتعرض له الدولة بكل طوائفها، ومن ثم تتحد هذه الطوائف فى مواجهة هذه الظروف الطارئة ، أما إذا انفرط عقد الجماعة المكونة للدولة وتفككت الروابط بين أفرادها، ووقع الاختلاف بينهم فإن كيان هذه الدولة لايلبث أن ينهار من تلقاء نفسه، نتيجة لعوامل التفسخ الداخلى، والأهواء المتعارضة، والرغبات المتصارعة.

وكان الرسول ﷺ يدرك كل هذه الحقائق ، فعمل على القضاء على أسباب التفرق والاختلاف الداخلى فى المدينة ، وتقويض أركان النظام العصبى الذى كان سائداً من قبل، بأن وضع للمسلمين نظاماً جديداً تقوم فى ظله وعلى هداه العلاقات بين المسلمين بعضهم وبعض.

ومن المعروف أن المسلمين فى المدينة عقب الهجرة صاروا ينتمون إلى فئتين تختلف كل منها عن الأخرى فى مظاهر شتى، أما الفئة الأولى فهى التى أقبلت من مكة إلى المدينة مستضعفة مطاردة، مسلوبة الأموال، مصادرة الممتلكات ، ليس لها ما يعينها على الحياة فى هذا الوطن الجديد سوى عقيدتها وإيمانها بالله، وهؤلاء هم المهاجرون، الذين كان من المتصور اجتماعياً أن يصبحوا أقلية غريبة معزولة تعيش على هامش الحياة فى المدينة، مهما حاولت أن تدعم مكانتها أو تلتمس لنفسها أسباب القوة والنفوذ، وهنا يكون مكمن الخطر على انطلاقة الدولة فى تحقيق رسالتها، لأنها ستنشغل بلا شك بالخلافات المرتقبة والمتوقعة بين هذه الفئة والفئة الأخرى.

كانت تلك الفئة الأخرى هى جموع سكان المدينة من الأوس والخزرج، الذين أطلق عليهم الرسول ﷺ المصطلح الجديد وهو « الأنصار » بهدف أن يميت فيهم روح

العصبية القبلية وينمى فيهم الشعور بالتآلف لغرض أسمى هو نصرة المبدأ الإسلامى، فلا شك أن هؤلاء الأنصار كانوا سيعتبرون أنفسهم أصحاب الحق فى صدارة المجتمع، وأجدر بالامتيازات المكتسبة التى يرشحهم لها دورها الذى بايعوا الرسول ﷺ وهو: «النصرة والمنعة»، وكانوا بلاشك أيضاً سيعمدون إلى الحيلولة بين المهاجرين وبين مزاحمتهم فى أية مناصب أو مكاسب يظنون أنهم أحق بها، ولو سار المجتمع الإسلامى على هذه الصورة ، التى كان يمكن أن تكون صورة واقعية، لما قامت له قائمة، بل لما كان للدولة الإسلامية وجود.

ولذلك فإن الرسول ﷺ غير مجرى الأحداث ووجهها وجهة أخرى تماماً ، وذلك بتطبيقه نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، لإقامة علاقات إيجابية بينهم تنبع من روح الإسلام ، وتقضى على أسباب التفرق والتمزق، فضم إلى كل واحد من الأنصار واحدا من المهاجرين وعقد بينهما برباط الأخوة على الحق والمؤاساة والتوارث بعد الموت، بحيث يرث المهاجر أخاه الأنصارى إذا مات والعكس، فكانت هذه صورة مشرقة للإخاء الإنسانى المستمد من سماحة الإسلام.

ولنذكر مثلاً أن الرسول ﷺ جعل أبا بكر الصديق أخا لخارجة بن زهير الخزرجى، وعمر بن الخطاب أخا لعتبان من مالك، وبلالا – مولى أبى بكر – أخا لأبى رويحة الخثعمى، وسلمان الفارسى أخاً لأبى الدرداء ، وهكذا لم يفرق بين المسلمين على أساس الحسب والنسب أو غيرها من تلك المظاهر التى كانت سائدة من قبل، وإنما جعل الكل سواسية صفتهم واحدة وعلاقاتهم متكافئة، « إنما المؤمنون أخوة».

ولقد استجاب الأنصار إلى هذا النظام فى حماس واضح، واندفعوا يؤثرون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم فى السكن والملبس والمطعم والمشرب، وقدم القرآن الكريم صورة مشرقة لهذا النظام ، وآثاره فى نفوس الأنصار والمهاجرين فقال: « والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ».

ولقد كان لهذا النظام أثره فى تلاحم أفراد الجماعة الإسلامية وتوحيد صفوفها، وانطلاقها فى حياتها الخاصة والعامة فى تعاون وتآزر، إذ أن نظام المؤاخاة كان يترتب عليه كل ما يترتب على الأخوة الحقيقية من الدم والنسب من حقوق وواجبات مادية ومعنوية وأدبية . وقد ظل هذا النظام قائماً حتى قويت شوكة الجماعة الإسلامية بانتصارها فى غزوة بدر، وانصهار أفراد المجتمع جميعاً فى بوتقة واحدة، فأبطل الله الحقوق المادية المترتبة عليه من الميراث وتحريم المحارم فى قوله تعالى : « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله، إن الله بكل شئ عليم »، ولكن بقيت آثاره وحقوقه المعنوية والأدبية، ومازالت الأمة الإسلامية مطالبة بها حتى اليوم، عملاً بنص المبدأ العام الذى سبقت الإشارة إليه ، وهو قوله تعالى : « إنما المؤمنون أخوة ».

**ثالثاً: إعلان *النظام السياسى* وتقرير حسن *الجوار*:**

لم يأت الإسلام معتديا أو باغيا يفرض سلطانه ومبادئه على الناس بقوة الإكراه، وإنما هو دعوة مفتوحة لمن يريد الهداية إلى الحق، واتباع الطريق المستقيم عن بصيرة واقتناع، ولذلك كان موقف الرسول ﷺ من طوائف اليهود الموجودين فى المدينة – وهى النطاق الجغرافى للدولة الإسلامية فى أيامها الأولى – خير تطبيق للحرية الدينية التى دعا إليها الإسلام: « لا إكراه فى الدين »، فلم يكرههم على نبذ دينهم والدخول فى الإسلام، ولكنه باعتباره مسئولاً عن الدولة الإسلامية ، أو بعبارة أخرى من وجهة نظره كسياسى يرعى دولة ناشئة كان عليه أن يتخذ موقفا من هؤلاء اليهود حتى يوثق علاقتهم به ، ويوضح ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات، باعتبارهم مواطنين فى دولته خاضعين لسلطته السياسية، ويفصل دون لبس أو خفاء الروابط التى تربطهم بدولة الإسلام.

ومن ثم أصدر الرسول ﷺ بيانا من طرف واحد – يمكن أن يطلق عليه بمفهومنا الحديث أنه بيان دستورى – وفيه ينص على النظام السياسى الذى سيطبق على هذا المجتمع الجديد فى المدينة، ويوضح فيه أيضاً موقف الأطراف التى لم تدخل الإسلام وبخاصة اليهود، وتحديد العلاقات بين أهلها المسلمين من ناحية وبين

يهودها، مع التأكيد على ضرورة التزام كل تلك الأطراف بهذا البيان، وذلك بهدف تنظيم الحياة الاجتماعية فى الدولة.

فهذا البيان وثيقة هامة لأنه يصور لنا ما كانت عليه أحوال المجتمع اليثربى، وإلى أى حد تغيرت نظمه القديمة، والأسس التى قام عليها قانون تنظيم الحياة الاجتماعية فى المدينة، فضلاً عن الأسس التى تكفل قيام بنيان الدولة الإسلامية بأكملها على أساس متين، ولذلك جاءت بنود تلك الوثيقة - التى دونت فى صحيفة - شاملة ومحددة لأهداف متعددة وليس لتفصيل العلاقات الإسلامية اليهودية فحسب.

وربما كان من المحتم أن نثبت نص تلك الصحيفة لنستخرج منها أهم مكونات النظم الإسلامية التى اشتملت عليها : « بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبى رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم. أنهم أمة واحدة من دون الناس. المهاجرون من قريش على ربعتهم ( أى على الحالة التى كانوا عليها عند ظهور الإسلام ) يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم ( أى أسيرهم ) بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم (أى الديات ) الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو النجار على ربعتهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وأن المؤمنين لا يتركون مفرحا ( أى المثقل بالدين كثير العيال ) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل، وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وأن

المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ( أى عظيمة ) ظلم أو إثم أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ، وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وأن سلم المؤمنين واحدة ، لايسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم، وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً، وأن المؤمنين يبيئ ( يكف ويمنع ) بعضهم عن بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا، ولا يحول دونه على مؤمن، وأنه من اعتبط ( أى قتل بدون سبب يستدعى ذلك ) مؤمنا قتلاً عن بينة، فإنه قود به (أى مأخوذ بالقصاص ) إلا أن يرضى ولى المقتول ، وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وأنكم مهما اختلفتم فيه من شئ، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ.

وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، ولليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، فإنه لايوتغ ( أى يهلك ) إلا نفسه وأهل بيته ، وأن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن ليهود بنى الحارث مثل ماليهود بنى عوف، وأن ليهود بنى الأوس مثل ماليهود بنى عوف، وأن ليهود بنى ساعدة مثل ماليهود بنى عوف، وأن ليهود بنى ثعلبة مثل ماليهود بنى عوف، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم، وأن ليهود بنى الشطيبة مثل ماليهود بنى عوف، وأن البر دون الإثم ، وأن موالى ثعلبة كأنفسهم، وأن بطانة ( أى أهل ) يهود كأنفسهم، وأنه لايخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ، وأنه لا ينحجز على ثأر جرح ( أى لايلتئم جرح على ثأر ) ، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم ، وأن الله على أبر هذا ( أى يرضى به )، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن

بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.

وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها ،وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ، وأن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره ( أى أن الله وحزبه من المؤمنين على الرضا به ).

وأنه لاتجار قريش ولا من نصرها، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب فى الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم.

وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة من البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وأن البر دون الإثم، لايكسب كاسب إلا على نفسه، وأن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره، وأنه لايحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم، وأن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ ».

هذا هو نص الصحيفة كما ذكره ابن اسحاق ، وأول ما نلاحظه هنا أن ابن اسحاق انفرد بهذا النص، ولم يذكر إسناده فى روايته، كذلك فلم يشر إلى المصدر الذى أخذه عنه، ولم يذكر أنه وجده مكتوبا أو أخذه من أحد كتبه. على أن هذا لا يقلل من قيمة هذه الوثيقة التاريخية الهامة ولا يطعن فى صحتها، وذلك لأن بعض المؤرخين مثل الواقدى وابن سعد والطبرى والمقريزى أشاروا إليها وإن لم يذكروا نصها، فى حين ذكر نصها بعض آخر من المؤرخين أمثال ابن كثير وابن سيد الناس. ولأن أسلوب الصحيفة يوافق تماماً أسلوب العصر، كما يوافق روح التنظيم فى المجتمع العربى من حيث الترابط القبلى، والاعتراف بقوة العصبية وأثرها فى المجتمع وأنه ليس من السهل التخلص منها، فقد بدا واضحا فى الصحيفة أن البطون

والعشائر أدخلت فى النظام الجديد بشخصياتها القبلية لا بأفرادها، وهذا ما كان يجرى عليه المجتمع العربى فى تكوينه فى ذلك الوقت. ثم إنها توافق تشكيل المجتمع فى المدينة من حيث أقسام القبائل وبطونها وكذلك ارتباطاتها الحلفية، وكذلك حالة العرب فى المدينة من حيث دخول بعضهم فى الإسلام قبل كتابة الصحيفة وتأخر دخول بعضهم الآخر، فقد ذكرت أسماء البطون التى كانت قد دخلت الإسلام جميعها، وأدمجت البطون التى لم تكن قد دخلت فى الإسلام فى بند عام مثل « بنو الأوس » مع أن هؤلاء كانوا بطونا متعددة.

إن النظرة المتعمقة لبنود هذه الوثيقة التاريخية الهامة يمكن أن تكشف عديدا من الأمور والمبادئ العامة التى نثبت أهمها فيما يلى :

**أولاً** : أنها تظهر بوضوح تام سعة أفق الرسول وأهليته وجدارته، ليس فقط فى الدعوة إلى دين الإسلام، وإنما أيضاً فى القيادة والتنظيم لمجتمع جديد فى ظروف صعبة ومعقدة.

**ثانياً** : أنها تجاهلت نظام القبيلة الذى يفتت وحدة العرب، وجعلت من المسلمين جميعاً – مهاجرين وأنصار ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم – أمة واحدة من دون الناس. فألغت الحدود والفواصل القبلية، وأدمجت المسلمين على اختلاف قبائلهم فى هذه الجماعة التى ترتبط فيما بينها برباط الإسلام، ومن هنا فقد رحب الأنصار بإخوانهم من المهاجرين. فهم يتكافلون فيما بينهم ويتعاونون فيما يثقل بعضهم، وهو تكافل أشار إليه القرآن أيضاً فى قوله تعالى : « يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل »، وقوله أيضاً : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم والغارمين وفى سبيل الله فريضة من الله ».

**ثالثاً** : على الرغم من أنها تجاهلت نظام القبيلة ، وأدمجت كل الطوائف الساكنة فى المدينة فى الأمة الإسلامية، إلا أن هذا الاندماج لم يتم إلا عن طريق القبيلة، فكأن القبائل دخلت الأمة الإسلامية بتنظيماتها القبلية، وألقى على كاهل القبائل عبء دفع ديات القتلى وفداء الأسرى، على نفس النظام الذى كان

متبعاً فى العصر الجاهلى، فالمهاجرون من قريش ، على ربعتهم يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين والأنصارعلى اختلاف قبائلهم كذلك ،.

**رابعاً** : كذلك أبقت الصحيفة على رابطة الولاء وما يترتب عليها من حقوق الموالاة، فلا تجيز لأحد أن يخالف مولى دون مولاه، وهو معنى أكده القرآن فى قوله : ، ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون ،. وبالاضافة إلى ذلك أباحت حق إجارة أى شخص غريب، ولم تستثن إلا قريش ومن نصرها ، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها ،.

**خامساً** : أنها نظمت حق الأخذ بالثأر على نحو يجنب قيام حروب داخلية، فإذا اعتدى شخص على مؤمن بالقتل وجب على أقرباء الجانى أن يسلموا القاتل لولى القتيل، أى لصاحب الثأر لكى يقتص منه بالعدل : ، وأن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه ، ، وفى موضع آخر ، وأن المؤمنين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعهم ولو كان ولد أحدهم،. وبذلك تحول مبدأ الأخذ بالثار إلى مبدأ القصاص والأخذ بالعقاب، ويعتبر تفويض حق التأديب إلى الجماعة بدلاً من الفرد انتقالاً حاسماً له دلالته فى المجتمع العربى الجديد، وهى مرحلة متوسطة فى قانون العقوبات بين العقوبة على المستوى الفردى فى المجتمع القبلى إلى العقوبة على مستوى تشريعات وقوانين فى مجتمع الدولة ، وكان لذلك التنظيم أثر عظيم فى تفادى الحروب الداخلية والاضطرابات.

**سادساً** : أنها تركت لله ولرسوله أمر فض أى نزاع أو خصومة يخاف فساده : ،وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ،، وفى موضع آخر تنص على : ، وأنكم مهماً اختلفتم فيه من شئ فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ،؛ وقد ركز القرآن على ذلك فى قوله : ، يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله

والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر»، والمغزى من ذلك واضح هو تأكيد سلطة عليا دينية تهيمن على المدينة، وتفصل فى الخلافات منعا لقيام اضطرابات فى الداخل من جراء تعدد السلطات، وفى نفس الوقت تأكيد ضمنى برئاسة الرسول ﷺ على الدولة سياسياً.

**سابعاً** : أنها أكدت تضامن المسلمين والمؤمنين وتماسكهم أمام أى خطر خارجى يهدد سلامة الدولة : « وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس»، « وأن بينهم النصر على من دهم يثرب » وتؤكد فى موضع آخر : « أن المؤمنين يبيئ بعضهم عن بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله ». كما جعلت الصحيفة عقد السلم مسألة جماعية لا يجوز أن تنفرد به قبيلة دون أخرى، فإن « سلم المؤمنين واحدة لايسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم » وهو ما أكده القرآن بقوله : « يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة » ، وبذلك ألزمت الصحيفة المسلمين بالتضامن والجماعية فى حالتى الحرب والسلم.

ولا تجيز الصحيفة أيضاً أن يثأر المؤمن من مؤمن آخر إذا قتل قريباً له كافرا : « ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ، ولا ينصر كافرا على مؤمن ». وعلى هذا النحو خرج الاعتداء على المشرك من دائرة المطالبة بالثأر وأصبحت المسألة فى هذه الحالة مجرد إجازة بقتل أعداء الدولة على النحو المعروف فى الحروب، والكافر المقتول يصبح فى هذه الحالة من ضحايا الحرب لا يجوز الثأر لدمه.

**ثامناً** : أنها أوضحت موقف المسلمين من يهود المدينة فتركت لهم حرية العقيدة ، « لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم»، وفى مقابل ذلك ألزمت اليهود بموالاة المسلمين وعدم التآمر عليهم، كما فتحت الباب أمام الراغبين منهم فى الإسلام والانتماء إلى المسلمين : « وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ». وفى مقابل ذلك فعلى اليهود تجهيز أنفسهم بالعتاد والسلاح للمشاركة فى الدفاع عن المدينة ما دام

الخطر مشتركا ،، فاليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، ،، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ،.

**تاسعاً** : أنها أشارت فى جلاء إلى أن المدينة - يثرب - هى موطن الدولة الإسلامية المؤقت، وأن لها حرمتها بالنسبة لجميع المواطنين ، أن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، و، أنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة ،.

**عاشراً** : أنها أعلنت فى وضوح أن الدولة الإسلامية فى حالة حرب مع قريش ، : ،وأنه لاتجار قريش ولا من نصرها وأن بينهم النصر على من دهم يثرب،. ومادام اليهود مشاركين فى الدفاع عن المدينة فإن غنائم الحرب تقسم مشاركة بينهم وبين المسلمين وهنا نلحظ أن الرسول أقر نظام الحرب الاقتصادية وشرعها، وهذا الأمر ينطوى على كثير من الذكاء إذ قطع الرسول ﷺ الصلة بين الرأسمالية القرشية والرأسمالية اليهودية فى يثرب .

**حادى عشر** : أنها جعلت المسلمين أصحاب السيادة فى المدينة ولم يعودوا أقلية كما كان الحال من قبل فى مكة، مما يدل على أن الرسول ﷺ عمل منذ قدومه إلى المدينة على إقامة مجتمع إسلامى خالص .

ومجمل القول فإن دراسة الصحيفة تكشف عن تحديد واضح لسلطات الرسولﷺ السياسية والعسكرية والقضائية، إذ جمع بين الدين والدولة ووضع قواعد الحكومة الثيوقراطية ( الدينية )، لتحل محل الأساس الطبقى والقبلى الذى كان سائدا فى الجاهلية، وبذلك وضح أساس الدولة الإسلامية.

# الفصل الثالث

## علاقة الرسول ﷺ بمنافقى المدينة ويهودها

ماكادت الدولة التى أنشأها الرسول ﷺ فى مدينة يثرب تقوم حتى ظهر لها خصوم فى الداخل إلى جانب خصمها الخارجى المتواجد فى مكة، ولم يمض وقت طويل حتى اتفقت مصلحة هؤلاء الخصوم ، وتضافرت جهودهم على سحق تلك الدولة الناشئة والقضاء عليها، وخنق الدين الجديد الذى قامت على أساسه، ومحاولة القضاء على صاحب هذا الدين حتى تعود الحالة إلى ماكانت عليه من قبل ؛ ومن ثم بدأ بينها وبين خصومها صراع عنيف، استعمل فيه اللسان تارة والعنف تارات، وقامت فيه الدبلوماسية بدورها إلى جانب القوة المسلحة، وظهرت فيه قوة الأحلاف القديمة بترابطها ومصالحها المشتركة، كما ظهرت فيه آثار الخصومة القديمة بين القبائل والطوائف سواء فى داخل يثرب ذاتها أو فى خارجها، ولعب تشابك المصالح أو تعارضها دوراً هاماً فى توجيه الصراع وتقرير مصيره .

ولم يكن خطر خصوم الداخل أقل أثراً من خطر خصوم الخارج، بل إنه أحيانا كان أشد على الدولة ، لأنه عرض داخليتها للارتباك وهدد جبهتها بالتفكك، وجعلها عرضة للسقوط أمام أى هجوم خارجى ، وقد تمثل هذا الخطرالداخلى فى طائفتين من طوائف مجتمع المدينة هما : منافقو الأوس والخزرج العرب فضلاً عن الجماعات اليهودية .

**اولاً: منافقو الأوس والخزرج :**

فأما عن جماعات الأوس والخزرج فقد دخل بعض أفرادها فى الإسلام ظاهرياً دون أن يدخل الإيمان قلوبهم، ولذلك عرفوا بالمنافقين، وكان رأس هؤلاء المنافقين رجل من زعماء الخزرج هو عبد الله بن أبى بن أبى سلول، الذى رأى أن هجرة الرسول ﷺ قد فوتت عليه مصلحة عاجلة كادت تصل إليه . ذلك أن الأوس والخزرج كانوا قد تصالحوا بعد يوم بعاث ( وهى حرب وقعت بينهما قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة بأعوام قلائل وكانت حوالى عام ٦١٦م) ، واتفقوا على أن يملكوا عليهم رجلاً منهم، وكان عبد الله هو هذا الزعيم الذى وقع عليه الاختيار ، فلزم الحياد فى مراحل الصراع الأخيرة بين القبيلتين، وفعلاً استعد قومه لتوليته مقاليد الرياسة، فلما كانت الهجرة تغير الوضع وفات عبد الله ما كان يريد وينتظر،

ومن أجل هذا ضغن على الرسول ﷺ وعلى الوضع الجديد كله، والتفت حوله طائفة ممن شايعته، كما التف حوله اليهود لاتفاق مصلحة الطرفين. وقد عملت طائفة المنافقين على خلق المتاعب فى المدينة، غير أن خصومة هؤلاء المنافقين كانت تختلف عن خصومة اليهود وإن اتحدت مصلحة الطرفين فى مناوأة الرسول ﷺ ، فالمنافقون من عرب يثرب يرتبطون بعشائرهم برابطة الدم والقرابة ، وليس من السهل التخلص منهم بإخراجهم منها كما فعل الرسول ﷺ باليهود، كما أنه من الصعب التخلص منهم بالقتل وإلا تعرضت المدينة لحرب العصبية، وتعرض الرسول ﷺ لأن يقال عنه أنه يقتل أصحابه، وفى هذا إضعاف لمركز الدعوة الإسلامية بين القبائل لو شن العدو دعاية من هذا النوع، فقد كان المنافقون يظهرون الإسلام، فهم فى الظاهر مسلمون . وقد استشعر الرسول ﷺ هذا الحرج حين أشار عليه عمر بن الخطاب بقتل عبد الله بن أبى بعد أن سعى بالفتنة بين المهاجرين والأنصار فى غزوة بنى المصطلق، إذ رد على عمر بقوله : « فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ». وقد استعان الرسول ﷺ على هذه الطائفة بعشائرها لأنها كانت تدرك موقف هؤلاء المنافقين، وتقدر حلم الرسول ﷺ بهم رعاية لخواطر عشائرهم، ولذلك جعلت هذه العشائر من نفسها وازعا يرد فتن هؤلاء المنافقين ويكبح جماحهم. وقد نجحت سياسة الرسول ﷺ هذه إلى حد كبير ، وخير شاهد على ذلك ما أورده ابن إسحاق من استعداد عبد الله بن عبد الله بن أبى لقتل والده لو أمره الرسول ﷺ بذلك، ومن أن قومه هم الذين كانوا يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه، وحين تذاكر الرسول ﷺ وعمر موقف عبد الله بن أبى وتعنيف قومه له ، قال « كيف ترى ياعمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته ».

وموقف المنافقين هذا كان شديد الخطورة على كيان الأمة الداخلى، لكنه لم يصل إلى الحد الذى وصل إليه موقف اليهود ،فقد كان المنافقون حقاً يخذلون الدولة فى المواقف الحرجة، ولا يتعاونون معها تعاوناً صادقاً عند الخطر، كما حدث من عبد الله بن أبى حين خذل جيش المسلمين ورجع بالمنافقين فى غزوة أحد، وكما تخاذل المنافقون فى غزوة الأحزاب. لكن هذه المواقف لم تكن فى خطورة الاتصال

بالعدو وتمهيد الطريق له لدخول المدينة والقضاء على أهلها كما فعل اليهود، فقد كان المنافقون يعتبرون أنفسهم أهل البلد، وهم إن لم يدافعوا عنها نصرة للدين قاتلوا من أجل أحسابهم وأعراضهم ، ولذلك كان الرسولﷺ يستشيرهم حين يدهم المدينة داهم، فقد استشار عبد الله بن أبى فى غزوة أحد، فأشار برأى صحيح إذ أن الموقف كان يمس وطنه، كما قاتل بعض المنافقين قتالاً رائعاً فى هذه الغزوة، وخير مثل لهم فى هذا الموقف رجل يسمى « قزمان » أبلى بلاء شديدا وقتل من الأعداء ثمانية أو سبعة منهم من كان يحمل لواء قريش، ولما جرح وأشرف على الموت وجعل بعض المسلمين يبشرونه بالجنة قال « بماذا أبشر ؟ فوالله إن قاتلت إلا عن أحساب قومى، ولولا ذلك ما قاتلت » . وقد ظل خطر المنافقين على الدولة كبيراً ما ظل اليهود فى المدينة ، إذ أنهم كانوا على صلة دائمة بهم، بل إن اليهود هم الذين أذكوا النفاق فيها، فلما تم تطهيرها منهم ضعف أمر النفاق، وأصبح الرسول ﷺ لايخشى خطر هذه الطائفة.

**ثانيا: *اليهود*:**

أما بالنسبة لطائفة اليهود فكانوا يشكلون عنصراً كبيراً وقوة خطيرة لايستهان بها ، وقد أجبرتهم الظروف على تقبل الوضع الجديد الذى نشأ فيها بعد الهجرة مباشرة، لاعتقادهم أن قدوم الرسول ﷺ إليها سيكون فى مصلحتهم، وظنوا أن فى مقدورهم استمالته إليهم وإدخاله فى حلفهم، فإنه يدعو إلى ديانة تتفق فى جوهرها مع عقائدهم، ولو أفلحوا فى ضمه إليهم لربما استطاعوا أن يعيدوا إلى أنفسهم مركز التفوق فى المدينة ، وربما استطاعوا به بعد توحيد بطون المدينة وجعلها كتلة واحدة أن يجعلوا منها مدينة قوية، تستطيع أن تسيطر على الحركة الاقتصادية وتنافس مكة وتتغلب عليها، وربما يتمكنوا من تأليف جزيرة العرب كلها حتى تقف فى وجه النصرانية التى تغلبت عليهم وأجلتهم عن فلسطين.

فلعل كل هذه الآمال كانت تجول فى نفوس اليهود فى المدينة حين قدم إليها الرسولﷺ، ولذلك أحسنوا استقباله فقابل تقربهم بمثله، فتحدث إلى رؤسائهم وتقرب إلى كبرائهم، وربط بينه وبينهم برابطة المودة باعتبارهم أهل كتاب موحدين، وبلغ

من ذلك أنه كان يصوم يوم صومهم، وجعل قبلته فى الصلاة إلى بيت المقدس قبلة أنظار بنى إسرائيل جميعاً، وقامت علاقة طيبة بين أصحابه من المهاجرين وبين اليهود حتى كانوا يغشون مجالسهم ويذهبون إلى بيت مدارسهم يتحدثون إليهم، ويسألونهم وكذا يسمعون منهم، ويرون التوراة تصدق القرآن والقرآن يصدق التوراة. وما كانت الأيام لتزيد الرسول ﷺ والمسلمين باليهود أو لتزيد اليهود بهم إلا مودة وقربى، حتى وصل الأمر بينهم إلى عقد معاهدة صداقة وتحالف وتقرير لحرية الاعتقاد، ولئن لم يشترك فى توقيعها بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع، فإنهم لم يلبثوا أن وقعوا بينهم وبين الرسول ﷺ صحفاً مثلها. وبهذه الصحيفة التى قررت حرية العقيدة وحرية الرأى وحرمة المدينة وحرمة الحياة وحرمة المال وتحريم الجريمة، استقرت الأحوال فيها وأصبحت حرماً لأهلها عليهم أن يدافعوا عنها ، وأن يتكافلوا فيما بينهم لاحترام ما قررته الوثيقة من الحقوق. وبدت المدينة وكأنما تسير إلى ما كان ينشده لها أهلها من هدوء وتقدم، وبدأ الرسول ﷺ يمثل فيها روح النظام والاستقرار، وكان هو القدوة فى حسن المعاملة والتواضع والعدل ؛ وقد ترك ذلك فى النفوس أعمق الأثر حتى أقبل كثيرون على الإسلام، وزاد المسلمون فيها شوكة وقوة، وأخذ الرسول ﷺ يتجه إلى بناء دولته وضمان الأمن لها فى الداخل والخارج، ونجحت السرايا التى أرسلها إلى ما حول المدينة فى تأمين ريفها وعقد المحالفات مع القبائل الضاربة على جنباتها.

ومع ذلك، فقد ظل اليهود يترقبون الفرصة المواتية لتحقيق آمالهم، وينتظرون ما تتبلور عنه الأوضاع الجديدة، وما لبثوا أن تأكدوا أن الأمور تسير إلى وجهة غير التى قدروها، إذ رأوا الرسول ﷺ يدعو إلى توحيد يختلف عن التوحيد الذى يؤمنون به، فلقد اتخذ اليهود من رسالة التوحيد التى جاء بها موسى دينا ولكنهم ربطوها بجنسهم، فالله الواحد عندهم هو إله إسرائيل، الذى اختارهم لنفسه من دون الناس واختاروه لأنفسهم من دون الآلهة، وبذلك كانوا يرون لأنفسهم ميزة على الناس. وكانوا حين تلم بهم شدة أو يحيط بهم الضعف والذل ، ينتظرون مجئ رسول أو «مسيح» ينقذهم من البؤس والشقاء ، وقد تحولت هذه الأمنية عندهم إلى عقيدة راسخة، حتى أن المؤرخ اليهودى إسرائيل ولفنسون يقول عن ذلك : ملأت هذه

القصة صحفاً كثيرة من صحف الأدب الاسرائيلى القديم والحديث... ولا تزال هذه العقيدة إلى اليوم راسخة فى نفوس الطبقات المتدينة من اليهود. وإذا قام شخص وادعى أنه المسيح المنتظر الذى يحنون إليه منذ أزمان طويلة أنكروا ادعاءه وسفهوا قوله ورفضوا الاذعان إلى ما يدعوهم إليه. وكأن الأمة الاسرائيلية كانت ترمى بهذه الفكرة إلى غاية معنوية لايريدون تحقيقها بوجه من الوجوه ،

وقد نزل القرآن الكريم يندد باليهود ويذكر تناقضهم فى أنفسهم إذ يقول: « لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون »، فكأن غاية اليهود من أمنيتهم أن يجدوا من يأتى بما يهوون من سيطرة ونفوذ، لا بما تتطلبه الدعوة من إصلاح وخير يعم الناس جميعاً. ومن أجل ذلك كذبوا أنبياءهم ، وعارضوا السيد المسيح وحاربوا دعوته وسعوا إلى قتله. فإذا جاء محمد ودعا الناس إلى الإله الواحد بغض النظر عن أجناس البشر، فإن ذلك يزيل عن بنى إسرائيل هذه الميزة التى يتفاخرون بها على الآخرين.

وإذن فلا تهادن بين اليهود وبين الرسول ﷺ الذى يسعى إلى تحطيم تلك القواعد المقررة التى ساروا عليها، فقامت بينهم وبينه محاجات ومجادلات مالبثت أن اتخذت من جانبهم موقف التحدى والمعاندة ، بل لم تلبث أن ورطتهم فيما لا يصح أن يتورط فيه أناس لهم دين سماوى وعندهم كتاب، فلقد كفروا بكل مبادئ التوحيد نكاية فى الرسول ﷺ، فأعلنوا لقريش حين سألتهم أدينها خير أم مايدعو إليه هذا الرجل ( الرسول ﷺ ) ؟ أجابوا أن دينهم خير وأن الحق فى جانبهم، وفى تورطهم فى هذا الإثم الذى دفع إليه الحقد الأعمى بتفضيلهم الأصنام على التوحيد نزل القرآن يندد بهم فى قوله : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ، أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً ».

كذلك فمما أثار حقد اليهود على المسلمين أن الرسول ﷺ استطاع أن يؤلف بين الأوس والخزرج، وأن يجعل منهم كتلة قوية متماسكة تضاءل إلى جانبها وضع اليهود. ثم إن توافد المهاجرين إلى المدينة من مكة كل يوم ، ومن يلحق بهم ويدخل

فى الاسلام من الأعراب، قد زاد العرب بها قوة وأضعف اليهود وقضى على كل حلم يراود نفوسهم فى تدعيم مركزهم أو حتى الاحتفاظ بهذا المركز.

ثم إن المهاجرين المكيين مالبثوا أن اقتحموا الميدان الاقتصادى والتجارى بوجه خاص، وكان لهم من الخبرة بشئون التجارة ماتضاءلت معها خبرة اليهود، وليس أبرع من تاجر قرشى فى ذلك الوقت، فنظموا سوق المدينة وأجروا فيها التعامل على أسس جديدة جاء بها الإسلام، فلا ربا ولا إرهاق ولا طرقاً ملتوية من احتكار واستغلال تذهب بأموال الناس، وبذلك نجحوا نجاحاً كبيراً وجنوا أرباحاً لابأس بها، وسيطروا أو كادوا على سوق المدينة، ولما كان المال وجمعه عنصراً حساساً عند اليهود يبيحون لأنفسهم فى سبيله ما لا يبيحه دين أو شرف، فإنهم أحسوا بمزاحمة المكيين لهم فى هذا المجال، ولم يترددوا فى التنكر لعهودهم ونقض مواثيقهم، والسعى إلى تحطيم هذا الوضع الجديد.

هنالك بدأ اليهود يفكرون من جديد فى موقفهم من الرسول ﷺ وأصحابه ، لقد عقدوا معه عهدا وكانوا يطمعون فى ضمه إلى صفوفهم ليزدادوا به قوة، ولكنه أصبح أقوى منهم، وأنه بدأ يتجه بقوته إلى المجال الخارجى ويعمل على توسيع نطاق دعوته ونفوذه، أفيتركونه يمد سلطانه وينشر دعوته على هذا المدى الواسع، ويكتفون بالأمن فى جواره أمنا يمكن لمصالحهم المادية أن تتسع ؟ لعلهم كانوا يقنعون بذلك لو آمنوا أن دعوته لا تمتد إلى اليهود ولا تتفشى فى عامتهم ، فتعاليمهم تقتضيهم ألا يعترفوا بنبى من غير بنى إسرائيل . لكن رجلاً من علمائهم وأحبارهم هو عبد الله بن سلام القينقاعى لم يلبث حين اتصل بالرسول ﷺ أن أسلم هو وأهل بيته، وجابه اليهود باسلامه ودعاهم إلى الإسلام. وهنا أجمع اليهود أمرهم أن يكيدوا للرسول ﷺ وينكروا نبوته. وما أسرع أن اجتمع إليهم من بقى على الشرك من الأوس والخزرج، ومن دخل فى الإسلام منهم بظاهره جرياً وراء مغنم، أو إرضاء لعصبية لم يقو على مخالفتها.

وهنا بدأت حروب جدل بين الرسول ﷺ واليهود كانت أكثر لددا ومكرا من حرب الجدل التى كانت بمكة بينه وبين قريش. فقد حشد اليهود لها ما استطاعوا من

أنواع الدسيسة والنفاق، وما كان لديهم من علم بأخبار الأنبياء والمرسلين، يهاجمون بها الرسول ﷺ ورسالته وأصحابه من المهاجرين والأنصار. وقد بدأت هذه الدسائس بمحاولات اليهود المتكررة للوقيعة بين المسلمين، فكانوا يدسون من أحبارهم من أظهر إسلامه ليجالس المسلمين ويظهر الورع والتقوى، ثم يلقى على الرسول ﷺ من الأسئلة ما يثير الشكوك والريب فى نفوس المسلمين ويزعزع عقيدتهم به وبرسالته، ويتعنتون ويأتون باللبس ليلبسوا الحق بالباطل، فأخذوا يسألون أسئلة منكرة عن الساعة وعن ميعادها، وعن وحدانية الله أهى حقيقة ، وإذا كان الله قد خلق الخلق فمن خلق الله؟ وغيرها من الأسئلة التى لم يكن يقصد بها سوى التشكيك والتضليل بهدف الفتنة وإحداث البلبلة ، لكن القرآن كان يجيبهم فيما يسألون عنه . وانضم إليهم جماعة المنافقين من الأوس والخزرج ليسألوا ويشاركوا فى الوقيعة بين المسلمين، وكانوا يحضرون المسجد فيسمعون منهم أحاديث الرسول ﷺ ويسخرون منهم ويستهزئون بدينهم. وفطن المسلمون لأمر خصومهم وعرفوا غاية سعيهم، فلما رأوا جماعة منهم بالمسجد ذات يوم يتهامسون وهم خافضى أصواتهم قد لصق بعضهم ببعض، أمر الرسول ﷺ بإخراجهم من المسجد إخراجاً عنيفاً.

لكن هذا لم يكن كافياً ليثنى اليهود عن سعيهم فى الوقيعة بين المسلمين، وغاظهم أن يجتمع أمر الأوس والخزرج على الإسلام وتقوم الألفة بينهم عليه، فأرادوا أن يثيروا الأحقاد القديمة ليجددوا بينهم العداوة والبغضاء . من ذلك أن مر يوماً أحدهم ويدعى شاس بن قيس على نفر من مسلمى الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وتوحدهم وصلاح ذات بينهم، وقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة – وهو اسم جدة للأنصار- بهذه البلاد والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار. وأمر فتى شاباً من اليهود كان معه أن يجلس بينهم وأن ينتهز فرصة يذكرهم بيوم بعاث، وما كان بين الأوس والخزرج فيه. وتكلم الفتى فذكر القوم بذلك اليوم فتنازعوا وتفاخروا واختصموا وكاد الشر يقع بينهم، لولا أن سمع الرسول ﷺ بالأمر فسارع إليهم فيمن معه من أصحابه وذكرهم بما ألف الإسلام بين قلوبهم وجعلهم إخوانا متحابين، ومازال بهم حتى بكى القوم وعلموا أنها من نزعات الشيطان وكيد الأعداء.

وبلغ الجدل بين الرسول ﷺ واليهود مبلغا من الشدة يشهد به ما نزل من القرآن فيه، فقد نزلت إحدى وثمانون آية من سورة البقرة، كما نزل قسم كبير من سورتى النساء والمائدة، وكلها تذكر هؤلاء اليهود وإنكارهم ما فى كتابهم ويلعنهم لكفرهم وإنكارهم أشد اللعنة فقال تعالى: « ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون. وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون. ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ».

وبلغ الجدل بين المسلمين واليهود حدا كان يصل أحياناً إلى الاعتداء بالأيدى، وحسبك لتقدر هذا أن تعلم أن أبا بكر – مع ما عرف عنه من دماثة الخلق ولين الطبع وطول الأناة – تحدث مرة إلى يهودى يدعى فنحاص يدعوه إلى الاسلام، فرد فنحاص بقوله: « والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء وما هو عنا بغنى، ولو كان غنيا عنا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه ولو كان غنيا ما أعطانا الربا »، وفنحاص يشير هنا إلى قوله تعالى: « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافا كثيرة». ولم يطق أبو بكر صبرا على هذا الجواب فغضب وضرب وجه فنحاص ضربا شديداً، وقال: « والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينك لضربت رأسك، أى عدو الله »، وشكا فنحاص أمره إلى الرسول ﷺ وأنكر ما قاله لأبى بكر، فنزل قوله تعالى: « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغيرحق ونقول ذوقوا عذاب الحريق. ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ».

ولم يكتف اليهود بالوقيعة بين المهاجرين والأنصار ثم بين الأوس والخزرج، وفتنة الناس عن دينهم ومحاولة ردهم إلى الشرك دون تهويدهم، وصدهم من يريد الإسلام من المشركين، بل حاولوا فتنة الرسول ﷺ نفسه. ذلك أن أحبارهم وأشرافهم وسادتهم ذهبوا إليه وقالوا: « يا محمد، إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم

وسادتهم وإنا إن اتبعناك اتبعتك يهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين بعض قومنا خصومة، أفنحاكمهم إليك فتقضى لنا عليهم ونؤمن بك ونصدقك » ، فأبى الرسول ﷺ وأنزل الله فيهم: « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وأن كثيراً من الناس لفاسقون. أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ».

وحين ضاق اليهود ذرعا بالرسول فكروا فى المكر به وإقناعه بالجلاء عن المدينة كما أجلته قريش عن مكة ، فذكروا له أن من سبقه من الرسل ذهبوا إلى بيت المقدس وكان مقامهم به، وأنه إن يكن رسولا حقا فجدير به أن يصنع صنيعهم وأن يعتبر المدينة وسطا فى هجرته بين مكة وبيت المقدس . لكن الرسول أدرك ما يرمون إليه، وأوحى الله إليه فى رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقامه بالمدينة أن يجعل قبلته المسجد الحرام بيت إبراهيم وإسماعيل، حيث نزل قوله تعالى : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره » ، واستنكر اليهود مافعل ، وأدركوا أنه ينطوى على موقف خطير، فإنّ اتخاذ القبلة إلى بيت الله الحرام بمكة فيه جذب كبير لقلوب العرب، لأن الكعبة محط أنظارهم وموضع تقديسهم وإكبارهم، وفى ذلك إرضاء للروح العربية، وهو ما قد يؤدى إلى انجذاب العرب نحو الدين الذى يتخذ قبلتهم قبلته. وفيه كذلك تقرب لمكة التى كانت فى عداء مع الرسول ﷺ، وقد يؤدى هذا إلى تقارب وجهة النظر بين قريش والرسول ﷺ فيلتئم شمل قريش ومن خلفها العرب معه ، فيضيع اليهود فى غمرة هذا الاجتماع . لذلك أنكروا تحويل القبلة إلي مكة وحاولوا فتنة الرسول ﷺ مرة أخرى بقولهم : أنهم يتبعونه إن هو رجع إلى قبلته الأولى، فنزل قوله تعالى : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم. وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً، وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم ».

فى هذا الوقت الذى اشتد فيه الجدل بين الرسول ﷺ واليهود، وفد على المدينة وفد من نصارى نجران عدتهم ستون راكبا، فيهم أشرافهم ومن يؤول إليه أمرهم، وكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده فى دينهم. ولعل هذا الوفد إنما جاء إلى المدينة فى هذا الوقت طمعاً فى أن يزيد الخلاف شدة بين الرسول ﷺ واليهود، حتى يبلغ به حد العداوة، فيريح النصرانية المتاخمة فى الشام واليمن من دسائس اليهود وعدوان العرب على السواء، واجتمعت الأديان الثلاثة بمجئ هذا الوفد وقامت ملحمة كلامية عنيفة بين اليهودية والمسيحية والإسلام. فأما اليهود فقد أنكروا رسالة عيسى ومحمد إنكاراً فيه عنت ومكابرة، وزعموا أن عزيرا ابن الله، وأما النصارى فقالوا بالتثليث وبألوهية عيسى. وأما الرسول ﷺ فدعا إلى توحيد الله توحيداً مطلقاً، وأن الرسالات جميعاً تمثل وحدة روحية واحدة من أزل الوجود إلى أبده. وكان اليهود والنصارى يسألونه عمن يؤمن به من الرسل فيقول كما نزل القرآن : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون »، وينكر عليهم أشد الانكار كل ما يلقى أية شبهة على وحدانية الله، ويذكر لهم أنهم حرفوا الكلم مما فى كتبهم عن مواضعه، وأنهم غيروا مبادئ الرسل والنبيين الذين يقرون لهم بالنبوة، وأن ما جاء به موسى وعيسى ومن سبقهم لا يختلف فى شئ عما جاء هو به ، لأن ما جاءوا به جميعاً هو الحقيقة الخالدة التى تتكشف لكل من نزه نفسه عن الخضوع لغير الله، ونظر فى الكون نظرة سامية فوق أهواء الدنيا، مجردة من الخضوع الأعمى للأوهام ولما وجد عليه آباءه وأجداده؛ ثم يلقى عليهم الصيغة التى أنزلها الله عليه بقوله تعالى : « قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون». فماذا يمكن لليهود والنصارى أن يقولوا فى هذه الدعوة . فأما النفس التى كرمت بالعقل والروح الخالصة الصادقة فلا تستطيع إلا أن تؤمن به دون غيره. لكن للحياة البشرية جانبها المادى الذى يجعل الإنسان يضعف لإغرائها فيخضع لها، هذا الجانب المادى المصور فى المال والجاه

والسلطان وفى كاذب الألقاب هو الذى جعل أبا حارثة أكبر نصارى نجران علما ومعرفة يدلى إلى رفيق له بأنه مقتنع بما يقول الرسول ﷺ، فلما سأله رفيقه : فما يمنعك منه وأنت تعلم هذا ؟ كان جوابه بأن المانع هو : « ما صنع بنا هؤلاء القوم شرفونا ومولونا وأكرمونا وقد أبوا إلا خلافه، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى ».

وهكذا اشتد النفور بين المسلمين واليهود فى المدينة وكثرت بينهم المخاصمات وبدت الكراهية والبغضاء، حتى نزل القرآن ينهى المسلمين عن الاختلاط بهم واتخاذ بطانة لهم منهم بقوله: « يا أيها الذين أمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون. ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم ». كما نزل قوله تعالى يحذرهم من القعود معهم والدخول فى مجادلات دينية فى قوله: « وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ». فنجم عن ذلك أزمة بين المسلمين واليهود ظلت تشتد يوماً بعد يوم، ولم يمض أكثر من ثمانية عشر شهراً علي قدوم الرسول ﷺ إلى المدينة، حتى تلبد الجو بالغيوم الكثيفة بين الطرفين، وجعل كل فريق يتواصى بالحذر والنفور من الفريق الآخر، واستمرت هذه الأزمة الشديدة إلى يوم موقعة بدر بين المسلمين وقريش فى العام الثانى للهجرة .

رأينا – من قبل – أن الصحيفة التى كتبها الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار على رأس سنة من قدومه إلى المدينة ، ووادع فيها اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم، قد ذكرت البطون اليهودية الصغيرة التى كانت فى ذلك الوقت قد اندرجت فى البطون العربية وصارت تعد منها بحسب العرف القبلى، ولذلك ذكرتها الصحيفة لا بأسمائها، ولكن بأسماء البطون العربية التى تتبعها. أما قبائل اليهود الثلاث الكبرى وهى : بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة ، فلم يجئ لها ذكر فى الصحيفة، وإن كان قد وضع بند عام يسمح بإلحاق هذه القبائل فيما بعد « وأنه

وقعت بين الرسول ﷺ وبين هذه القبائل عهود أشار إليها المؤرخون لم يذكروا نصها،

ويبدو أن نصوصها لم تكن تختلف عن الجوهر العام لنص الصحيفة، والأرجح أن هذه القبائل اليهودية لم تعاقد الرسول ﷺ فى وقت واحد، فقد ذكرت المصادر أن بنى قينقاع حين أجلاهم الرسول ﷺ بعد بدر كانوا هم أول من نقض العهد . ثم ذكر الواقدى وابن سعد أن اليهود بعد مقتل كعب بن الأشرف وإهدار دم اليهود، فزعوا وجاءوا إلى الرسول ﷺ يقولون « لقد طرق صاحبنا الليلة، وهو سيد من ساداتنا ، قتل غيلة بلا جرم ، ولا حدث علمناه »، فقال رسول الله ﷺ « إنه لو قر كما قر غيره ممن هو على مثل رأيه ما اغتيل ، ولكنه نالنا بالأذى وهجانا بالشعر، ولا يفعل هذا أحد منكم إلا كان السيف»، ثم دعاهم رسول الله ﷺ إلى أن يكتب بينهم كتابا ينتهون إلى ما فيه فكتبوا بينهم وبينه كتاباً، وقد كان مقتل كعب بن الأشرف بعد جلاء بنى قينقاع وقبل موقعة أحد. ومن ذلك يتبين أن بنى قينقاع كانوا هم أول من تعاقد مع الرسول ﷺ من القبائل اليهودية الكبرى، ولهذا ما يرجحه ، فإن بنى قينقاع كانوا حلفاء الخزرج وكانت بطون الخزرج كلها قد دخلت فى الإسلام. ثم إنهم كانوا يساكنون المسلمين فى داخل المدينة، فكان الوضع لذلك يقتضيهم أن يتعاقدوا مع الرسول ﷺ والمسلمين .. أما بنو النضير وبنو قريظة كانوا يسكنون فى منطقة العوالى خارج المدينة وعلى طرف الحرة الشرقية، فكانت مساكنهم لذلك بعيدة ، كما كانوا فى منعة من حصونهم وآطامهم، ثم إن البطون التى كانت قريبة منهم من العرب بطون أوسية ، هى التى عرفت بأوس الله، وقد تأخر إسلام هذه البطون إلى ما بعد موقعة الخندق ، فلم يكن هناك ما يحمل هؤلاء اليهود على الإسراع فى معاقدة الرسول ﷺ، حتى إذا كان حادث كعب بن الأشرف وهو من زعماء بنى النضير، وإهدار النبى دم اليهود، وجدوا أنفسهم مهددين من جانب المسلمين الذين اشتدت قوتهم بعد انتصارهم فى بدر، فاضطروا إلى الدخول فى حلف الرسول ﷺ .

ولعل المعاهدات التى وقعها الرسول ﷺ مع هذه القبائل لم تكن تشترط عليها أن تشارك معه فى القتال، وهذا أمر طبيعى بعد أن فسدت الأمور بين المسلمين واليهود كما أشرنا إليه من قبل ، فلم يعد الرسول ﷺ يثق بهم حتى يشترط عليهم أن يشاركوا معه فى الحرب، والدليل على ذلك أن اليهود لم يشاركوا فعلاً فى حروب الرسول ، وأنه رفض الاستعانة بهم حين عرض رجال الأنصار أن يستعينوا بحلفائهم

من اليهود في يوم أحد ، لأن بني النضير كانت قد بدت منهم خيانة وممالأة العدو من قبل أحد، حينما نزل أبو سفيان بن حرب على سلام بن مشكم سيد بني النضير في غزوة السويق بعد بدر « فقراه وسقاه وبطن له من خبر الناس ( أعلمه سرهم)». فلم يكن الرسول ﷺ يقبل والحالة هذه أن يشتركوا في جيشه حتى لا يتعرض لخيانتهم في ميدان القتال.

**إجلاء بني قينقاع ( شوال سنة ٢هـ ):**

كانت النيات قد فسدت بين المسلمين واليهود كما بينا، وكان اليهود قد بدأوا يناوشون المسلمين، ويحرضون عليهم ويدسون بينهم، حتى فاضت النفوس بالعداوة ، وجعل كل من الطرفين يتربص بالآخر. حتى إذا كانت غزوة بدر وانتصر المسلمون فيها انتصاراً كبيراً على قريش، ساء اليهود هذا النصر فبدأت طوائفهم تتغامز بالمسلمين وتغرى بهم وتحرض عليهم ، حتى فاضت النفوس أي فيض،وعادت إلى اليهود طبيعتهم المعهودة في نكث العهود والإخلال بالمواثيق، وأخذوا يفكرون في الكيد ثانية للمسلمين، بحيث تعرض المسلمون لسلسلة من المتاعب والقلاقل التي حرص اليهود على إثارتها لتفريق كلمتهم.

وكان أول من أثار الشغب على المسلمين يهود بني قينقاع – وهم أغنياء المدينة ولهم فيها حصون حربية حصينة، فلما تفاقم أمرهم واشتد طغيانهم جمعهم الرسول ﷺ في مؤتمر عقده في سوق المدينة، وحاول نصحهم وإرجاعهم عن غيهم، وحذرهم عاقبة هذا العمل، وطلب منهم الالتزام بنصوص ما هو معقود معهم من عهود ، لكن جوابهم على هذا النصح كان في غاية الوقاحة المشوبة بالغطرسة والتحدي، إذ ردوا قائلين : « لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوما لاعلم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة (يقصدون بذلك قريش )، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس ». ورغم هذا الاستفزاز كظم الرسول غيظه وصبر المسلمون، إلى أن استبد طغيان اليهود وكثر تحرشهم بالمسلمين حتى كانت الشرارة الأولى التي أشعلت نار الحرب بينهم.

فقد حدث أن قدمت سيدة أنصارية إلى سوق بني قينقاع لتبيع حليها، ولما

جلست إلى أحد صاغتهم اجتمع حولها نفر من اليهود يتحرشون بها ويجرحون حياءها، وعمد أحدهم إلى عقد طرف ثوبها إلى ظهرها وهى غافلة، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحك منها اليهود وسخروا، وأخذت الغيرة رجلا من المسلمين فشد على الصائغ وقتله، فوثب اليهود على المسلم وقتلوه، ووقعت الحرب بين يهود بنى قينقاع والمسلمين؛ فى منتصف شهر شوال من العام الثانى للهجرة، أى بعد معركة بدر بما يقرب من خمسة وعشرين يوماً فقط؛ وأمر الرسول ﷺ بفرض الحصار على هؤلاء اليهود خمس عشرة ليلة، اضطروا بعدها إلى النزول على حكمه والتسليم بقضائه دون قيد أو شرط. وانتهت مشاورات الرسول ﷺ مع أصحابه بإجلائهم عن المدينة ، بعدما تدخل عبد الله بن أبى لدى الرسول ﷺ لكى يكتفى باجلائهم دون القتل، فرحلوا إلى أذرعات الشام ( مدينة درعا الحالية ) ، فكان بنو قينقاع أول فئة يهودية يتم إجلاؤها عن المدينة.

**إجلاء بني النضير : ( ربيع الأول ٤ هـ ) :**

أما الفئات اليهودية الأخرى فى المدينة وفى ضواحيها ، فإنها على الرغم من معاداتها للمسلمين وحرصها على القضاء عليهم، إلا أنها لم تجرؤ آنذاك على مساندة إخوانهم من بنى قينقاع، الذين حاولوا إعاقة مسيرة الدعوة الإسلامية ، ومع ذلك ظلت هذه الفئات - وعلى الأخص يهود بنى النضير - تتحين الوقت المناسب لضرب المسلمين بتدبير مؤامرة لاغتيال الرسول ﷺ، والقضاء على الوضع القائم فى المدينة وذلك بالاستعانة بالمنافقين بزعامة عبد الله بن أبى، واعتقدت أن تنفيذ هذه الجريمة سيقضى على قوة المسلمين المتزايدة ، ويتيح لها إعادة فرض سلطانها على المدينة. وقد بدأ الرسول ﷺ يشعر بهذا الموقف فى المدينة، لذلك فكر تفكير سياسى بعيد النظر، فرأى ألا شئ خير من أن يستدرج اليهود ليكشف عن نياتهم.

سنحت الفرصة للرسول ليكشف نيات يهود بنى النضير حينما قتل عامر بن الطفيل زعيم بنى عامر رجال الرسول ﷺالذين ذهبوا إلى منطقة نجد للدعوة إلى الإسلام فى بئر معونة إلى الشرق من المدينة، ونجا منهم رجل هو عمرو بن أمية الضمرى، الذى قابل فى طريقه رجلين من بنى عامر فقتلهما ثأرا بأصحابه، ولم يعلم أن الرسول ﷺ أعطاهما عهداً، واقتضاه ذلك أن يدفع ديتهما. فذهب الرسول ﷺ

إلى منازل يهود بنى النضير – وكانوا حلفاء لبنى عامر – فى عشرة من أصحابه منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة وعبد الرحمن بن عوف، وطلب إليهم أن يعاونوه فى دفع دية القتيلين، وأظهر اليهود الغبطة لقدومه إليهم والاستعداد للتعاون معه . ولكنه حين تبسط معهم وجلس إلى جوار بيت من بيوتهم إلى أن يأتوه بالمال، كان زعماؤهم يخططون لاغتياله بأن يصعد أحدهم إلى أعلى البيت فيلقى عليه صخرة تقتله، وأحس الرسول ﷺ بدقة ملاحظته روح التآمر فيهم، فقام يوهمهم أنه ذاهب لبعض حاجته ، وعاد إلى المدينة ، فأدرك اليهود أن تآمرهم انكشف.

ما كاد الرسول ﷺ يصل إلى المدينة، ويجتمع بأصحابه حتى أرسل إلى يهود بنى النضير أحد رجاله وهو محمد بن مسلمة الأوسى يطلب منهم أن يرحلوا من البلاد لنقضهم العهد وما هموا به من الغدر ويبلغهم أنه ﷺ يمهلهم عشرة أيام فمن رؤى بعد ذلك ضربت عنقه . وحينما تسلم بنو النضير هذا الإنذار أسقط فى أيديهم، وانهارت معنوياتهم، ولم يروا بدا من الرحيل فأخذوا يستعدون له، لكن عبد الله بن أبى – وهو رأس النفاق فى المدينة – أرسل إليهم يشجعهم على البقاء ويحرضهم على رفض الإنذار، ويمنيهم بالمساعدة إذا اقتضى الأمر، إذ قال لهم : «لاتخرجوا من دياركم وأموالكم، وأقيموا فى حصونكم، فإن معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصونكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم» . فتشجع اليهود وقرروا البقاء والمقاومة وبادروا إلى التحصن والاستعداد للحرب بدلاً من الرحيل، فرمموا حصونهم ونقلوا إليها الحجارة وشحنوها بالمؤن والذخيرة، ولما اطمأنوا إلى قوتهم وإلى القوة الخارجية التى وعدهم بها عبد الله بن أبى أرسل زعيمهم حيى بن أخطب إلى الرسول قائلاً : « إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك » .

وهنا نقف على أبواب مؤامرة خطيرة يدبرها اليهود والمنافقون فى المدينة : فها هم بنو النضير يأتمرون بالرسول ﷺ ليقتلوه غدراً، فلما انكشفت خطتهم أعلن المنافقون عن المؤامرة كاملة، فإذا جبهة متكاملة تعلن خروجها وتستعد للحرب، وتعلن فى صراحة أن لديها القوة الكافية من عشائرها ومن غيرها من العرب

الآخرين، وأن لديها الحصون والقلاع تحتمى بها، وأنها على استعداد لخوض غمار الحرب حتى الفناء.

إذن فقد كان تقدير الرسول ﷺ صادقاً وكانت شكوكه فى محلها : أن المدينة مهددة بالحرب الأهلية التى يثيرها اليهود والمنافقون ومن ينضم إليهم من الأعراب القريبين. وإذن فهو الخطر الداهم الذى لو سكت عليه لكان فى ذلك القضاء على دولته، فقد أصبح الأعداء يحيطون بها من الداخل والخارج . ولكى يتغلب على هذا الموقف فلا بد من العمل السريع الحاسم ، ولابد من شجاعة وشدة يتذرع بها المسلمون.

وأسرع الرسول ﷺ فحاصرهم، واشتبك معهم فى القتال عشرين يوماً أظهر فيها اليهود كثيرا من البسالة، واستماتوا فى الدفاع عن حصونهم ودورهم، ولم ينسحبوا من دار إلا بعد أن ييأسوا من الدفاع عنها فيخربوها . وطال حصار الحصون حتى ظن المسلمون استحالة إخراجهم منها، فأمر الرسول ﷺ بقطع نخيلهم وتحريقها حتى ييئسهم من فائدة المقاومة أو يضطرهم للخروج لقتال المسلمين فى معركة مكشوفة.

أما عبد الله بن أبى ومن معه فقد استطاع الرسول ﷺ أن يحول بينهم وبين الاتصال باليهود بأن أحكم الحصار، فلم يجرؤ عبد الله على التقدم لتنفيذ وعده لليهود، وأذهلته وأصحابه القوة التى واجه بها المسلمون الموقف، وملأ الرعب نفوسهم حينما رأوا الرسول ﷺ يأخذ اليهود بالشدة فيحرق بيوتهم ويقطع نخيلهم وينكل بهم، لذلك جبنوا عن أن يتقدموا للمشاركة فى القتال بعد أن حيل بينهم وبين الوصول إلى حصون اليهود. ويئس اليهود من عونهم ، وخارت قواهم بعدما أثر فيهم تكتيك الأرض المحروقة أثرا بالغا؛ إذ ما كادوا يرون الدخان يتصاعد من جذوع نخيلهم حتى تملكهم الفزع، فطلبوا مصالحة الرسول ﷺ ، فصالحهم على الخروج لكل ثلاثة منهم بعير واحد يحملون عليه ماشاءوا من مال وطعام وشراب ليس لهم غيره.

وارتحل اليهود فى ربيع الأول سنة أربع من الهجرة، فمنهم من نزل بخيبر ومنهم من ارتحل إلى الشام، وتركوا للمسلمين وراءهم مغانم كثيرة من غلال وسلاح،

ولكن الأرض التى تركوها كانت أفضل ما غنم المسلمون وأنفع، فقد جعلها الرسول ﷺ للمهاجرين دون الأنصار الذين لم يجدوا فى صدورهم حرجا وآثروا بها المهاجرين، وبذلك استغنى المهاجرون عن معونة الأنصارفتحسنت الحالة الاقتصادية عند الطرفين . وأما المنافقون فقد ضعف أمرهم وذلوا بعد أن انكشف أمرهم ودمغوا بالجبن والعار ، ولم يعاقبهم الرسول ﷺ ، ولكنه لم يعد يفكر فى أمرهم كثيراً. وفى شأن بنى النضير وتآمر المنافقين معهم نزلت سورة كاملة من سور القرآن هى سورة الحشر.

**إجلاء بني قريظة ( ذو القعدة ٥هـ ):**

وبخروج بنى النضير ضعف شأن اليهود بالمدينة ، إذ لم يبق فيها من هذا العنصر الفاسد المناوئ للمسلمين سوى قبيلة بنى قريظة . ومع ذلك فقد بقيت لبنى النضير جولة أخرى سيدبرونها بتجميع الأحزاب ضد المسلمن ، وستكون وبالاً عليهم وعلى بنى قريظة على السواء. ذلك أن رجال بنى النضير الذين نزلوا فى خيبر استطاعوا أن ينالوا منزلة كبيرة فيها، وأن يغروا قريشا بحرب الرسول ﷺ وأن يجمعوا لها الأحزاب من القبائل العربية، حتى هاجموا المدينة بجيش قوى عدته عشرة آلاف فيهم قوة كبيرة من الفرسان، لكن الرسول ﷺ استطاع أن يتجنب قتال المواجهة ، ويوقف تقدم العدو بالخندق الذى حفره حول المنطقة التى يمكن منها اقتحام المدينة، وهى الناحية الشمالية والشمالية الغربية ، أما باقى الجهات فكان يصعب منها الهجوم، وأعانت بنو قريظة المسلمين بما قدمت من أدوات الحفر من مساح ( جمع مسحاة من ألات الجرف ) وكرازين ( جمع كرزن وهى الفأس ) ومكاتل ( جمع مكتل وهى القفة الكبيرة التى يحمل فيها التراب وغيره ) ، وتركت ناحية العوالى لم يخندق من ناحيتها اعتمادا على وجود حصونهم بها، إذ أن بنى قريظة بقيت على ولائها ولم يبد منها ما يكشف عن نية سيئة. ولم تستطع جيوش الأحزاب اجتياز الخندق، ولم يكن الوقت يسمح بالحصار الطويل إذ الوقت شتاء بارداً وليس للقوات المهاجمة من الاستعداد ما تتقى به البرد للقيام على حصار طويل ، لذلك تباحثوا فى خطة للظفر السريع أو الانسحاب ، وخاف حيى بن أخطب النضرى مجمع الأحزاب أن تفشل خطته ، فعمد إلى بنى قريظة يغريهم بفتح الطريق أمام جيوش الأحزاب ، ولم يقبل

كعب بن أسد زعيم قريظة فى أول الأمر أن ينقض عهده مع الرسول ﷺ، ولكن حييا مازال به يقول له « ويلك ياكعب. قد جئتك بعز الدهر وببحر طام : جئتك بقريش على قادتها وسادتها ، وبغطفان على قادتها وسادتها ، قد عاهدونى وعاقدونى على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه ، فرد عليه كعب بقوله : «جئتنى والله بذل الدهر، ويحك ياحيى فدعنى وما أنا عليه ، فإنى لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء». ولم يزل حيى به حتى نقض كعب عهده مع الرسول ﷺ ، بعدما أعطاه حيى عهداً وميثاقاً لئن رجعت الأحزاب ليدخلن معه حصنه فيصيبه ما أصابه.

بذلك خانت قريظة العهد وبدأت تتحرش بالمسلمين، وترسل رجالها لإخافتهم وتهديد حصونهم، التى كان فيها نساؤهم وذراريهم حتى تشغلهم عن مواجهة العدو. لكن الرسول ﷺ استطاع أن يبث بذور الشك بين رجال الأحزاب وأن يفرق بينهم، حتى فسدت نفوسهم واضطروا إلى رفع الحصار عن المدينة، وحينذاك هرع يهود بنى قريظة إلى حصونهم فزعين من المصير الذى ينتظرهم جزاء غدرهم وخيانتهم.

وما كاد الرسول ﷺ يتأكد من رجوع الأحزاب وجيوشها حتى أمر رجاله بحصار بنى قريظة، واندفع المسلمون يحكمون الحصار عليهم ليوقعوا الجزاء الطبيعى بقوم نقضوا عهدهم واتصلوا بالعدو وعرضوا الدولة للزوال. واعتصم اليهود بحصونهم فلم يستطيعوا أن يخرجوا منها ولو مرة واحدة للقاء المسلمين، على مدى خمس وعشرين ليلة، وحاول كعب بن أسد أن يغريهم بقتال المسلمين ولكن نفوسهم كانت ضعفت وقلوبهم خلعت،فقد رأوا مصير من كان أقوى منهم من قبائل اليهود، واضطر زعماؤهم عندما بلغ بهم الحصار ذروته أن يقوموا بمحاولات للحصول على ضمان من الرسول يحفظ لهم ماء وجههم، فعرضوا عليه استعدادهم للجلاء عن المدينة على الصورة التى تم بها إجلاء بنى النضير بعد معركة أحد، غير أن الرسول ﷺ رفض عرضهم ولم يقبل منهم سوى الاستسلام دون قيد أو شرط، فعاودوا عرضاً آخر بأن يسمح لهم بالجلاء والنجاة بأرواحهم مقابل أن يتركوا كل ما يملكون للمسلمين، وفاتهم أن جنايتهم أكبر من أن تغتفر وأنه لا عقوبة على الخيانة العظمى إلا الإعدام، كما فاتهم أنهم لم يقبلوا نصح الأوس حين ذهبوا إليهم يطلبون منهم التمسك بالعهد، وأنهم أهانوا زعيمهم سعد بن معاذ الذى بلغ به الحقد عليهم أن تمنى على الله ألا يميته قبل

أن يشفى صدره منهم، لذلك أصر الرسول ﷺ على قراره باستسلامهم غير المشروط، ولما أيقنوا بصدق إصرار الرسول ﷺ وعزم المسلمين على قتالهم أعلنوا استسلامهم ونزولهم على حكمه ، وفتحوا أبواب حصونهم ومعاقلهم، وألقوا سلاحهم، وشرعوا فى مغادرة الحصون فى ذى القعدة سنة خمس من الهجرة. فأمر الرسول باعتقال الرجال ووضعهم تحت الحراسة ، وأوكل مهمة الحكم عليهم إلى سعد بن معاذ، الذى حينما كلمه الأوس فى أن يحسن إليهم ، كما فعل الخزرج مع بنى قينقاع، رد عليهم قائلاً : « آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم ».

وأصدر سعد حكما تاريخياً فأمر بأن تقتل الرجال وكانوا نحواً من ثمانمائة ، وتسبى الذرارى والنساء وتصادر الأموال، ونفذ حكم سعد فقتل من الرجال كل من بلغ الحلم وسبيت الذرارى والنساء وقسمت الأموال. وقتل مع القوم حيى بن أخطب الذى وفى لكعب بن أسد بما شرط على نفسه. إن تبعة دم بنى قريظة تقع على رأس حيى وعليهم معه، فقد نقضوا العهد وعرضوا الدولة للضياع والمسلمين للفناء، وهو حكم داخل فيما نسميه الآن الخيانة العظمى. فلم يكن الرسول ﷺ قاسياً عليهم قسوة ليس لها ما يبررها، ولقد وفى لهم بعهدهم من قبل وأحسن إليهم، ولو استمروا على الوفاء لما أصابهم ما أصابهم.

وبالانتهاء من بنى قريظة انتهت كل المشاكل الداخلية فى المدينة، فقد انتهى أمر اليهود فيها، وخضع المنافقون وكانوا فئة قليلة، وبذلك أصبح الرسول ﷺ يعمل حر الإرادة مطمئنا إلى سلامة جبهته الداخلية اطمئنانا يكفل له أن يولى المجال الخارجى كل عنايته.

وهكذا انتهى الموقف العصيب الذى واجهته المدينة بنجاح تام غير ميزان القوى تغييراً تاما، وأتاح للرسول ﷺ أن يفكر فى خطوات يقضى بها علي اليهود فى نواحى شبه الجزيرة ليؤمن دولته من شرورهم.

**فتح خيبر *والقضاء* علي *اليهود* في جزيرة *العرب* :**

لقد كان يعادى الرسول ﷺ قوتان كبيرتان تلتف حولهما كل القوى فى شبه جزيرة العرب، فأما القوة الأولى فهى قريش فى مكة بما لها من نفوذ أدبى ومادى،

وأما القوة الثانية فهى قوة اليهود بما لها من نفوذ وذكاء وقدرة على الدس والوقيعة، وقد اتحدت مصالح القوتين على حربه والقضاء عليه. وقد استطاع الرسول ﷺ أن يثبت أمام القوتين، وأن يخرج قوياً من حربه معهما مجتمعتين ، حتى لقد أصبح زمام المبادأة فى يده، وقد استطاع ببعد نظره وحسن سياسته وما أظهر من مرونة وكياسة أن يعقد مع قريش عهد الحديبية ، فأمن به قريشاً وأمن الجنوب كله، ولكنه لم يأمن ناحية الشمال حيث تجمعت فلول اليهود فى خيبر، وأخذت تسعى لتأليف كتلة يهودية منهم ومن يهود وادى القرى وتيماء وفدك لغزو المدينة. وإذا كان اليهود قد استطاعوا تأليف الأحزاب حتى ساقوا لحرب المدينة عشرة آلاف مقاتل فى غزوة الخندق فليس ببعيد عليهم ولا ممتنع أن يستعينوا بقبائل الشمال، أو أن يستعينوا بقوى خارجية فارسية أو رومية لضرب المسلمين ضربة ساحقة نهائية. واليهود أشد من قريش عداوة للرسول والمسلمين لأنهم أحرص على دينهم من قريش، ولأنهم أكثر منها مكرا ودسيسة ، وليس من اليسير أن يوادعهم الرسول ﷺ بصلح كصلح الحديبية ولا أن يطمئن إليهم، وقد سبقت بينهم خصومات لم ينتصروا فى إحداها، فما أجدرهم أن يثأروا لأنفسهم إذا وجدوا فرصة مناسبة أو استطاعوا أن يستعينوا بقوى خارجية. وإذن فلابد من القضاء على قوة اليهود قضاء أخيراً حتى لا تقوم لهم من بعد قائمة ببلاد العرب، ولا بد من أن يسارع الرسول ﷺ إلى ذلك ، حتى لايتاح لهم الوقت للاستعانة بغطفان أو بغيرها من القبائل الموالية لهم والمعادية للمسلمين . وكذلك فعل فلم يقم بالمدينة بعد عودته من الحديبية إلا قليلا حتى أمر الناس بالتجهز لغزو خيبر. على ألا يغزو معه إلا من شهد ، الحديبية ، إلا أن يكون غازياً متطوعاً ليس له من الغنيمة شئ.

وقد حرص الرسول ﷺ على ذلك حتى لا يكون معه أحد غير مطمئن إلى قوة نفسه وسمو روحه، وبعد تفكيره عن الكسب المادى ، فليست الغنيمة قصده ، لأن ما ينتظره من قتال أمام حصون خيبر لاتثبت له إلا النفوس المطمئنة المؤمنة ، التى تسامت عن المادة والرغبة فيها ، فإن النفوس المتعلقة بالمادة لا تثبت أمام الامتحان العسير، ولقد كانت تجربة الأحزاب كافية ليدرك الناس أن النفوس لا تباع رخيصة أمام متاع الحياة، فإن غطفان وغيرها من الأعراب يوم الأحزاب لم يثبتوا على

حصار المدينة، فقد كانوا يريدون غنيمة سهلة، فلما لم يستطيعوا تحقيقها، أو لما بدا لهم أن تحقيقها أمر يحتاج إلى الصبر وبذل النفس، تضعضعت قلوبهم وتفرقت كلمتهم ، ورضوا أن يعودوا من الغنيمة بالإياب، والرسول ﷺ لايريد أن يضم إلى صفوفه مثل هؤلاء الناس من طلاب الغنيمة، وهو يتوقع الحصار الطويل والقتال أمام خيبر أشد القتال. لأنها ذات حصون ومزارع ونخل كثير، وسكانها غير مجتمعين فى صعيد واحد بل متفرقين فى الوديان المجاورة، ويقطنون بيوتاً حصينة وسط النخيل وحقول القمح .

انطلق المسلمون فى نحو ألف وستمائة ومعهم مائة فارس مسرعين نحو خيبر، فقطعوا الطريق بينها وبين المدينة فى ثلاثة أيام، لم تكد خيبر تحس بهم أثناءها حتى باتوا أمام حصونها، وذلك فى المحرم سنة سبع من الهجرة.

على أن يهود خيبركانوا يتوقعون من جانبهم أن يغزوهم الرسول ﷺ، لذلك كانوا دائمى النشاط والتدبير، ولقد عرض بعضهم أن يسارعوا إلى تكوين كتلة يهودية منهم ومن يهود وادى القرى وتيماء، ويهاجموا المدينة مستميتين دون اعتماد على البطون العربية التى فشلت من قبل فى اقتحامها، وعرض آخرون أن يدخلوا فى حلف مع الرسول ﷺ لعل ذلك يمحو ماثبت من كراهيتهم فى نفوس المسلمين والأنصار منهم بنوع خاص، بعد ما قاموا به من تأليب العرب للقضاء على المدينة. لكن النفوس من الجانبين كانت ملأى، حتى لقد سارع المسلمون قبل الخروج إلى خيبر بقتل « سلام بن أبى الحقيق » و « اليسير بن رزام » من زعماء خيبر تمهيداً للغزو، وحرمانا لليهود من زعيمين كبيرين لهما رأى وتدبير، ولما كان اليهود على اتصال دائم بغطفان إذ كانوا حلفاء دائمين لهم ، لذلك استعانوا بهم أول ماترامى إليهم اعتزام المسلمين غزوهم، ولكن الرسول ﷺ كان سريعاً إلى الحيلولة دون اتصال غطفان باليهود ، فقد سارعت جيوش المسلمين فحالت بين غطفان وبين خيبر بأن نزلت فى موضع يحول بينهما، كما أن الرسول ﷺ وعد غطفان بشئ من الغنيمة إن تم له النصر على اليهود، وكانت غطفان آنذاك قد بدأت تعيد النظر فى موقفها من معاداة الرسول ﷺ بعد الأحزاب، وبعد أن تأكد لديها أن الموقف قد تحول إلى جانبه وبخاصة بعد الحديبية حيث سالمته قريش، فلم يكن زعماء غطفان جادين فى معاونة

خيبر، ولم يعودوا حريصين على الارتباط بها، كذلك كانت القبائل العربية كلها فى منطقة الحجاز ونجد قد بدأت تنظر إلى الموقف نظرة جديدة، وكان موقفها من غزوة خيبر موقف تربص وانتظار لما تسفر عنه نتيجة المعركة. فلقد انتصر الرسول ﷺ على قريش وثبت لها ولكل طائفة من حلفائها ، وأجبرها آخر الأمر على قبول الأمر الواقع وتوقيع صلح الحديبية. ومهما بدت قريش فى ثوب من العزة بأن حالت بين الرسول ﷺ وبين دخول مكة، فإنها قد انكشفت حين اشترطت على نفسها أن تخلى له مكة فى العام القادم ثلاثة أيام ليطوف بالبيت فيها، ولم يبق من عدو شديد البأس غير خيبر ذات الحصون المنيعة.

ولما كانت جموع اليهود فى خيبر من أقوى الطوائف اليهودية بأسا وأوفرها مالا وأكثرها سلاحاً، وأعظمها دربة على القتال. لذلك وقفت شبه الجزيرة كلها متطلعة إلى هذه الغزوة حتى لقد كان من قريش من يراهن على نتائجها، ولمن سيتم النصر فيها، وكان كثيرون يتوقعون أن تدور الدائرة على المسلمين، لما عرف من قوة حصون خيبر وقيامها على الصخور والجبال، ولطول ممارسة أهلها للحرب والقتال، وكان المسلمون يدركون هذا الموقف تمام الإدراك، ويقدرون نتائجه حق التقدير؛ لذلك ذهبوا مستقتلين لايعرف التردد سبيلاً إلى نفوسهم، وكان الرسول ﷺ يدرك أنه لو فشل أمام خيبر لتغير ميزان القوى من جديد، وربما حدثت نكسة أعادت لأعدائه قوتهم وحماستهم لقتاله والهجوم عليه، ثم إنه كان يدرك أنه طالما بقيت لليهود شوكة فى شبه جزيرة العرب فستظل المنافسة بين دين موسى والدين الجديد حائلاً دون تمام الغلب له ، وحائلاً دون تمام الوحدة التى يعمل لها ويسعى لإقرارها، ومن أجل ذلك حرص على ألا يدخل فى صفوفه رجل يخشى أن ينخذل أو يشيع الضعف فى نفوس المسلمين، مع أنه كان يستطيع أن يزيد عدد جيشه لو أباح لراغبى الغنيمة من الأعراب أن ينضموا إلى صفوفه. فقد كان فتح خيبر يبشر بمغنم كبير، لكنه ما كان يهتم بكثرة العدد الذى لاغناء فيه، وإنما كان يريد جيشاً مؤمنا بأهدافه مقدراً للظروف، موطناً النفس على الصبر والشدة، يريد سيوفاً تحركها قوة النفس وتمنعها عزة الإيمان أن تغمد أو تنتصر، ولا يريد سيوفاً يسلها جشع النفس ثم يغمدها الحرص على الحياة. وكان جيش الرسول ﷺ كما أراده ، قليلاً بعدده كثيراً بإيمان رجاله وثبات نفوسهم وتصميمهم على الوصول لأهدافهم .

كانت خيبر مكونة من ثلاث مناطق حربية وكل منها مكون من عدة حصون: منطقة الوطيح والسلالم وفيها أدخل اليهود أموالهم وعيالهم، ومنطقة الكتيبة التى أدخلوا فيها ذخائرهم، ثم منطقة النطاة وفيها دخل المقاتلة رجال الحرب، لأن فيها أقوى الحصون وأمنعها، ولذلك دار حولها القتال الأول بينهم وبين المسلمين.

كان هجوم المسلمين عنيفاً واستبسل اليهود استبسالا عظيماً فى الدفاع ، ولم يرتدوا عن شبر من الأرض إلا بعد قتال شديد عنيف ، لأنهم كانوا يدركون أن سقوط خيبر معناه القضاء على العنصر اليهودى بأكمله فى شبه الجزيرة العربية قضاء مبرماً ، واستمر القتال أياماً عديدة حتى قلت المؤن عند المسلمين وأجهدوا إجهاداً شديداً، مما جعل الرسول ﷺ يتجه إلى حصون الوطيح والسلالم، لأن بها الأموال والمؤن اليهودية، وفى هجمات قوية استطاع أن يوفر لرجاله ما هم فى حاجة شديدة إليه من التموين بفتح بعض الحصون مثل حصن الصعب بن معاذ فقد وجدوا فيه كثيراً من التموينات ، أغنت المسلمين ومكنتهم من مواصلة القتال. وبعد قتال عنيف سقطت حصون خيبر وسلمت منطقة الكتيبة منها دون قتال، ووقع كثير من السبى والغنائم فى أيدى المسلمين .

وعندما تم للمسلمين الفتح، وتوقفت الأعمال القتالية فى شهر صفر، لم يجل الرسول ﷺ أهل خيبر عنها ، بل أبقاهم للقيام على زراعة أرضها مناصفة لأنه لم يكن لديه من العمال الزراعيين من يقوم على زراعة أرضها، وكانت منطقة غنية خصيبة، ولاشك أن اليهود أقدر على زراعتها والقيام على استثمارها، ثم أن الرسول ﷺ كان فى حاجة إلى رجاله ، لأن الدولة كانت لا تزال محفوفة بالمخاطر وفى أشد الحاجة إلى كل قادر على حمل السلاح. كما أنه لايصح أن تترك مثل هذه الأرض الخصبة بدون استغلال بينما الدولة فى حاجة إلى المؤونة والمال. ثم إن القوة اليهودية قد قضى عليها بعد هذا النصر، ولم تعد لها شوكة يخاف منها، فقد أذعن يهود فدك وتيماء وقبلوا دفع الجزية دون قتال، أما يهود وادى القرى فقد فتحت بلدهم عنوة، فعاملهم الرسول ﷺ معاملة يهود خيبر، وبذلك دانت اليهود كلها لسلطان الرسول ﷺ وانتهى كل ما كان لهم من سلطان فى شبه الجزيرة . وقد أقام يهود خيبر على زراعة أراضيهم بشطر ما يخرج منها من ثمر أو زرع حتى عهد عمر بن

الخطاب، إلى أن وقعت منهم خيانة وغدر لبعض المسلمين، فأجلاهم عمر إلى الشام بعد أن استشار الصحابة فى ذلك.

وبانتهاء سلطان اليهود تغير الموقف نهائياً لصالح المسلمين ، وتفرغ الرسول ﷺ ليتم خطته فى إحكام الحصار حول مكة، والحقيقة أن مكة بعد غزوة خيبر أصبحت كالثمرة الناضجة تستعد للسقوط.

هذه هى المتاعب التى واجهت الرسول ﷺ فى جبهته الداخلية فى المدينة ، وقد تغلب عليها كما رأينا بالحذر واليقظة والحزم ، وزاوج فى التغلب عليها بين اللين والشدة حتى استقامت له الأمور ، وكان انتصاره فى خيبر له دلالة هامة، إذ امتدت أملاك الدولة الاسلامية إلى خارج المدينة، وأصبحت تدر عليها خيراً ، كما أصبح يخضع لها لأول مرة قوم على غير الاسلام عرفوا بأهل الذمة، شملهم السلطان السياسى للدولة الإسلامية .

# الفصل الرابع

## الصراع بين المدينة ومكة

كانت قريش في مكة ومن ارتبط بها من قبائل العرب هم خصوم الدولة الاسلامية الخارجيون ، وقد عملت قريش منذ هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة على إحباط مشروعاته فيها، وذلك بالاتصال بالطوائف المناوئة له في الداخل لا سيما اليهود، كما عملت على كسر شوكة دولته بانتهاك حرمة أراضيها، ثم بالهجوم عليها بمشاركة القبائل الموالية لها، وذلك بدفعها إلى الإغارة على أطراف الدولة أو بالمشاركة في جيوش قريش. لكن لما كان موقف هذه القبائل مرتبطاً بمصالحها، فكان من الممكن تحويلها من جانب إلى آخر حسب مصالحها، ولذلك فلم يكن موقفها ثابتاً، ومن هنا استطاع الرسول ﷺ تدريجياً أن يحولها إلى جانبه، حتى إذا مامضت ثماني سنوات كان موقف القبائل قد تعدل نهائياً لصالحه . وفي كل أدوار هذا الصراع استخدم الطرفان المتنازعان - أي المدينة ومكة - كل ما يملكان من قوة مادية وأدبية، وكان النصر معقوداً لمن يستطيع أن يتفوق على الآخر في توجيه الأمور توجيها سليما، مبنياً على إدراك قوي للموقف الداخلي والخارجي في المدينتين، وعلى فهم طبائع النفوس وتوجيهها لمصلحته.

فحين أنشأ الرسول ﷺ دولته في المدينة، كان يدرك أن عدوه الأكبر هي قريش، وأنها لن تتردد في مناوأته ، ولن تصبر طويلاً على دولته التي أنشأها على طريق تجارتها إلى الشام؛ لأنها قدرت مقدار مايتهددها من خطر تزايد هجرة المسلمين إلى المدينة وإقامة دولة إسلامية فيها، إذ كان ذلك يعني انتقال جزء من رأس مالها مع المهاجرين إلى المدينة، فضلاً عن انتقال الخبرة التجارية إليها، مما سيهيئ للمدينة أن ترث دور مكة التجاري. وقد استشعرت قريش منذ وقت مبكر ما سيترتب على هذا الوضع من نتائج ستجر إلى الحرب بين البلدين ، ولذلك فما أن علمت ببيعة العقبة الكبرى، حتى ذهب رجال قريش إلى منازل أهل المدينة بمنى ، صبيحة يوم البيعة يهددونهم إذ قالوا لهم : « يامعشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم »، ومع أن الخزرج أنكروا ما كان من أمر البيعة حقنا للدماء وتفاديا للشر، وخرجوا يريدون بلدهم، فقد تحرش بهم القرشيون وتعقبوهم وقبضوا على أحدهم وكادوا يفتكون به.

كان الرسول ﷺ يدرك هذا كله، وأن الصدام مع مكة قادم لامحالة ولاسبيل إلي تحاشيه، فتعامل مع هذا الوضع بحكمة بالغة وسياسة محكمة، واتخذ من الاجراءات ما يؤكد لقريش أن احتفاظها بمكانتها الاقتصادية لن يتأتى إلا بمهادنة للدولة الإسلامية الجديدة والاعتراف بالوضع الجديد. وقد تمثلت هذه الاجراءات فى أنه وضع بنداً خاصاً بقريش فى الصحيفة معتبرا إياها عدو المدينة الأول، وحرم على أهل المدينة أن يجير أى منهم مالاً لقريش أو نفساً ؛ وأعقب هذا الاجراء فوضع خطة تمكنه من تقليم أظافر قريش بعزلها عن أحلافها من القبائل العربية الضاربة على جنبات الطريق بين مكة والمدينة؛ وعقد معها سلسلة من المحادثات والمحالفات؛ وبذلك حرم قريش من الاستعانة بهذه القبائل أو اللجوء إليها. ولم يكتف الرسول ﷺ بذلك وإنما حرص علي بث السرايا على طول الطرق الرئيسية التى تمر منها قوافل قريش بتجارتها إلى الشام، بهدف أن يشعرها بمدى يقظة المسلمين وقوتهم وإمكانيتهم على تهديد التجارة القرشية. وقد استوعبت قريش هذا المغزى وردت عليه بتطوير الحراسة على قوافلها وتكثيفها، وتسيير دوريات بأعداد أكبر من قوة المسلمين. ومع أن هذه الدوريات كانت تتقابل وتتوقف دون أن يحدث بينها أى تحرش أو قتال؛ إلا أن الوضع كان ينذر بوقوع الصدام فى أى لحظة.

وقد جاءت اللحظة حينما خرجت سرية كان يقودها أحد المهاجرين وهو عبد الله بن جحش فى ثمانية من الرجال، على رأس سبعة عشر شهراً من هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، واتجهت إلى مكان يعرف ببطن نخلة بين مكة والطائف، ولم يكن من أغراض هذه السرية القتال وإنما اقتصرت مهمتها على استطلاع حال قريش والوقوف على أخبارها، فقد خلت أوامر الرسول إلى السرية من أى إشارة إلى قتال، ثم إن عدد أفرادها كان قليلاً، الأمر الذى يقطع بأن مهمتها كانت استطلاعية محضة. لكنها لقيت قافلة صغيرة لقريش قادمة من الطائف تحمل خمراً وأدماً وزبيباً ؛ فتصرف رجال السرية على مسئوليتهم وهاجموا القافلة، وقتلوا رجلاً من رجالها وأسروا رجلين؛ وذلك فى آخر يوم من شهر رجب من السنة الثانية للهجرة ، وهو من الأشهر الحرم التى تحرم العرب فيها القتال.

انتهزت قريش هذه الفرصة للتشهير بالرسول والمسلمين، وإظهارهم بمظهر

المعتدى الذى لا يرعى الحرمات، فقامت بدعاية كبيرة لإثارة الرأى العام العربى. وكان لدعايتها صدى كبير وأثر ملموس حتى بين المسلمين أنفسهم فى المدينة، فقد كثر الجدل والنقاش بينهم، وأنكروا على رجال السرية الحرب فى الشهر الحرام، وقالوا لهم صنعتم ما لم تؤمروا به وقاتلتم فى الشهر الحرام، ودافع هؤلاء عن أنفسهم بأن ما حدث كان فى أول يوم من شعبان . ورفض الرسول ﷺ أن يتسلم العير والأسيرين وقال لرجاله « ماأمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » واشتد الموقف ودخلت اليهود تريد إشعال الفتنة. وهنا نزل القرآن الكريم يرد على دعاية قريش بقوله تعالى : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ». وهكذا أقر القرآن هذا العمل وخرج المسلمون من المأزق بنزول القرآن بهذا الأمر، وقبض الرسول العير والأسيرين حتى افتدتهما منه قريش.

كانت هذه السرية مفترق طرق فى سياسة الإسلام ، فقد أجاب القرآن الكريم على تساؤل المشركين عن القتال فى الشهر الحرام ، ويقرهم على أنه أمر كبير لكن هناك ما هو أكبر منه، فالصد عن سبيل الله والكفر به أكبر من القتال فى الشهر الحرام، والمسجد الحرام - الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا - وإخراج أهله منه أكبر من القتال فى الشهر الحرام، وفتنة المرء فى دينه بالوعيد والإغراء والتعذيب أكبر من القتل فى الشهر الحرام وفى غير الشهر الحرام. وقريش والمشركون الذين ينعون على المسلمين القتل فى الشهر الحرام لايزالون يقاتلون المسلمين حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا، فإذا كانت قريش تعتبر القتال فى الشهر الحرام من الكبائر، فماذا تقول عن ارتكابها لهذه الكبائر كلها : تصد عن سبيل الله وتكفر به ، وتخرج أهل المسجد الحرام منه وتفتنهم فى دينهم، وتحبس الضعفاء وتعذبهم؟ إنه لاجناح على من تقع عليه مثل هذه الكبائر إن هو قاتلها فى الشهر الحرام. ومن هنا شرع الجهاد فى الاسلام، ونزل قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير »إلى آخر الآية. وقوله : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين » وقوله : واقتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فإن

انتـهوا فلا عـدوان إلا على الظالمـين»، وقوله أيضا : «واقتلوا المشركين كـافة كـما يقاتلونكم كافة»، إلى غير ذلك من الآيات .

كما كانت هذه السرية مفترق طرق فى سياسة المسلمين إزاء قريش، فقد بدأوا بعدها يفكرون تـفكيراً جدياً فى وقفها عند حدها، واتخاذ موقـف الشدة الصريح معها، بوقـف اعتداءاتها على حـدود دولتهم، بعد ما لم يبق فى مصانعتها أو الاتفاق معها رجـاء. وبذلك دخل الصراع بين الطرفين مرحلة أشد حسما، واتسعت الهوة بينـهما، وتسابقا فى الاستعداد والتخطيط بهدف أن يقضى كل منهم على خصمه، ونشبت بينهما سلسلة من الاشتباكات الحربية الهامة، كانت غزوة بدر الكبرى فاتحتها.

**غزوة بدر ( رمضان سنة ٢ هـ / مارس ٦٢٤م ):**

كانت هذه الغزوة تـعبيراً واضـحاً عن الحرب الاقتصادية التى أعلنها الرسول ﷺ على قريش، ، حينما تيقن من عزمها على تـحدى دولته بتمرير تجارتها عبر أراضيه، منتهكة بذلك حق السيادة اليثربية. وكان عليه أن يقف منها موقفاً حازماً يحـفظ به حدود دولتـه ويصـون كـرامـتـها، وإلا تـعرضت للمـهـانة فى الداخل وفى الخارج، فقد كان على حدودها قبائل لم توادع الرسول بعد، وهى على علاقات طيبة بقريش وترى فى تفوقهـا مـصلحـة ، أمـا الوضع الداخلى فى المدينة فكان مـضطرباً بوجود اليهود الذين دأبوا على الوقيعة بين الرسول والمسلمين.

انتهز الرسول ﷺ خروج أبى سفيان فى أوائل الخريـف من السنة الثانية للهجرة فى تجارة كبيرة لقريش يقصد الشام ، وخرج وراءه لاعتراض قافلته، لكن أبا سفيان فاته فعزم الرسول ﷺ على انتظاره فى عودته، وإلى أن تحين فرصة انصرافه من الشام بعث الرسول ﷺ عيونه يتقصون خبره، ثم ندب المسلمين للخروج، وخرج على رأسهم من المدينة لثمان خلون من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة (فبراير سنة ٦٢٤م). وكانت عدة من خرج معه إلى هذه الغزوة سبعة عشر وثلاثمائة رجل ، منهم ستة وثمانون من المهاجرين وواحد وستون من الأوس والباقون من الخزرج ، وانطلقوا مسرعين خوف أن يفلت منهم أبو سفيان، وهم يحاولون حيثما مروا أن يقفوا على أخباره.

أما أبو سفيان، فكان قد اتصل به خروج الرسول ﷺ لاعتراض قافلته حين رحلتها إلى الشام، فخاف أن يعترضه المسلمون حين أوبته، فجعل من ناحيته يتجسس أخبارهم ، فلما ترامى إليه خبر خروجهم، استأجر رجلاً من قبيلة غفار بعثه مسرعاً إلى مكة ليستنفر قريشا لنجدة أموالها. ولم تكن قريش فى حاجة إلى من يستنفرها، فقد كان لكل منها نصيب فى هذه القافلة، حتى قدر ما فيها بخمسين ألف دينار، وهو مبلغ عظيم فى ذلك الوقت ، ثم إنها كانت معتزمة إيقاف نشاط المسلمين وضربهم.

على أن أمر قريش بمكة لم يكن جميعاً نحو سياسة العدوان التى اتخذتها نحو الرسول ﷺ والمسلمين، فقد كانت هناك طائفة تشعر بما ظلمت به قريش المسلمين من أهلها حتى اضطرتهم إلى الهجرة، وكانت هذه الطائفة تتردد بين النفير والقعود، كما أن العصبية العشائرية كانت تفعل فعلها ، فبنو هاشم فى مكة كان هواهم مع الرسول، وكذلك كان بنو عبد مناف جميعاً، وهم وإن سايروا إجماع القبيلة كانوا يودون لو يترك أمر الرسول للظروف العامة، فإن انتصر على العرب كان ذلك فخرهم، وهم لذلك كانوا مترددين لم ينشطوا للخروج والاستعداد له نشاط باقى البطون القرشية. وقد بدت روح العصبية العشائرية هذه واضحة فيما كان من اختلاف بين موقف عتبة بن ربيعة بن عبد شمس من بطن عبد مناف وموقف أبى جهل بن هشام من بنى مخزوم ، إذ كان الأول يريد تجنب القتال وكان الثانى يتهمه بممالأة ابن عمه محمد ، وينفث على بنى عبد مناف أن تكون فيهم نبوة ورياسة، وهكذا لم تكن قريش تؤمن بسلامة موقفها إيماناً يذكى روحها المعنوية ويشعرها بسلامة القضية التى تقاتل من أجلها، ومن أجل ذلك لم يشترك من بنى عدى أحد فى القتال، كما رجع بعض بطونها مثل بنو زهرة فلم يشهدوا القتال، هذا إلى جانب ما كان بين زعماء قريش من الخلاف والتحاسد تحاسداً جعل وحدتها مفككة أمام عدوها، ولكنها مع ذلك كانت معتدة بقوتها مزهوة بعدتها.

أما المسلمون فقد انطلقوا حتى إذا كانوا قرب وادى بدر – وهو وادى به آبار ومياه وكان موسما للعرب ومحطة تجارية تنزلها القوافل فى ذهابها وعودتها إلى الشام –توقعوا لقاء القافلة هناك، لكن الوضع ما لبث أن تغير فقد عرف أبو سفيان

خروج المسلمين ونزولهم على ماء بدر، فساحل بقافلته وأفلت ، وأصبح المسلمون وهم ينتظرون قدومه فإذا الأخبار تصلهم أنه فاتهم ، وأن الذين على مقربة منهم هم مقاتلة قريش، التى خرجت من مكة لتنقذ عيرها. وإذ ذاك تغير وجه المسألة، فلم يبق هؤلاء المسلمون أمام أبى سفيان وعيره والثلاثين أو الأربعين رجلاً معه، وإنما هى مكة خرجت كلها وعلى رأسها أشرافها للدفاع عن تجارتها، وإرغام المسلمين على الاعتراف بقوتها وقدرتها على تمرير هذه التجارة فى أراضيهم رغم أنفهم. فلم تعد الغنيمة إذن هى التى تنتظر المسلمين وإنما هوالقتال، والقتال شديد غير متكافئ ، فقريش جاءت بعدتها وعتادها فى ثلاثة أضعاف من الرجال وما يفوقهم خمسين ضعفا من الخيل؛ ولذلك كان على المسلمين أن يوطنوا أنفسهم على الشدة وأن ينتظروا موقعة حامية الوطيس ، لايكون النصر فيها إلا لمن ملأ الإيمان بالنصر قلبه.

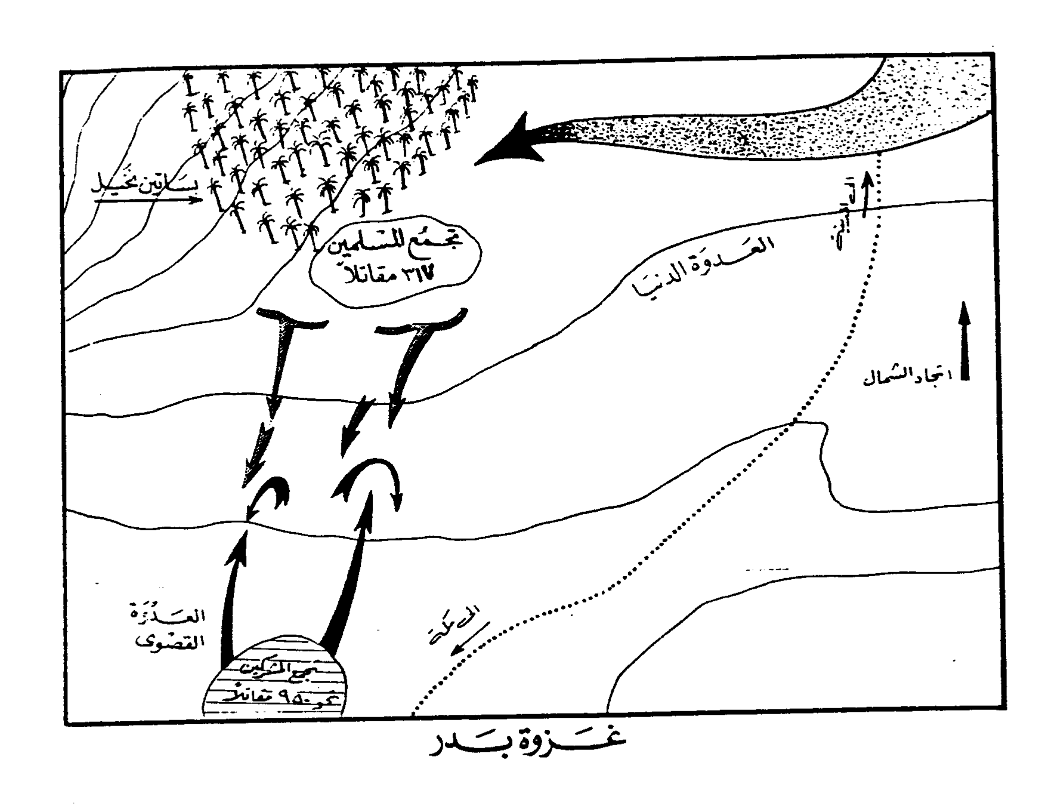
لقد أصبح الموقف بالنسبة للرسول ﷺ غاية فى الحرج والدقة، فلقد خرج ليواجه تجارة وحامية قليلة، ولم يأخذ للحرب أهبتها، ولم يتزود بما يكفى من عتاد وسلاح. وهب أن المسلمين أدركوا أبا سفيان وتغلبوا على رجاله، واستاقوا إبله وما عليها، فلن تلبث قريش أن تدركهم، يحفزها حرصها على مالها، وتؤازرها كثرة عددها وعتادها، وأن توقع بهم وأن تسترد الغنيمة أو تموت دونها. ولكن إذا عاد الرسول إلى المدينة من حيث أتى طمعت قريش وطمع يهود المدينة فيه ، واضطر إلى اتخاذ موقف المصانعة، واضطر أصحابه إلى احتمال أذى اليهود والمشركين معهم بالمدينة مثلما احتملوا من أذى قريش فى مكة .. ثم ماذا عن الدولة الجديدة وسيادتها وحدودها؟ إنها سوف تهدد تهديداً خطيراً قد يذهب بحرمتها ويجعلها غرضاً للمعتدين ، بل قد يقضى عليها نهائياً. وهيهات إن هو وقف هذا الموقف أن تعلو كلمة الله.

عند ذلك استشار الرسول ﷺ أصحابه وأوضح لهم الموقف، فأدلى كبار المهاجرين برأيهم ، وأظهروا طاعتهم واستعدادهم للتضحية مهما عظمت . لكنه كان يريد أن يطمئن من موقف الأنصار لأنها المرة الأولى التى يشتركون فيها فى قتال بحيث أنه لما قال : « أشيروا على أيها الناس » أدرك سعد بن معاذ - زعيم الأوس وحامل لواء الأنصار فى هذه الغزوة - أن الرسول ﷺ يريدهم ، فقام يجيب عنهم

وقال « لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول ﷺ لما أردت فنحن معك، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبر فى الحرب صدق فى اللقاء، لعل الله يريك منا ماتقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله »، فسر رسول الله بقول سعد ونشطه ذلك للقاء قريش، فقال « سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم ». وبهذه المشاورة وهذا التصريح من زعيم الأنصار اطمأن الرسول ﷺ إلى موقفه، وضمن اتحاد طرفى الصحيفة - المهاجرين والأنصار - على سياسة واحدة تجاه الأوضاع الخارجية التى أصبحت منذ ذلك اليوم تطبق تطبيقاً عملياً، ولم يعد الرسول ﷺ بعد ذلك فى حاجة إلى التفكير فى موقف أهل المدينة تجاه سياسته الخارجية، وتدعم بذلك مركز الدولة إلى حد كبير.

أما قريش فما حاجتها هى الأخرى إلى القتال وقد نجت تجارتها ؟ أليس خيرا لها أن تترك المسلمين يرجعون من رحلتهم بخفى حنين ؟ هكذا فكر أبو سفيان ولذلك أرسل إلى قريش يطلب إليها الرجوع، وهو يتخوف على قومه من لقاء المسلمين، ويشاركه فى هذا التخوف كثير من زعماء الجيش المكى، فلقد خرج سادات قريش جميعاً إلى القتال ، فلو أصابهم المسلمون فظفروا بهم قتلاً أو أسرا ، فماذا يكون الحال فى مكة، وإلى أى مدى تبلغ المصيبة ؟ إن قريشاً تقدم على قتال قوم فى بلادهم بغيا عليهم، وعلى قتال قوم قد ظلموا وأوذوا فى أنفسهم وأموالهم وأخرجوا من ديارهم بغير حق ، وهم جميعا يتحدثون عن الموت حديثهم عن الحياة الخالدة الناعمة وأنهم لينتظرون من ورائه جنة عالية ونعيماً مقيماً، فهم إذن قوم مستميتون مستقتلون ، يحفزهم الإحساس بالظلم ويدعوهم النعيم الذى ينتظرهم، وليس أشد بأساً فى القتال من مؤمن مظلوم.

وهكذا كانت الروح المعنوية فى كل من الجيشين حين تقدما للقتال. واستطاع الرسول ﷺ أن يسبق عدوه إلى الميدان، وبذلك اختار لرجاله أفضل المواقع، حيث




غــزوة بــدر

استدبر الريح ليكون هبوبها في وجه العدو؛ كما اتخذ موقفه بحيث لا تواجه الشمس أعين رجاله؛ ثم عدل صفوف قواته، وبث فيهم الحمية وبشرهم بالنصر وبأن الملائكة ستشد أزرهم، وقد أظهر المسلمون منتهى النظام والطاعة والتفانى فى محبة قائدهم، وبذلك عوضوا النقص فى عددهم وعدتهم؛ إذ لم يكونوا يزيدون عن ثلاثمائة وسبعة عشر مقاتل. أما قريش فمع كثرة أعداد قواتها فإنها لم تحسن اتخاذ مواقعها، كما كانت الفرقة تسود قوادها، ولم يستطيعوا جمع أمرهم على واحد يلزمهم طاعته، وما لبثوا حين اصطدموا بالمسلمين أن بطش بهم هؤلاء بطشة شديدة، وتيمموا رؤساء قريش يقاتلونهم ويأسرونهم، فارتبكت صفوفهم وولوا منهزمين بعد أن تركوا فى ميدان القتال سبعين قتيلاً ، كان منهم معظم زعماء مكة كأبى جهل بن هشام ، كما تركوا فى أيدى المسلمين سبعين أسيرا ، وتركوا كثيراً من أمتعتهم وأموالهم ودوابهم وقعت غنيمة فى أيدى المسلمين. وهكذا كانت هزيمة تامة ساحقة لقريش فى يوم الجمعة السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة .

وتعد معركة بدر، على صغرها وقلة الجيوش المتقاتلة فيها من المعارك الحاسمة فى التاريخ ، فقد استقر بها أمر المسلمين فى جزيرة العرب، وثبتت دعائم دولتهم التى كانت مقدمة لتوحيد شبه الجزيرة العربية بعد سنوات قلائل، ثم مقدمة لامبراطورية إسلامية مترامية الأطراف ، كانت من أعظم ما عرف التاريخ من امبراطوريات حيث أقرت فى العالم حضارة لاتزال ذات أثر عميق فى حياة الإنسانية.

تركت بدر أثاراً عميقة بمكة والمدينة على السواء ، فأما فى مكة فقد عادت قريش مهزومة مخذولة، قد قتل سادتها وأسر كثير من رجالها وفيهم عدد من ذوى المكانة. وقد تركت الهزيمة فى نفوس القرشيين حرصا شديداً على الثأر من الرسولﷺ والمسلمين يوم تتهيأ لهم الفرصة لهذا الثأر، وقد حرصوا على أن تكون فرصة الثأر قريبة، حتى أنهم أخذوا يعدون لها العدة قبل أن تخمد نارها فى الصدور، فما كادت ترجع حتى اجتمع رجالها فى دار الندوة فاتفقوا على التنازل عن أرباح قافلة أبى سفيان، ووقفها على إعداد جيش قوى لغزو الرسولﷺ والثأر منه ، وقد قدر

الربح وحده بخمسين ألف دينار وهذا مبلغ كبير فى تلك الأيام ، ثم أنها أخذت تعد أحابيشها - وقد سموا بذلك على اسم جبل بأسفل مكة يقال له حبيش - وتتصل بحلفائها ، وبيهود المدينة ممن امتلأت نفوسهم حقدا على الرسول ﷺ وقلوبهم خوفا من علو أمره.

أما أثر بدر فى المدينة ، فقد كان أوضح وأكثر اتصالا بحياة الرسول ﷺ والمسلمين معه : فقد شعر اليهود والمشركون وكذا المنافقون بعد بدر بمزيد قوة المسلمين، ورأوا هذا الرجل الذى جاءهم فارا من مكة منذ عامين يزداد سلطانا، ويكاد يكون صاحب الكلمة فى أهل المدينة جميعاً. وكان اليهود قد بدأ تذمرهم من قبل بدر وبدأت مناوشتهم للمسلمين، ولم يحل دون انفجار العداوة بين الطرفين إلا عهد الموادعة الذى كان بين الفريقين . على أنه ما كاد المسلمون يعودون منتصرين من بدر حتى جعلت طوائف اليهود وغيرهم تتغامز وتأتمر، وأخذت تغرى بهم وترسل الأشعار فى شتمهم والتحريض عليهم. وهكذا انتقل ميدان الثورة من مكة إلى المدينة ، غير أنه لم تعد هنا دعوة الرسول ﷺ هى وحدها التى تحارب، وإنما هو سلطانه ونفوذ كلمته وعلو أمره الذى أصبح موضع الخوف وسبب الائتمار به والتفكير فى اغتياله؛ وماكان الرسول ﷺ لتخفى عليه خافية من هذا كله. وأخذت النفوس من جانب المسلمين ومن جانب اليهود تمتلئ بالضجر والضغينة شيئاً فشيئاً ، وجعل كل فريق يتربص بالآخر.

وكان المسلمون إلى يوم بدر يخشون مواطنيهم يهود المدينة ، فلا يستطيعون رد الاعتداء بالشدة على من يعتدى عليه منهم، فلما عادوا منتصرين امتلأت نفوسهم بالجرأة، ووجدوا أن مصلحتهم تقتضيهم رد العدوان وتأديب المعتدين، وإلقاء الرعب فى قلوب من تحدثهم أنفسهم بإفساد أمور الدولة الاسلامية الناشئة فى المدينة، فقتلوا بعض اليهود الذين كانوا يحرضون على الدولة ويتصلون بالعدو وعلى رأسهم شاعر بنى النضير كعب بن الأشرف، الذى أخذ يرسل الأشعار فى هجاء المسلمين والتحريض عليهم، وذهب إلى مكة يرثى أصحاب القليب ( وهو البئر الذى ألقى فيه الرسول ﷺ قتلى قريش يوم بدر ) ويحرض قريشا على المسلمين ، حتى فاضت نفوس

المسلمين بالغيظ منه، لذلك أمر الرسول ﷺ بقتله وبقتل من يظفر به المسلمون من اليهود ممن هم على شاكلته. كذلك تمكن المسلمون من أن يخرجوا إحدى قبائل اليهود من المدينة وهم بنو قينقاع عندما تحدتهم وأظهرت العداء ، وكانت هذه القبيلة اليهودية تساكن المسلمين بداخل المدينة، وكان وجودها يشكل خطراً على كيان المدينة لو هددت بهجوم خارجي وحدثتهم نفوسهم بالخيانة، وحين خلت المدينة فى داخلها من هذه الطائفة اليهودية، دب الخوف فى قلوب الطوائف الأخرى، وأصبحت أقدر على مواجهة احتمال الهجوم الذى كانت قريش تستعد له لتثأر ليوم بدر.

**غزوة احد ( شوال سنة ٣ هـ/ مارس ٦٢٥م ):**

بدت الحالة الداخلية هادئة فى المدينة بعد النصر الذى أحرزه المسلمون فى بدر، وبعد إجلاء بنى قينقاع فانكمشت الطوائف الأخرى من غير المسلمين، وخفتت أصوات المعارضة، خاصة بعد مقتل اليهود المحرضين على المسلمين، وفزع اليهود وذلوا بعد أن أهدر الرسول ﷺ دماء كل من تحدثه نفسه بالفتنة منهم. وكان من الممكن أن يستمر هذا الهدوء فترة طويلة لولا أن أبا سفيان بمكة لم يطق صبرا على عار بدر، ويظل قابعاً فى مكة دون أن يعيد إلى أذهان العرب أن قريشا لاتزال لها قدرتها على الضرب والغزو، خاصة وأنه قد نذر ألا يمس رأسه ماء من جنابة – أى لا يأتى النساء – حتى يغزو محمداً . لذلك ما لبث بعد شهر أن جمع مائتين من رجال مكة وخرج بهم مستخفين، حتى إذا ما وصلوا منطقة المدينة ليلاً نزل على بنى النضير فى حصن زعيمهم سلام بن مشكم، حيث «قراه وسقاه وبطن له من خبر الناس»، أى أطلعه على أسرار المسلمين، ثم خرج فى عقب ليلته هذه فأغاروا على ناحية العريض بأطراف المدينة فحرقوا بها بيتين ونخلا، ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفا له يعملان فى حرث لهما فقتلوهما، ثم انصرفوا راجعين. وحينذاك ندب الرسول ﷺ أصحابه فخرجوا فى إثر أبى سفيان، حتى بلغ بهم قرقرة الكدر على بعد نحو أربعة وعشرين ميلا من المدينة ، وأبو سفيان ومن معه جادون فى الفرار يتزايد خوفهم فيلقون ما يحملون من زادهم من السويق ( وهو نوع من الدقيق المعجون بالعسل أو اللبن أو السمن )، فإذا مر به المسلمون أخذوه ، ولذلك سميت هذه الغزوة : «غزوة السويق»، وهكذا انقلب فرار أبى سفيان عليه بعد أن كان يحسب أن الغزوة ترفع من شأن قريش بعد مصاب بدر.

أما القبائل المحيطة بالمدينة - وبخاصة التى تنتشر على جانبى طريق التجارة - فقد بدأت ترى ما يتهدد مصالحها من تزايد قوة المسلمين، ومن تعادل هذه القوة وقوة مكة تعادلاً تخشى نتائجه، فقد أصبح طريق الشاطئ وهو الطريق المعبد المعروف مهدداً، وأصبحت تجارة قريش إلى الشام معرضة للتوقف التام ، فإذا حدث هذا فإن هذه القبائل تتعرض لخسارة اقتصادية شديدة؛ خاصة وأن القبائل التى تعيش قريباً من الساحل حالفت الرسول ﷺ فزاد بذلك تهديده للطريق التجارى، وأما القبائل الأخرى فقد ملأ الرعب قلوبها بعد بدر، وإن كانت قد حاولت التجمع للنيل من المدينة تحت تحريض قريش فى محاولات لم تصمد فيها، لكنها كانت ماتكاد تسمع بخروجه إليها حتى تنخلع قلوبها وتتفرق فى رءوس الجبال ومسالك الصحراء .

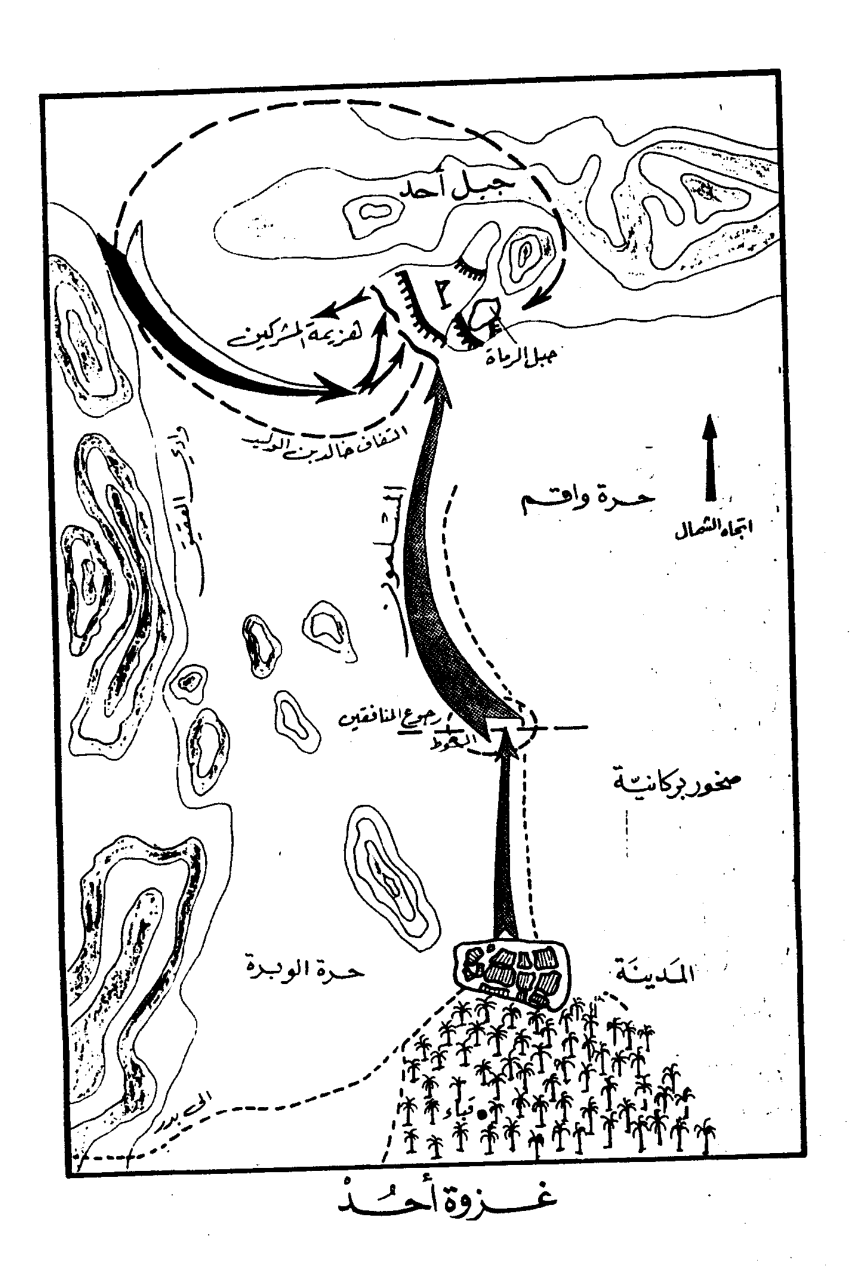
وكان على قريش أن تحاول إيجاد وسيلة للتخلص من هذا الحصار، وإلا تعرضت لشر ما تتعرض له مدينة تعيش على التجارة مثل مدينتهم، وقد عبر صفوان ابن أمية عن ذلك حينما وقف يوماً يقول لقريش : « إن محمداً وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا، فما ندرى كيف نصنع بأصحابه وهم لايبرحون الساحل، وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه، فما ندرى أين نسلك، وإن أقمنا نأكل رءوس أموالنا ونحن فى دارنا هذه ما لنا بها بقاء، وإنما نزلناها على التجارة إلى الشام فى الصيف وفى الشتاء إلى أرض الحبشة » ، لذلك قرروا أن يسلكوا طريق العراق، وبعثوا قافلة تبلغ قيمتها مائة ألف درهم، ولكن الرسول ﷺ ماكاد يعلم بأمرها حتى أرسل إليها سرية بقيادة زيد بن حارثة اعترضتها عند ماء من مياه نجد يسمى « القردة » فى جمادى الآخرة من السنة الثالثة للهجرة ( أكتوبر ٦٢٤م)، ففر الرجال واستولى المسلمون على الأموال ، وأسروا دليل القافلة الذى أسلم حين وصل إلى المدينة وأقام بها.

زاد هذا الحادث قريشاً حنقاً على الرسول ﷺ وطلبا للثأر منه ، فإنها إن لم تثأر لكرامتها من هزيمة بدر، وإن لم تفتح لنفسها طريق التجارة إلى الشام، هوت مكانتها الاقتصادية والأدبية إلى حيث لاتقوم لها بعد ذلك قائمة . لذلك أخذت تعد نفسها وتتصل بالقبائل لتشاركها فى الهجوم على المدينة ، كما استنفرت من اتبعها من الأحابيش وأصرت النسوة من قريش على أن يسرن مع الغزاة يحمسنهم ويحفظنهم

ويذكرنهم بقتلى بدر، وخرجت قريش فى الخامس من شوال ومعها عدد من نسائها بلغن نحواً من سبع عشرة، وعلى رأسهن هند بنت عتبة زوج أبى سفيان قائد الحملة، وكانت أشدهن على الثأر حرقة إذ قتل أبوها وأخوها وعمها يوم بدر. وكانت عدة الجيش ثلاثة آلاف مقاتل مزودين بأفضل ما قدروا عليه من عدة وسلاح يمتطون ثلاثة آلاف بعير ومائتى فرس، ومن بين رجالهم سبعمائة دارع، وقصدوا المدينة فى ثلاثة ألوية عقدت فى دار الندوة. فلما أجمعوا على المسير كتب العباس بن عبد المطلب إلى الرسول ﷺ يصف له جمعهم وخروجهم إليه. كذلك خرج وفد من خزاعة – وكانت تميل إلى الرسول وتخلص له – فأخبروه الخبر. ولما اقتربت قريش من المدينة أطلقت خيولها وإبلها ترعى زروعها المحيطة بها ثم تقدمت فنزلت بجوار جبل أحد فى الثانى عشر من شوال .

عقد الرسول ﷺ مجلسا عاما دعا إليه أهل الرأى من المسلمين ومن المتظاهرين بالاسلام، وجعلوا يتشاورن كيف يلقون عدوهم، وكان رأى كبار الرجال من أهل التجربة أن يتحصنوا بالمدينة ويقاتلوا فيها، لكن الشباب من المسلمين أخذتهم الحماسة ورأوا فى بقائهم بالمدينة أمرا قد تعده قريش وتفهمه قبائل العرب نوعا من الجبن عن لقاء العدو فيكون ذلك مجرئا غيرهم عليهم ، وأرادوا أن يحققوا نصرا مثل الذى حققه المسلمون يوم بدر، وناصرهم على هذا الرأى رجال سمت روحهم الدينية فطلبوا الشهادة أو يجاهدوا فى الله فيدحروا من كفر به. واشتد الجدل وظهرت الكثرة الواضحة فى جانب من يقولون بالخروج إلى العدو وملاقاته، فقال لهم الرسول ﷺ «إنى أخاف عليكم الهزيمة » ، ومع ذلك أبوا إلا الخروج، فلم يكن له إلا أن ينزل على رأيهم، لأن الشورى كانت أساس نظامه فى هذه الحياة إلا أن يكون وحيا يوحى من عند الله .

وحين دخل الرسول ﷺ بيته يلبس سلاحه ويتخذ عدة الحرب، اشتد الجدل بين القائلين بالتحصن فى المدينة وبين القائلين بالخروج، وقال لهم أولئك « لقد رأيتم رسول الله يرى التحصن بالمدينة فقلتم ما قلتم واستكرهتموه على الخروج وهو له كاره والأمر ينزل عليه من السماء، فردوا الأمر إليه، فما أمركم فافعلوه وما رأيتم له فيه هوى أو رأياً فأطيعوه ». وحينذاك تراجع الداعون إلى الخروج عن موقفهم، بعدما


جبل أحد
هزيمة المشركين
جبل الرماة
التفاف خالد بن الوليد
المسلمون
حرة واقم
اتجاه الشمال
رجوع المنافقين
صخور بركانية
حرة الوبرة
المدينة
قباء

غزوة أحد

أحسوا أنهم خالفوا الرسول إلى شئ قد يكون لله فيه آية . وحين خرج الرسول ﷺ فى عدة حربه ألقوا الأمر إليه ليبقى إذا أراد البقاء ، فقال « قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم، وما ينبغى لرسول إذ لبس لأمته ( عدة حربه ) أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه. أنظروا ما آمركم به فاتبعوه ، امضوا على اسم الله فلكم النصر ماصبرتم» . وهكذا وضع الرسول ﷺ إلى جانب الشورى مبدأى النظام والطاعة؛ فإذا تم للكثرة رأى بعد البحث والتفكير، لم يكن لها أن تنقضه لهوى أو لغاية بل يجب أن ينفذ الأمر، على أن يوكل التنفيذ إلى من يحسنه ويوجهه إلى حيث يتحقق له النجاح، وعلى الجماعة أن تلتزم الطاعة والنظام.

تقدم الرسول ﷺ بالمسلمين – وعددهم ألف – متجها إلى أحد حيث عسكرت قريش ، ورفض أن تنضم إليه كتيبة من اليهود كانوا حلفاء لعبد الله بن أبى سلول ، حذر أن تسبب الاضطراب فى نفوس الجيش، كما رفض أن يدعوا الأنصار حلفاءهم اليهود، وموقف اليهود مشكوك فيه بعد الذى ظهر من خيانتهم، وبعدما امتلأت به النفوس من حقد . وفى الطريق انخذل عبد الله بن أبى بثلث الناس عند مكان يدعى الشوط، وعاد إلى المدينة محتجا بأن الرسول خالف رأيه واتبع رأى الغلمان ممن لم يحسنوا استخدام الرأى. كما همت طائفتان أخريتان من الأنصار – هما بنو حارثة وبنو سلمة – أن تتراجعا متأثرين بتراجع عبد الله بن أبى ، وبقى الرسول ﷺ فى سبعمائة من المسلمين المؤمنين ليقاتلوا ثلاثة آلاف من أهل مكة كلهم موتور وكلهم على ثأره حريص.

وفى ساحة أحد اختار الرسول ﷺ لرجاله موقعا استراتيجيا قويا، فاحتمى بظهوره إلى جبل أحد وجعل العدو فى مواجهته، ووضع خمسين من الرماة وعليهم عبد الله بن جبير على مرتفع يقال له « جبل عينين » ، ليسدوا الطريق على خيالة قريش فلا تستطيع الالتفاف بجيش المسلمين، وشدد عليهم الأمر ألا يفارقوا مكانهم إن كانت للمسلمين أو عليهم، وأن ينضحوا خيل قريش بالنبل حتى لا تأتى الجيش من خلفه.

وفى تشديد الرسول ﷺ على الرماة ، وفى تراجع البعض عنه، وفى المناقشات

التى دارت قبل الخروج، ما يبرز أن جبهة المسلمين يوم أحد لم تكن متماسكة ،فقد رأيناهم غير موحدى الكلمة فى الاستعداد لمقابلة العدو والتهيؤ لخوض المعركة. لقد كانت كلمتهم موحدة فى بدر، وكانوا مثال الطاعة والنظام، والحرص على تنفيذ أمر القيادة، كما كانوا يقدرون قوة العدو ويدركون تفوقه عليهم، ويعدون أنفسهم للصبر والشدة، وتمتلئ نفوسهم مع ذلك باليقين بالنصر، والثقة بوعود الله أن تكون إحدى الطائفتين لهم، تجلى كل ذلك فى حماسة المهاجرين والأنصار، واستعدادهم ليخوضوا البحر وراء نبيهم إن هو استعرض بهم البحر.

وها هم فى يوم أحد تختلف كلمتهم، فمنهم من يرى البقاء بالمدينة والتحصن بها وهؤلاء هم الكبراء وأصحاب الرأى وعلى رأسهم الرسول ﷺ نفسه، ومنهم من يرى الخروج ومناجزة العدو حيث هو بظاهر المدينة وكان هؤلاء هم الأكثرية، وقد أنستهم حماستهم أن يقدروا قيمة العدو، ويعملوا حساباً لتفوقه العددى، وأن يدركوا ما تضطرب به نفسه من الحقد والحرص على الثأر ليوم بدر، ولم يتفهموا تحذير الرسول ﷺ لهم حين خاف عليهم نتيجة الاندفاع فى الحماسة والاستخفاف بقوة العدو. ومع ذلك فقد وضح أن هذه الحماسة كانت فورة غمرت النفوس ثم لم تثبت على محك الحوادث، ذلك أنهم ما كادوا يذكرون بأنه كان يجب عليهم أن يردوا الأمر للرسول ﷺ ، حتى تراجعوا عن موقفهم المتشدد فى الخروج. ولم يكن الموقف يحتمل التراجع من جانب القيادة، وإلا تعرضت الروح المعنوية العامة للانهيار نتيجة للتردد والتراجع فى اتخاذ القرار. وبرغم ما حرص عليه الرسول ﷺ من توحيد الصفوف على قرار واحد صدر عن الجماعة، وبرغم حرصه على المحافظة على الروح المعنوية عالية بين رجاله، وبرغم ما وعدهم به من النصر على العدو ما صبروا واستجابوا لروح الطاعة والنظام وتنفيذ أوامر القيادة، برغم كل ذلك فإنه ما كاد الجيش يخرج إلى ظاهر المدينة للقاء العدو حتى تراجع عبد الله بن أبى بثلث الناس مستجيبا لتحريض حلفائه من اليهود ، وحتى بعض المخلصين من المؤمنين اهتزت نفوسهم وتسرب الخوف إلى قلوبهم، وهمت طائفتان منهم أن تتراجعا. لقد أدرك الرسول ﷺ هذا الضعف بين صفوفه ، فحرص على إمداد رجاله بالصبر واليقين والاعتصام بالايمان والثقة فى نصر الله الذى أتاهم حين قاتلوا فى بدر وكانوا أقل من ذلك عددا وأضعف

عدة ، ونزل القرآن يثبت المسلمين ويصور موقفهم بقوله تعالى : « وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم، إذ همت طائفتان منكم أن تفشلاً والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون، ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون، إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين، وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » .

من ذلك ندرك السر فى تشديد الرسول ﷺ على الرماة ألا يبرحوا أماكنهم مهما يكن الموقف من نصر أو هزيمة، وتكرار هذا التشديد مع توضيح الموقف لهم ليدركوا أهمية محافظتهم على موقفهم بالنسبة لموقف الجيش كله، ثم إشهاده الله عليهم إثارة لإيمانهم لما يفرضه عليهم من طاعة تامة. ثم أنه لم يدخر وسعاً فى تنظيم رجاله تنظيماً عسكرياً بارعا ليعوضهم عن قلتهم، فتخير لهم أفضل المواقع استراتيجية فى ميدان القتال وسد الثغرات على العدو حتى لاينفذ من خلفهم، ثم إنه عمل على إثارة حمية رجاله وتنبيه روح البطولة فيهم، فقد مد يده بسيف وقال : « من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فتسابق إليه رجال فأمسكه عنهم، حتى قام أبو دجانة سماك بن خرشة أخو بنى ساعدة الأنصارى، فقال : وما حقه يارسول الله ؟ فأجابه : أن تضرب به العدو حتى ينحنى . وكان أبو دجانة رجلا شجاعا له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل، فأخرج عصابته واعتصب بها وأخذ السيف وجعل يتبختر بين الصفين على عادته إذ يختال عند الحرب، فلما رأه النبى يتبختر قال : «إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن » .

هكذا كانت الجبهة المدنية، أما الجبهة المكية فقد بدت فى هذا اليوم أكثر تماسكا، قيادتها موحدة وكلمتها واحدة، وحرصها على الثأر من المسلمين شديد ، وقد ظاهرها كثرة فى العدد وقوة فى التسليح ولديها قوة كبيرة من الفرسان ، وخلف الجيش النسوة يحفظن الرجال ويحمسنهم وكل واحدة منهن قد وعدت مولى لها بالخير الكثير إن هو أدرك لها الثأر من قتلة الأحبة.

وهكذا وقفت فى ميدان القتال قوتان غير متكافئتين فى العدد أو فى العدة ، يحرك القوة الكبرى ثأر لايهدأ من يوم بدر فى النفوس ثائرة ، ومركز أدبى ومادى أوشك على الانهيار. ويحرك الصغرى عامل الدفاع عن الوطن أن تنتهك حرمته، وعامل الدفاع عن العقيدة ودين الله. فأما المطالبون بالثأر فقد كانت تؤيدهم الكثرة والعدة وتدفعهم الحفيظة، وأما المدافعون فقد بدأ بعض الخلل فى صفوفهم، ولكن عوضته فى بداية المعركة مهارة القيادة ودقة التنظيم، وثورة الإيمان فى نفوس بعض أبطال المسلمين ممن سمت نفوسهم ، حتى ليرون ألا تقف قوة أمام سيوفهم، وكان هذا كفيلاً بأن يتم عليهم النصر ، لولا ذلك الخلل الذى وصل إلى بعض النفوس فأطمعها فى الدنيا وأغراها بحب العاجلة، فذهلت عن أمر نبيها فأفسدت على الفئة المؤمنة موقفها. فقد حمل المسلمون فى أول المعركة حملة شديدة على العدو، وتناولوا حملة لوائه بالقتل حتى قتلوا منهم أحد عشر على التوالى ، فتراجعت قوات قريش وانكشفت حتى دخل المسلمون معسكرهم، وكادوا يذيقونهم هزيمة أشد من يوم بدر، لولا أن شغلوا أنفسهم بالغنيمة يجمعونها، وخالف الرماة الأوامر المشددة فتركوا مواقعهم ونزلوا يشاركون فى جمع الغنائم، ظنا منهم أن الهزيمة قد تمت على العدو، وعند ذلك اهتبل الفرصة خالد بن الوليد قائد خيل قريش، فنفذ من الثغرة التى كان يسدها الرماة، ودار خلف جيش المسلمين وأوقع الخلل فى صفوفه، وعاد المنهزمون من قريش حين رأوا خيلهم تقاتل بين المسلمين، فألحقوا بهم هزيمة شديدة وقتلوا منهم سبعين رجلاً منهم عدد من الأبطال ، من بينهم حمزة عم الرسول ﷺ بطل ذلك اليوم، ووصل العدو إلى الرسول ﷺ نفسه بعد أن تفرق عنه رجاله منهزمين وأصابه بجراحات شديدة، وتعرضت حياته للخطر لولا أن دافع عنه رجال من المهاجرين والأنصار فدوه بحياتهم. وفشلت كل محاولة من الرسول ﷺ لرد هزيمةالمنهزمين وإعادة تسوية الصفوف ، فقد ابتلعت الكثرة من قريش هذا العدد القليل من المسلمين بعد أن فقدوا النظام واختلت الصفوف، وصار المسلمون ثلاث فرق، فرقة استمرت فى الهزيمة إلى قرب المدينة فما رجعت حتى انفض القتال، وهم الذين نزل فيهم قوله تعالى : « إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم » . وفرقة صارت حيارى حينما غاب الرسول ﷺ عن أعينها وأشيع أنه قتل؛ فصارت غاية الواحد منهم أن يدافع عن

نفسه أو يواصل القتال إلى أن يقتل وهم أكثر الصحابة. وفرقة ثبتت مع الرسول ﷺ وكانت نحوا من أربعة عشر رجلا، ثم تراجعت إليها الفرقة الثانية شيئا فشيئاً لما عرفت أن الرسول ﷺ حي؛ وفي تصوير هذا الموقف كله نزل القرآن الكريم يذكر الحكمة فيما أصاب المسلمين بمخالفتهم أمر الرسول، ويعرفهم سوء عاقبة المعصية وشؤم ارتكاب المخالفة فى قوله تعالى: « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون. منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة . ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين. إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم فأثابكم غماً بغم لكيلا تحزنوا على مافاتكم ولا ماأصابكم والله خبير بما تعملون » .

أما قريش فقد طارت بنصرها فرحا، وحسبت نفسها انتقمت أشد الانتقام ليوم بدر، حتى صاح أبو سفيان يخاطب المسلمين قائلاً : « يوم بيوم بدر والموعد العام المقبل » . ولقد أسرفت قريش فى نكايتها بالمسلمين وفى إظهار حقدها وتشفيها، فمثلت بالقتلى : جدعت الأنوف وصلمت الآذان وبقرت البطون، وبلغ الحقد بهند زوج أبى سفيان أن لاكت كبد حمزة عم الرسول ﷺ بعد أن بقرت بطنه وجدعت أنفه وصلمت أذنيه، واتخذت من هذه وغيرها من قتلى المسلمين قلائد وأقراطاً ومسكا (أساور)، وبلغ من شناعة مافعلت وفعل النسوة معها - بل ما فعل الرجال كذلك من الفظائع - أن تبرأ أبو سفيان من تبعتها وأعلن أنه لم يأمر به وإن لم يسخط على من فعله، فقال يخاطب المسلمين : « إنه كان فى قتلاكم مثل، والله ما رضيت وما سخطت وما أمرت وما نهيت » . وانصرفت قريش بعد أن دفنت قتلاها، ولم تشأ أن تهاجم المدينة فتحتلها وتقضى عليها، مكتفية بأن تنال من ثمار النصر أقربها وأيسرها، على ما جرت عليه العادة عند القبائل العربية فى حروبها .

فأما المسلمون فانصرفوا إلى المدينة وعلى رأسهم الرسول ﷺ بعد أن دفنوا قتلاهم ، والحزن يثقل نفوسهم لما أصابهم من هزيمة بعد نصر، ومن مذلة وهوان بعد ظفر عزيز لاظفر مثله، وذلك لاختلافهم ومخالفتهم أوامر الرسول ﷺ وانبعاثهم وراء عرض الدنيا، فى الوقت الذى يقاتلون فيه لإعلاء الحق وإقرار المثل العليا، فوصلوا المدينة فى اليوم الخامس عشر من شوال من السنة الثالثة للهجرة .

وكان على الرسول ﷺ بعد هذه الهزيمة أن يعالج الموقف من نواح متعددة ، فعليه أولاً أن يعالجه من الناحية النفسية عند المسلمين، خاصة وقد أوشكت الهزيمة أن تقتل الروح المعنوية فيهم وأوشك الشعور بالإثم أن يذل نفوسهم، ويصغر أقدارهم فى نظر أنفسهم، فقد خالفوا رأى رسولهم وكبار المسلمين، وأصروا على الخروج للقاء العدو وهم يتحرقون شوقاً للقائه وإلحاق الهزيمة به كما أذاقوه إياها فى بدر ، وهاهم الآن يذوقون مرارة الهزيمة نتيجة عصيانهم وفشلهم، ولقد كانوا يتمنون الموت ويطلبون الشهادة قبل لقاء العدو، فلما عاينوا الموت فروا منه وأزورت نفوسهم عن الشهادة ، بل إن بعضهم قال : « لو كان لنا من الأمر شئ ما قتلنا هاهنا »، ولقد كانوا يعتزون بأنهم جند الله يقاتلون لإعلاء كلمته وينتصرون بتأييده، فإذا الدنيا تصرفهم بعرضها عن غايتهم العظمى فيخسروا النصر الذى أوشكوا أن ينالوه، وما أدراهم أن الله لم يغضب عليهم لعصيانهم وطمع نفوسهم فيخسروا الآخرة أيضاً . لذلك كان على الرسول ﷺ أن يعالج هذه النفوس وإلا وصلت الهزيمة إلى حيث يصعب إقالتها من عثرتها. كما كان عليه أيضا أن يعالج الموقف الداخلى فى المدينة نفسها، فقد أخذت الطوائف الأخرى من أهل المدينة من اليهود والمنافقين تتقول القول السيئ فى الرسول ﷺ وراحوا يشككون فى نبوته، كما أخذ المنافقون يخذلون عنه أصحابه ويأمرونهم بالتفرق عنه. ولو بقيت هزيمة أحد هى الكلمة الأخيرة بين المسلمين وقريش لهان أمر الرسول ﷺ وأصحابه ، ولتضعضع سلطانه بالمدينة بعد أن أصبح صاحب الكلمة العليا فيها بعد بدر.

وماذا عن قريش؟ إنها لو رجعت بنصرها كما كسبته فلربما رجعت إلى المدينة فهاجمتها، والمسلمون مضعضعون من الهزيمة لم يستردوا أنفاسهم من آثارها. ولو أنها لم ترجع واكتفت بما نالت لكان المسلمون عرضة لاستخفافها وإرسال دعاية السخرية والاستهزاء بهم فى أنحاء الجزيرة كلها. ولئن حدث هذا لجاء فى أثره اجتراء القبائل على المدينة والاستخفاف بها ومهاجمتها .

**كان على الرسول ﷺ أن يعالج الموقف من جميع هذه النواحى :**

فأما من الناحية النفسية عند المسلمين ، فإنه عفا عن كل مسيئ فى المعركة ولم يحمل أحداً بعينه ممن حضرها نتائجها ، بل جعل المسئولية عامة. وهو ما أكد

عليه القرآن الكريم حينما نزل مواسياً للمسلمين معالجاً لجرح نفوسهم، مذكياً الروح المعنوية فيهم ، مذكراً إياهم بأن الحرب سجال والأيام دول، وأنهم لكى ينتصروا لابد أن تكون لديهم القدرة على مواجهة الهزيمة، فإن القدرة على تقبل الهزيمة أقوى أنواع الانتصار، ثم أثار القرآن فيهم العظة المستفادة من هذه المعركة حتى يستعدوا لما بعدها من أيام فقال تعالى : ، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين، إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين أمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لايحب الظالمين، وليمحص الله الذين أمنوا ويمحق الكافرين أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين، . وقال أيضاً : ، أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شئ قدير، وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين ، وقوله: ، ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما أتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، . وهكذا عاون القرآن الكريم فى شفاء نفوس المسلمين حتى عادت إليها سلامتها. كما حرص الرسول ﷺ على أن يرد إلى نفوس المسلمين شجاعتها ويشعرها ويشعر من حولها أنها لا تزال قادرة على الضرب والغلب ومواجهة العدو، وأن ماحدث فى المعركة إن هو إلا حالة عارضة لم تؤثر بأى حال من الأحوال على جوهر نفوس المسلمين ولا على شجاعتهم، وأن قوتهم الضاربة لاتزال قادرة على خوض غمار الحرب واستئناف القتال من جديد فى عزم وثقة بالنصر.

وأما من ناحية قريش، فقد أمر الرسول – كنوع من التحوط لرجوعها لضرب المدينة واحتلالها – فى اليوم التالى على يوم أحد بطلب قريش، على ألا يخرج معه إلا من حضر القتال. وتحامل المسلمون على جراحاتهم وقد استردوا روحهم المعنوية، فلم يتخلف منهم أحد ، وحتى من أثقلته جراحه لم يرد أن يفوته من أمر القتال شئ ، وأظهروا من الصبر والجلد وشجاعة النفس ما يعتبر مثلاً فذا فى تاريخ الحروب.

خرج الرسول ﷺ بهم حتى بلغ حمراء الأسد – على ثمانية أميال من المدينة – وكان أبو سفيان ورجاله قد وصلوا الروحاء – على سبعة وثلاثين ميلاً – وقد صدق

تقدير الرسول ﷺ ، فإن قريشاً قد تلاومت على ترك الفرصة تفلت من أيديها بعد أن أوقعت الهزيمة بالمسلمين فى أحد، فأجمعت على الرجوع قائلة : « أصبنا حد أصحابه (أى أصحاب الرسول) وأشرافهم وقادتهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم ؟ لنكرن على بقيتهم فلنفرغن منهم » . وأراد الرسول ﷺ أن يوهن نفوس المكيين ويضعف عزيمتهم ، فأوحى إلى رجل من خزاعة وهو معبد بن أبى معبد – وكانت خزاعة مسلمها ومشركها هواها مع الرسول ﷺ تناصحه وتود نصره – أن يخذلها عنه ويوهمها أن المسلمين قد خرجوا لقتالها وقد رجع إليهم من تخلف عن القتال واستعدوا استعداداً كبيراً ، وفعل الخزاعى ما كلف به فخارت عزيمة أبى سفيان وأجمع على الرجوع إلى مكة، ولكنه كلف نفراً من العرب كانوا فى طريقهم إلى المدينة أن يخذلوا المسلمين عن مطاردته ثم رحل عائدا إلى مكة. وبقى الرسول ﷺ مكانه ثلاثة أيام يوقد النيران ليعلم قريشاً أنه ينتظرها وليشعر القبائل بقوته وعزمه، ثم عاد إلى المدينة وقد استرد كثيراً من مكانة المسلمين وأعاد إلى نفوسهم كثيراً من شجاعتها واطمئنانها.

وحين عاد المسلمون من حمراء الأسد إلى المدينة وجدوها قد تنكر كثير من أهلها وإن بقى سلطان الرسول ﷺ فيها السلطان الأعلى ، فلقد رفع كثير من اليهود والمنافقين رءوسهم مستهزئين شامتين بالمسلمين ، ثم تجرأوا فأخذوا يدبرون المكائد ويحيكون المؤامرات ، حتى لقد تطور الأمر إلى حبك مؤامرة لقتل الرسول ﷺ نفسه مثلما أشرنا من قبل ، وكان من نتيجتها أن حاصر الرسول ﷺ قبائل اليهود من بنى النضير وأخرجهم من المدينة فى شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة.

كذلك بدأت القبائل العربية تتحرش بالمسلمين وتكيد لهم، وتجرأت فاستدرجت بعض رجالهم وقتلتهم أو باعتهم لقريش، مثلما حدث من بنى لحيان بالرجيع عام ٣هـ، ومن بنى عامر فى بئر معونة عام ٤ هـ ( ٦٢٥م ) . وأخذت بعض القبائل – مثل غطفان وخزاعة وغيرهما – تتجمع للإغارة على المدينة، لكن الرسول ﷺ كان دائم الحذر يحرص دائما على أن يعرف من أخبار القبائل ما يمكنه من تدبير أمره لاقرار هيبة الدولة فى نفوس هؤلاء البدو، وكان لايترك فرصة لهم للتجمع لغزوه ومهاجمته، بل كان يقظاً سريع الحركة مايكاد يسمع بتجمع أعدائه حتى يفاجئهم قبل

أن يستكملوا أمرهم، فيشتت شملهم ويلقى الرعب فى قلوبهم، فالهجوم عنده أقوى وسائل الدفاع وتحطيم قوة العدو قبل أن تكتمل أفضل من تركها تتجمع ثم الصمود لها. ولقد سار المسلمون على هذه السياسة التى رسمها الرسول ﷺ من بعده ، فلم يجعلوا أرض الاسلام ميدان قتال أبدا ، بل كانوا دائماً ينقلون خطوط القتال إلى أرض العدو نفسه حتى يشغلوه فى نفسه عنهم، ولم تصبهم الهزائم إلا بعد أن تخلوا عن خطة اليقظة واستكانوا للدعة والتواكل والانتظار.

وقد أتاحت هذه الظروف للدولة الاسلامية فرصة الاستقرار، كما أن إخراج بنى النضير واستيلاء المسلمين على أراضيهم ونخيلهم قد أدى إلى تحسن حالة المسلمين الاقتصادية فى المدينة ، فقد وزعت الأراضى على المهاجرين فاستقلوا بأمر معاشهم واستغنوا عن معونة الأنصار ، فتحسنت حالة الطرفين جميعاً، كما ضعف أمر النفاق وخفت قوة المعارضة الداخلية فى المدينة. وكانت الفترة التى تلت خروج بنى النضير فترة سكينة وطمأنينة استراح خلالها المسلمون ، واستطاعوا بعد أن استدار العام أن يخرجوا إلى بدر استجابة لوعد أبى سفيان يوم أحد ، لكن قريشاً لم تكن فى حالة من القوة تمكنها من الوفاء بوعدها ، فلم تذهب إلى بدر واكتفت بأن تتظاهر بالخروج وترسل تهدد المسلمين. وفى بدر استفاد المسلمون من تجارة الموسم فربحوا ؛ كما جدد الرسول ﷺ عهوده مع القبائل التى وادعته من قبل، وكان من نتيجة تخلف قريش وخروج المسلمين أن زالت آثار أحد واستقر سلطان المسلمين فى المنطقة، خاصة وأن الرسول ﷺ قام بعدة غزوات ضد القبائل التى كانت تتجمع لمهاجمة المدينة، مثل غزوة ذات الرقاع التى غزا فيها غطفان فى جمادى الأول عام ٤ هـ ؛ وغزوة دومة الجندل ضد الأعراب الذين تجمعوا فيها يريدون غزو المدينة فى ربيع الأول عام ٥هـ ؛ وغزوة بنى المصطلق ضد خزاعة فى شعبان من السنة ذاتها؛ وهى غزوات وطدت هيبة المدينة فى نفوس القبائل العربية المحيطة بها، كما مدت نفوذ الرسول ﷺ نحو الشمال حتى دومة الجندل، التى كانت المسافة بينها وبين دمشق حوالى مائة ميل.

وآن للرسول ﷺ بعد كل ذلك أن يستقر بالمدينة عدة أشهر متتابعة، وجد فيها

فسحة ليقوم بإتمام التنظيم الاجتماعى لهذه الدولة الاسلامية الناشئة فى دقة وحسن سياسة ، يوحى إليه ربه منه ما يوحى ويقر هو مايتفق وتعاليم الوحى وأمره، ويضع من تفاصيل ذلك ما كان موضع التقديس من أصحابه ليحملوه بعد ذلك للدنيا فيكون منارها وهاديها عدة قرون متتالية ، لتستقر بها حضارة لم يعرفها العالم من قبل.

لكن ترى أكان أعداء الرسول ﷺ تاركيه آمنا فى جماعته يضع لها هذا التنظيم دون أن يدخلوا معه فى جولة فاصلة يحشدون لها كل قوتهم، وما يستطيع أن يصل إليه مكرهم وكيدهم، ليقرروا مصيره ومصيرهم بعد هذا الصراع الدامى الذى أوشك أن يدمر كل قوتهم المادية والمعنوية، والذى رأوا نتائجه تتجه إلى مصلحة الرسول ﷺ، وتوشك أن تقر سلطان دولته فى هذه المنطقة الحيوية من شبه جزيرة العرب إقراراً نهائياً. وإذا كانت الجولة القادمة التى ستعد لها قريش لمنازلة المسلمين قرشية غطفانية أى عربية فى الشكل والمظهر ، فإنها كانت فى محتواها ومضمونها يهودية ، لأن الأيدى الحقيقية وراءها كانت بلا شك يهودية .

ذلك لأن اليهود الذين أخرجهم الرسول ﷺ من المدينة كانوا أبصر خصومه بتعاليمه وبتقدير مصير دعوته ، وكانوا أكثر تقديرا لما يصيبهم من انتصاره واستقرار دولته . ولما كانوا قد عجزوا عن القضاء عليه فرادى ، فقد فكر يهود بنى النضير وأهل خيبر فى تكوين جبهة قوية يجتمع لها كل الخصوم حتى تكون الجولة فاصلة مع الرسول ﷺ . وعلى هذا عقدوا العزم ، وأخذوا على عاتقهم تدبير هذا الأمر وإعداده ليكون يوم الأحزاب أو الخندق .

**غزوة الاحزاب ( شوال سنة ٥ هـ/ فبراير ٦٢٧م ) :**

اختمرت فكرة تأليب العرب على المسلمين فى المدينة فى نفوس اليهود من بنى النضير، الذين لجأوا إلى خيبر بعد إجلائهم عن المدينة ، وأرادوا لها أن تكون محاولة نهائية ومعركة حاسمة يخوضونها ضد الرسول ﷺ. وفى سبيل ذلك لم يدخروا جهداً من حيلة أو مكر أو مال، وحتى تعاليم التوراة داسوها فى سبيل هذا الغرض.

وتنفيذا لهذه الفكرة خرج نفر منهم فى أوائل شعبان عام ٤هـ، من بينهم حيى

ابن أخطب النضرى وسلام بن مشكم وسلام بن أبى الحقيق وأخوه كنانة، ومعهم جماعة من يهود خيبر، حتى قدموا على قريش بمكة يحرضونها على قتال الرسول، وعرضوا عليها خطة غزو المدينة ، وفكرة إنشاء تجمع عسكرى قبلى كبير ضد المسلمين. لكن قريشاً كانت قد بدأت تمل الحرب وبدأت جبهتها الداخلية تتضعضع، وأخذ الحصار الاقتصادى يؤثر فيها تأثيراً كبيراً، جعلها تفكر فى إعادة النظر فى موقفها تجاه الدولة الاسلامية التى أخذت عليها طريق تجارتها وأثبتت حتى الآن أنها قادرة على الثبات والنمو، لذلك بدت مترددة غير واثقة من سلامة موقفها، ومن إحراز النصر على المسلمين، فضلاً عن ارتياب قريش فى أمر اليهود لأن دينهم قريب فى جوهره من الإسلام وبعيد عن عبادة الأصنام دين قريش، وظهر ذلك جليا من أسئلتها التى وجهتها لليهود، فقد سألتهم أدينها خير أم دين محمد، وقد أجابها اليهود على ذلك بأن دينها خير من دينه وأنها أهدى منه وممن اتبعه. وبهذه الإجابة تنكر اليهود لمبادئ التوراة وكفروا بالوحدانية، جرياً وراء حقدهم ومصالحهم، وقد نعى القرآن عليهم هذا الموقف ودمغهم بالكفر وأوجب عليها اللعنة بقوله تعالى : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين أمنوا سبيلا، أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً».

وفى موقف اليهود هذا وتفضيلهم الوثنية على التوحيد يقول ولفنسون المؤرخ اليهودى : « كان واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا فى مثل هذا الخطأ الفاحش وألا يصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامى، ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطلبهم، لأن بنى إسرائيل الذين كانوا منذ قرون حاملى راية التوحيد فى العالم بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين، والذين نكبوا بنكبات لاتحصى من تقتيل واضطهاد بسبب إيمانهم بإله واحد فى عصور شتى من الأدوار التاريخية، كان من واجبهم أن يضحوا بحياتهم وكل عزيز لديهم فى سبيل أن يخذلوا المشركين، هذا فضلاً عن أنهم بالتجائهم إلى عبدة الأصنام إنما كانوا يحاربون أنفسهم بأنفسهم، ويناقضون تعاليم التوراة التى توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام والوقوف منهم موقف الخصومة ».

وعلى كل فقد انفرجت أسارير قريش بهذه الإجابة ، ولكنها أرادت أن تستوثق من خطة اليهود فسألت حييا عن قومه من بنى النضير فقال : « تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فتسيروا معهم إلى محمد وأصحابه » . ثم سألوه عن بنى قريظة فقال : « أقاموا بالمدينة مكرا بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معكم ». وما زال أعضاء هذا الوفد اليهودى بقريش يسهلون لها الأمر ويرغبونها حتى أخذوا وإياها موعدا بعد أشهر يكونوا قد جمعوا فيها الأحزاب من كل قبائل العرب. وهكذا ضمن الوفد اليهودى موافقة قريش على المخطط، وتم الاتفاق على تاريخ الغزو.

ثم خرج أولئك النفر من اليهود من عند قريش ليتموا جولتهم بتأليب باقى قبائل العرب، مثل غطفان وبنى مرة وفزارة وأشجع وسليم وبنى سعد وكل من له عند المسلمين ثأر، يحرضونهم على الأخذ بثأرهم، ويذكرون لهم مشايعة قريش إياهم على حرب المسلمين، ويحمدون لهم وثنيتهم ويعدونهم بالنصر لامحالة.

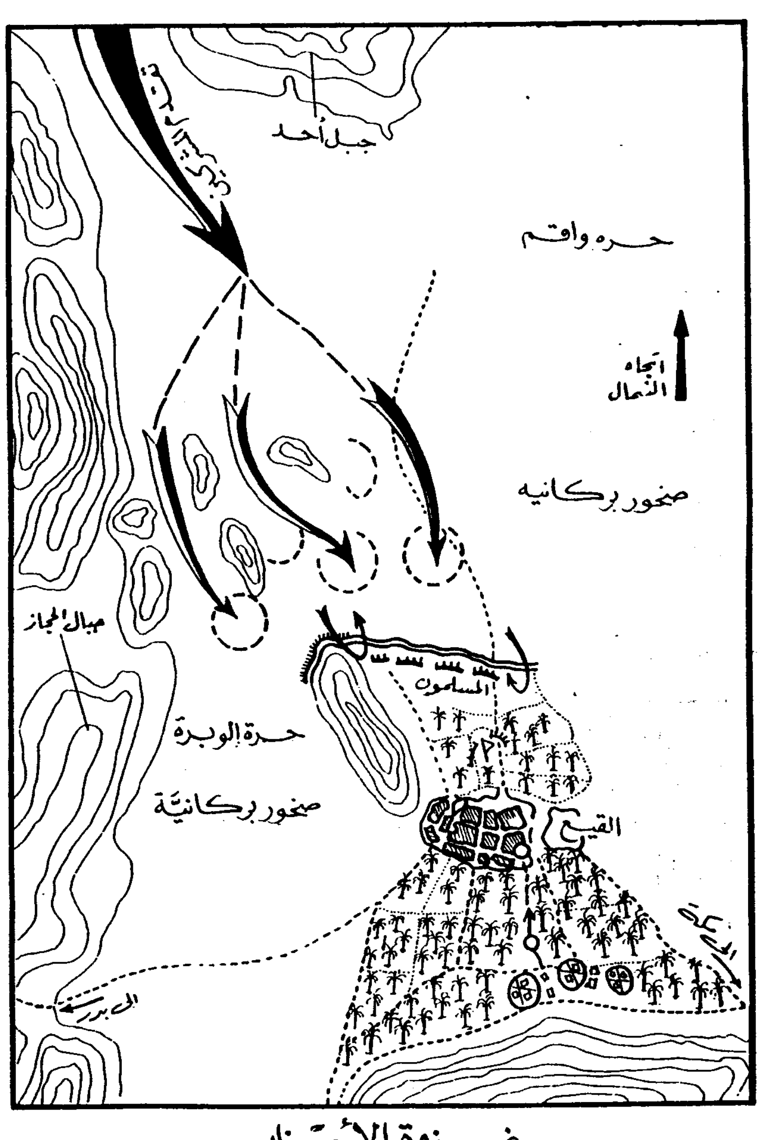
ولما جاء الموعد المضروب خرجت الأحزاب التى جمعها اليهود لحرب المسلمين. وقد بلغ جيشهم عشرة آلاف مقاتل مسلحين أفضل تسليح تملكه القبائل العربية فى ذلك الوقت ، ولديهم قوة كبيرة من الخيالة، وجعلوا القيادة العليا لأبى سفيان.

بلغت أنباء هذا المسير الرسول ﷺ والمسلمين فى المدينة ففزعوا له، إذ لم تكن المدينة تملك من القوة ماتستطيع به مواجهة مثل هذا الحشد الكبير، أو الالتحام معه فى ساحة مكشوفة غير مأمونة العواقب، وبخاصة إن بطونا لاتزال على شركها، ثم إن الرسول ﷺ لم يكن يطمئن تماما إلى بنى قريظة وهم القبيلة الباقية من اليهود بالمدينة بعد إجلاء بنى قينقاع وبنى النضير، ولم يكن يكفى التحصن بالمدينة وحدها ولابد من اتخاذ خطة أحكم لمواجهة الموقف ، وقد جاء الحل من اقتراح تقدم به سلمان الفارسى فقد أشار بحفر خندق فى السهل الذى يمتد شمال المدينة وشمالها الغربى وهو الجانب المكشوف الذى يخاف منه اقتحام العدو ويمكن أن تؤتى منه ، أما باقى الجهات فهى آمنة يصعب منها الهجوم ويسهل الدفاع. ووافق هذا الاقتراح هوى فى نفس الرسولﷺ لسببين : الأول أنه يعوق تقدم العدو فى هجوم هام ، والثانى أنه يبرز نية الرسول ﷺ السليمة ، فإنه لم يكن راغباً فى الحصول على مجد عسكرى

وإنما كانت الحرب عنده وسيلة لاغاية، فهو مع دقة تنظيمه ومهارته فى القيادة يريد تسويد مبدأ السلم مادام له عن القتال مندوحة. وكان تجمع كل هذه القبائل فرصة ليعلنهم جميعاً بنيته السلمية ، ولكن فى حيطة القائد وحذر المحارب، ولذا سارع فأمر بالبدء فى حفر الخندق . ومع أن رجالاً من المنافقين أبطأوا فى حفر الخندق، وأخذوا يتظاهرون بالضعف ويتسللون إلى أهاليهم بغير علم الرسول ﷺ أو إذنه ، فقد عمل المسلمون بجد فى ظروف صعبة للغاية، متمثلة فى شدة البرد وقلة القوت حتى أتموا حفر الخندق فى ستة أيام .

وحين أقبلت جموع العدو فوجئت بالخندق فاعترتهم الدهشة واستنكروا هذه الوسيلة التى لم تكن تعرفها من وسائل الدفاع، واتهمت المسلمين بالجبن، وقد وقف الرسول ﷺ بقواته من وراء الخندق وكانت عدة من معه ثلاثة آلاف على قول بعض المصادر وتسعمائة على قول بعضها الآخر ، أسندوا ظهورهم إلى جبل سلع ورابطوا على جانب الخندق بعقيدة المؤمن وثقة المطمئن ، بعدما أدخلوا الذرارى والنساء فى الحصون البعيدة ليكونوا بمأمن إذا اقتحم العدو المدينة. ولما لم تجد الأحزاب سبيلاً إلى اجتياز الخندق اكتفوا بتبادل الرمى بالنبال ريثما يفكرون فى خطة لمعالجة هذا الوضع الذى لم يتوقعونه.

استطاع حيى بن أخطب أن يؤثر على بنى قريظة حتى قطعوا حلفهم مع الرسول ﷺ واستعدوا لمعاونة الأحزاب بفتح الطريق أمام جيوشهم لتدخل المدينة من ناحية بنى قريظة وهى جهة لم يشملها الخندق، ولكن الرسول ﷺ استطاع بمهارة أن يبث الشك بين اليهود والأحزاب من ناحية، ثم بين طوائف الأحزاب بعضهم البعض من ناحية أخرى. فقد اتصل بغطفان عن طريق نعيم بن مسعود الغطفانى – الذى لم يكن أحد يعلم باسلامه – وفاوضها على التراجع نظير ثلث ثمار المدينة، وإذا كان هذا الاتفاق لم يتم فإنه ثبط همم الغطفانيين ، وألهب حماس الأنصار. ثم بذر الرسول ﷺ الشك بين اليهود والأحزاب إذ أتى نعيم إلى بنى قريظة وحذرهم من الاشتراك مع الأحزاب فى حرب ضد الرسول حتى يأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يبقونه فى أيديهم خشية أن تنسحب الأحزاب وتتركهم وحدهم، فقالوا له : لقد أشرت بالرأى. ثم خرج إلى قريش وأخبرهم بأن اليهود قد ندموا على ما كان منهم من




غـزوة الأحـزاب

نقض عهد الرسول، وأنهم سيطلبون من قريش رجالاً من أشرافهم يدفعونها إليه ليقتلهم؛ بحيث إنه حينما قرر أبو سفيان القيام بهجومه الكبيرفى ليلة السبت من شوال وأرسل إلى بنى قريظة ليستعدوا معه للقتال جاءه الجواب متخاذلا بأنهم لايستطيعون القتال يوم سبتهم، ثم طلبوا منه رهناً من رجاله، فتحقق له عزمهم على الغدر، فامتنع عن تحقيق مطلبهم ، وبذلك تصدعت جبهة العدو ودب الخلاف وتوجس كل منهم خيفة من صاحبه.

والواقع أن جبهة الأحزاب لم تكن تحتمل من يزيدها تفككاً، إذ كانت تحمل فى ثناياها عوامل التفكك، فقد كانت أغراض الحلفاء غير متفقة ، فقريش تريد أن تقضى على الدولة الاسلامية بالقضاء على الرسول والمسلمين، وغطفان إنما قدمت مأجورة إذ وعدها اليهود ثمار سنة من خيبر، والقبائل الأخرى جاءت مشايعة وليس لها غرض واضح، واليهود كانوا يبغون استعادة سلطانهم بالمدينة، وليس من غرضهم أن تقع المدينة فى يد قريش أو أى من القبائل الكبرى وإلا جروا على أنفسهم خصماً جديداً قد يطمع فى الاستيلاء على هذه المنطقة الخصيبة. ومن هنا كان التفكك بين صفوف الأحزاب، فوق أن وحدة القيادة لم تكن تامة فكل زعيم على رأس جماعته لا تخضع خضوعا مطلقا لقيادة أبى سفيان، فما كادت عوامل الشك والريبة تأخذ طريقها إلى قلوب الزعماء حتى انفض جمعهم، وأعانت الطبيعة على انهزامهم وتراجعهم، فقد كان الجو شتاء والبرد قارساً، وهبت عاصفة شديدة وهطلت الأمطار بما لاعهد لهم بمثلها، حتى بلغ من شدتها أنها كانت تكفئ قدورهم وتطرح أبنيتهم ، وأصيبوا بالبرد وماتت ماشيتهم، ورأى أبو سفيان أن المقام على هذه الحالة متعذر، ولذا خاطب جيشه قائلاً : يامعشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع، واخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره، ولقينا من شدة الريح ماترون، ما تطمئن لنا قدور، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإنى مرتحل، ثم قام إلى بعيره وهو معقول فركبه ثم مضى به.

وعلى هذا النحو انجفل الجميع راجعين إلى بلادهم. وبذلك نجت المدينة من خطر شديد كان يتهددها، وكان تراجع الأحزاب هزيمة تمت بدون قتال، والهزيمة

آتيـة لا عن طريق تحطيم الجـيوش المـعـادية وإنمـا عن طريق تـفكك وحـدتهـا وعن طريق بذر الشك بين رجـالهـا، حـتى لم يعـد فى الإمكان بعـد هذا اليـوم أن يتـجـمع خصوم المدينة على هذه الصورة. فقد أصبحت قريش تشك فى ولاء القبائل العربية ، كما أصبحت القبائل نفسها تشك فى قدرة قريش وفى إمكانها التغلب على المسلمين، لأنها كانت قد استنفدت كل طاقاتها وامكانياتها الاقتصادية ، وقد أدرك الرسول ﷺ ذلك تمام الإدراك حين قال « الآن نغزوهم ولا يغزوننا ونحن نسير إليهم» . كما أدرك رجاله هذا الموقف، ويتجلى ذلك فى قول سعد بن معاذ زعيم الأوس الذى جرح فى هذه المعركة : « اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فابقنى لها فإنه لا قوم أحب إلى أن أجـاهدهم من قـوم آذوا رسـولك وكـذبوه وأخـرجـوه، اللهم وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لى شهادة، ولا تمتنى حتى تقرعينى من بنى قريظة». وحين رجعت الأحزاب حاصر الرسول ﷺ بنى قريظة حتى استسلموا فأوقع بهم عقوبة الإعدام جزاء خيانتهم العظمى، وقرت بذلك عين سعد من بنى قريظة. وخلصت المدينة للإسلام وتخلصت من أعدائها الداخليين، فقد ذل النفاق فيها وأصبح المنافقون يخشون رفع رءوسهم، ولم يعد الرسول ﷺ فى حاجة كبيرة إلى التفكير فيهم.

أدى هذا الصراع المسلح بين المسلمين وقريش إلى نتائج هامة ، فلقد ضعفت جبهة مكة ضعفا ظاهراً، بعد أن استنفدت كل امكانياتها الحربية والسياسية، وأصبحت تجارتها فى حكم المتوقفة، فلحقتها لذلك أضرار مادية جسيمة، كما أن القبائل العربية بدأت تراجع موقفها بالنسبة لاستمرار تحالفها مع قريش أو التقرب للقوة الجديدة التى ظهرت فى المدينة واستطاعت حتى الآن أن تصمد لخصومها، وأن توقع بهم الهزائم وتحول الموقف إلى صالحها.

أما جبهة المدينة فقد ازدادت قوة وخصوصاً بعد أن أجلى الرسول ﷺ قبائل اليهود من المدينة كما أن النفاق قد ضعف ولم يعد يسبب للرسول ﷺ قلقاً، كذلك تحسنت الحالة الاقتصادية عند المسلمين بعد أن وضعوا أيديهم على أراضى اليهود فى المدينة وبعد ما غنموه من غنائم. ثم إن خطر العدو لم يعد مباشراً بالنسبة

للمدينة، فقد انحسرت القوة عن خصومها وقبعوا فى معسكرين : أحدهما فى الجنوب وهو معسكر قريش فى مكة والآخر فى الشمال وهو معسكر اليهود فى خيبر، ولم يعد من اليسير قيام الاتصال بين هذين المعسكرين والتعاون بينهما مرة أخرى بعد تراجع الأحزاب عن المدينة.

غير أن هذا الصراع وإن كان قد أدى إلى تفوق المدينة وإضعاف قوة خصومها إلا أنه شغل الرسول ﷺ عن التفرغ لنشر دعوته، كما أنه أعاق تغلغل هذه الدعوة بين القبائل العربية وبخاصة تلك التى شاركت فى هذا الصراع ، فإن الحرب بطبيعتها تثير الحفيظة وتذكى التعصب فى النفوس وتمنع من التفكير الهادئ السليم، وفى مثل جو الحرب لاتنتشر المبادئ ، ولذلك نزل القرآن يأمر الرسول ﷺ باللين والصبر واستعمال الحكمة والموعظة الحسنة بقوله: « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ». والدعوة بالحسنى وتهيئة جو السلم والطمأنينة هو سبيل أصحاب الرسالات والاصلاح والدعوات فى كل زمان ومكان، وهذا الجو هو الذى سعى إليه الرسول ﷺ وهو الذى التزمه طيلة الدور المكى من حياة الرسالة، وهو حين دخل الحرب بعد هجرته دخلها مضطراً، ومع ذلك فلم يفجر فيها ولم يسع وراء مجد عسكرى قط، وكان يقدم دعوة السلم قبل أن يدخل فى القتال، حتى إذا ما استنفد وسائل السلم قاتل مكرها، ثم قاتل فى أضيق الحدود، فلم يسرف على خصومه بعد نهاية المعركة : لم يجهز على جريح، ولم يقتل طفلا ولا إمرأة ولا شيخاً، ولا معتزلا لقتال، وفى المرات التى قسا فيها على بعض خصومه كانت القسوة ضرورة لا محيص عنها .

فلما تحول الموقف بعد الأحزاب إلى صالح الدولة الإسلامية وأصبح فى إمكان الرسول ﷺ أن يأخذ فى يده موقف المبادأة، سعى إلى تهيئة جو السلم وتسويد مبدأ السلام. فمد يده إلى خصومه وأظهر منتهى المرونة والتسامح حتى تم بينه وبين قريش صلح الحديبية على ما سنرى.

**صلح الحديبية (ذو القعدة سنة ٦ هـ / مارس ٦٢٨م ) :**

فى شهر شوال من سنة ٦هـ أعلن الرسول ﷺ فى أصحابه أنه قد نوى زيارة

البيت الحرام وأداء العمرة ، ودعاهم للتأهب لتأدية هذه الزيارة، مبشرا إياهم بأنه رأى فى المنام أنهم يدخلون المسجد الحرام محلقين رءوسهم ومقصرين لا يخافون. وفى الوقت نفسه بعث إلى الأعراب من حول المدينة ليشاركوا فى هذه الزيارة، وكانت حكمة الرسول ﷺ فى دعوة الأعراب - ممن ليسوا على الإسلام - لمشاركة المسلمين فى هذه الزيارة أن يؤكد لقريش أنه جاء معتمرا وليس غازيا، بدليل أنه يوجد فى صفوفه من العرب من ليس على دينه ، وليؤكد لهم أن زيارة البيت الحرام واجبة عند المسلمين كما هى عند العرب، وأن المسلمين يعظمون البيت الحرام كما تعظمه العرب بل هم أشد له تعظيماً وأكبر عندهم حرمة، وليؤكد لهم كذلك أن مكة سوف لاتفقد مكانتها التى تنالها من مقام البيت فيها، والتى تحرص قريش على بقائها. وإلى جانب ذلك ليكسب الرأى العام العربى إلى صفه ، فهو يعظم الحرمات ويحرص على المقدسات ، ولا يجانب الناس بل يسالمهم، وهو يحرص على الوحدة بين العرب ويعمل لها، وأن التفتت وجو الحرب ليس من صنعه بل هو من صنع خصومه الذين أرغموه عليه إرغاما، بمحاربته وصده عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعله الله مثابة للناس جميعاً وأمناً. وليكشف موقف قريش العدائى ويظهر خروجها عن المهمة التى وكلت إليها، والتى تحصل من ورائها على مركزها بين العرب، وهى رعاية البيت الحرام وتهيئته للزائرين سواء منهم العاكف والباد، إن هى صدته وأصحابه عن زيارة البيت وأداء الفريضة التى هى حق للجميع.

واستجاب المسلمون لنداء رسولهم والفرحة تملأ قلوبهم، المهاجرون منهم والأنصار على السواء، أما المهاجرون فلأنهم طردوا من وطنهم ظلماً وعدواناً وحرموا من بلدهم ستة أعوام، حالت فيها قريش بينهم وبين زيارة هذا الوطن، وألزمتهم جو العداوة والحرب. وأما الأنصار فلأنهم حرموا من زيارة البيت الحرام الذى كان مهوى نفوس العرب جميعاً، كما تحملوا جو الحرب بما فيه من إعنات وضياع للأنفس والأموال. وهاهى الفرصة تأتى ليعود المهاجرون إلى وطنهم زائرين، وليعاودوا الاتصال بمن تركوا فيه من الأهل والإخوان، وليطفئ الأنصار حنينهم إلى بيت الله الحرام وليخرجوا من جو الحرب إلى جو السلام.

وأما الأعراب فقد ظنوا أنها مغامرة يقوم بها المسلمون ، وأن قريشا سوف

تنتهزها فرصة للقضاء عليهم، ولن يصدها عن ذلك الشهر الحرام أو البيت الحرام، فقد لجت فى الخصومة وبلغت فيها إلى الشوط الأبعد الذى ليس بعده صلح أو مسالمة، واعتبروا أن هذه سفرة بلا عودة، وعلى عادة الأعراب من الحذرفقد أبطأوا ولم يستجيبوا لدعوة الرسول ﷺ .

وفى أول ذى العقدة - أول الأشهر الحرم - من السنة السادسة للهجرة خرج الرسول ﷺ فى نحو ألف وأربعمائة من أصحابه متجهاً إلى مكة، يسوق أمامه الهدى سبعين بدنة وقد قلدها وأشعرها ( قلدها أى علق فى عنقها نعلاً ليعلم أنه هدى ، وأشعرها أى لطخها بالدماء ) ، تعبيراً عن نيته السلمية وقصده زيارة البيت، ولم يحمل أحد من هؤلاء الرجال سلاحاً إلا ما يحمله المسافر من سيف فى غمده.

وعلمت قريش بمسيرة الرسول ﷺ والمسلمين إلى مكة فتشاور زعماؤها فى الأمر، وعلى الرغم من مظهر السلم الذى سار به الرسول ﷺ، ومن إعلانه نيته فى العمرة وندائه بهذا بين العرب، فإن زعماء قريش أوجسوا خيفة من هذه الزيارة فلربما تكون مكيدة أراد بها الرسول ﷺ أن يدخل مكة، وحتى إذا لم تكن مكيدة وكانت عمرة عادية فإن قريشاً قدرت ما يكون لو أن المسلمين اختلطوا بأهل مكة وحادثوهم وزال جو التوتر بين الفريقين، واتصل المهاجرون بأهليهم والتقوا معهم ، فإن الدماء عند ذلك تحن والأرحام تتقارب ، ويحس السواد من أهل مكة بالحنين نحو أهليهم وذوى أرحامهم، ويحسون بمقدار الظلم الذى وقع عليهم بطردهم من وطنهم والتفرقة بينهم وبين أهليهم ، وإذن لابد وأن الرسول ﷺ سيكسب الجولة عليهم. ثم إن هناك عدداً من المسلمين حبسهم أهلهم بمكة وحالوا بينهم وبين الهجرة وهم يعذبونهم بقصد فتنتهم، فماذا لو دخل المسلمون مكة فاتصلوا بهؤلاء المستضعفين وعملوا على تحريرهم من الظلم والإعنات الذى هم فيه ، ووجد هؤلاء المعذبون ملجأ وملاذا عند إخوانهم، إذن فستكون الحرب الأهلية فى مكة أو هى الفرقة والضعف، ورجال الرسول ﷺ فى مكة يستطيعون أن ينتهزوا الفرصة للإستيلاء عليها.

وإذن فمهما يكن غرض الرسول ﷺ ومظهره فلا بد من الحيلولة بينه وبين دخول مكة، مهما يكن الأمر أو الثمن حتى ولو كانت الحرب فى الأشهر الحرام أعنف

الحرب. وعلى ذلك صمم زعماء قريش وأعدوا جيشاً قوياً بلغ عدد فرسانه وحدهم مائتين ، وقدموه للقاء الرسول ﷺ ومنعه من دخول مكة.

تقدمت فرسان قريش على رأسها خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل على نحو عشرة أميال من مكة. وعلم الرسول ﷺ بمسيرة جيش قريش لمنعه، فأخذه الأسى لموقفها ولددها فى الخصومة، مع أن مابينها وبينه من لحمة الدم والقرابة كان خليقا أن يجعلها تقاربه وتنتصر له بدل أن تخاصمه هذه الخصومة العنيفة، التى أعمتها عن موقف الحكمة وأبعدتها عن الحلم الذى اشتهرت به بين العرب، فقال : «ياويح قريش! لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب فإن أصابونى كان الذى أرادوا، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش ، فوالله لاأزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة». وبينما كان الرسول ﷺ يفكر فى أمر قريش ويستعرض موقفها، كان فرسانها منه على مرأى النظر، يدل منظرهم على أنه لاسبيل للمسلمين إلى دخول مكة إلا أن يقتحموا هذه الصفوف اقتحاماً، ولكن الرسول ﷺ ما جاء محارباً وإنما جاء لتقرير مبدأ السلم، ولذلك تحاشى الصدام ومال بأصحابه وسلك طريقاً آخر تجنب به قوات قريش وأوصله إلى الحديبية، وهى أقرب حدود الحرام إليها ، على بعد أثنين وعشرين كيلومترا إلى الشمال الغربى من مكة، وهناك نزل بأصحابه ينتظر ما يكون من قريش.

وكانت قريش تدرك حرج موقفها إن نشب قتال جديد، لأن حجتها أمام القبائل ستكون آنذاك واهية مدحوضة، وقد ينتهى القتال بكارثة تؤدى بكيانها كله إذ ستفقد مكانتها السياسية والدينية التى تفاخر بها العرب؛ وستفقد بالتبعية قدرا كبيرا من مواردها الاقتصادية . فلهذا فكرت فى أن ترسل إلى المسلمين من يستطلع حالهم من ناحية و يحاول صدهم عن دخول مكة بدون حرب من ناحية أخرى، وأرادت أن تشرك القبائل المجاورة لمكة والأحابيش فى الأمر، حتى إذا ما كان الموقف يتطلب قتالاً وقفوا معها وأعانوها، وقدرت أن الرسول ﷺ قد يسئ إلى الرسل، الذين ترسلهم إليه من رجالها ومن رجال القبائل ومن الأحابيش، فيحمسهم هذا لنصرة قريش.

لكن الرسول ﷺ أحسن مقابلة الرسل الذين أرسلتهم قريش تباعاً من خزاعة ومن ثقيف ومن الأحابيش. واستطاع أن يقنعهم بالحجة مرة وبالمظهر العملى مرة أخرى بنيته السلمية وبأنه جاء معتمراً للبيت وليس غازياً أو معتدياً، مثلما فعل مع الحليس سيد الأحابيش حينما أطلق الهدى أمامه ، حتى لقد اشمأز بعض هؤلاء الرسل من تصرف قريش ومن عنتها، كما فعل سيد الأحابيش، الذى قال لقريش حين عاد من عند الرسول ﷺ : « يامعشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم ، ولا على هذا عاقدناكم أيصد عن بيت الله من جاء معظماً له ؟ ! والذى نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد ». وبذلك كسب الرسول ﷺ هذه الجولة من قريش ، وألزمها بأن تدخل معه فى مفاوضات سلمية، وإلا ظهرت بمظهر المتعنت أمام حلفائها وأمام العرب جميعاً.

طالت المحادثات فرأى الرسول ﷺ أن يبعث هو إلى قريش رسولاً من عنده يوضح موقفه ، تمشياً مع حرصه على السلم وتأكيداً لحلمه الذى بلغ غايته ، فأرسل خراش بن أمية الخزاعى ، فلما وصل إلى مكة أرادوا قتله فمنعته الأحابيش وعاد دون فائدة. وتمادت قريش فى عنادها، وأرسلت أربعين رجلاً منها أو خمسين، وأمرتهم أن يطوفوا بالمسلمين ليصيبوا لهم أحداً ، فأمسك بهم المسلمون وأحضروهم إلى الرسول ﷺ، ورغم أنهم رموا المسلمين بالنبل والحجارة، فقد عفا عنهم وخلى سبيلهم، وكره أن تجرى الأمور على هذا النحو ويتصاعد الموقف نحو القتال . وأرسل عثمان بن عفان إلى أبى سفيان وأشراف قريش، ليخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما زائراً للبيت ومعظماً له ولحرمته، وتعثرت المفاوضات بين عثمان وقريش واحتبسته عندها ، وراجت إشاعة بأنه قتل ، فلما بلغ ذلك الرسول ﷺ رأى ألا محيص عن القتال حتى قال : « لانبرح حتى نناجز القوم»، ودعا الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، على ألا يبرحوا مكانهم حتى يقاتلوا المشركين دون أن يفروا إذا ما أصاب عثمان مكروه. إلا أن الحقيقة لم تلبث أن تكشفت للرسول ﷺ إذ علم أن ما ذكر من أمر عثمان باطل، ولما علمت قريش بأمر هذه البيعة خافت، وأشار عليها أولى الرأى بالصلح مع الرسول ﷺ.

جاء رسول قريش وهو سهيل بن عمرو مفوضا لعقد الصلح فأظهر الرسول ﷺ كثيراً من المرونة والتساهل، ولم يحفل بالشكليات بل كان همه فى المسألة جوهرها حتى لقد أغضب موقفه اللين كثيراً من رجاله وأثار اعتراضهم وحتى عمر بن الخطاب اندفع يقول للرسول ﷺ معترضاً : « ألست برسول الله، أولسنا بالمسلمين ؟ ألسنا على الحق ؟ أوليسوا بالمشركين؟ فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ » فرد عليه الرسول ﷺ قائلاً : أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى. فالموقف إذن ليس موقف شورى ومناقشة بل كان أمر الله وتوجيه الوحى ؛ ومن ثم لم يحفل الرسول ﷺ بالشكليات التى تمسك بها رسول قريش ، ولم يساير حماسة رجاله، وقدم كثيراً من التسهيلات حتى تم بين الطرفين عقد الصلح الذى كانت أهم شروطه :

١ - أن يؤجل محمد والمسلمون دخول مكة هذا العام، على أن يعودوا فى العام القادم فتخلى لهم قريش مكة ثلاثة أيام يؤدون فيها العمرة.
٢ - أن تعقد بين الطرفين هدنة مدتها عشر سنوات - فى قول - وسنتين - فى قول آخر وهو ما نرجحه - يأمن فيهن كل من الطرفين صاحبه ويكف بعضهم عن بعض، وأن بينهم عيبة مكفوفة، وأن لا إسلال ولا إغلال ( عيبة مكفوفة أى صدور منطوية على ما فيها ، والإسلال السرقة الخفية، والإغلال الخيانة ) .
٣ - أن من أراد الدخول فى عهد محمد من غير قريش جاز له ذلك، ومن أراد الدخول فى عهد قريش فله ذلك.
٤ - أن من جاء محمداً من أهل مكة بدون إذن وليه رده إليهم، ومن جاء إلى قريش من أصحاب محمد لاتلتزم قريش برده إليه.

والشرط الأخير هو الذى أثار اعتراض المسلمين وأغضبهم، لكن الرسول ﷺ أمضى العقد واعتبر الوصول إلى السلم هدفاً يصغر إلى جانبه كل شئ ، واعتبره فتحاً مبيناً ونزل القرآن الكريم بهذا المعنى فى قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما، وينصرك الله نصراً عزيزاً » .

والحقيقة أن الحديبية كانت فتحاً مبينا لا يقل أثره وعظمته عن أكبر معارك

الإسلام، وإذا كانت بدر قد ثبتت قواعد الدولة الناشئة ، فإن الحديبية قد فتحت أمامها المجال لتصل إلى الهدف الذى كان الرسول ﷺ يرمى إليه ، وهو توحيد العرب فى دولة واحدة ستكون بدورها نواة لدولة إسلامية كبرى، تشمل الإنسانية وتحقق رسالة العدالة والخير لبنى الإنسان على الأرض، وانفتح بصلح الحديبية المجال أمام الرسول ﷺ ليتابع إبلاغ رسالته للناس جميعاً فى مشارق الأرض ومغاربها مثلما سنرى فيما بعد. وقد أتاح صلح الحديبية للرسول أن يوجه نظره إلى إكمال خطته فى إقرار الأمن للمسلمين فى جزيرة العرب، والقضاء على كل عناصر المقاومة التى تقف فى سبيل توحيد الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام، ثم الاتجاه بالدعوة إلى العالم الخارجى أى إلى المجال الإنسانى ، فإن الرسول ﷺ لم يرسل للعرب وحدهم وإنما أرسل بشيراً ونذيراً للناس كافة.

وقد أظهر الرسول ﷺ من بعد النظر ودقة التقدير ما تفوق به على خصومه، وما فاق به تفكير أصحابه على السواء. فإن شروط صلح الحديبية وإن بدت لأول وهلة فى مصلحة قريش ، فإن الأيام ما لبثت أن كشفت أن الرسول ﷺ قد ذهب فيها بالنصيب الأوفر، وحقق فيها وبواسطتها أهدافه الكبرى، فقد أتاح هذا العهد للرسول والمسلمين أن يدخلوا مكة فى العام القادم آمنين مطمئنين، وأخلت لهم قريش البلد الحرام، وقد كان لهذا أثره الخطير فى مكة نفسها، فإن أهلها رأوا من تضامن المسلمين وترابطهم وتعاونهم وتعاطفهم وحسن نظامهم والتفاهم فيما بينهم، واقتدائهم بنبيهم، ما جعلهم يدركون أن مثل هذه الجماعة لا يمكن الوقوف فى وجهها، وليس من أمل فى التغلب عليها. حتى لقد كانت عمرة القضاء قضاء تاماً على روح العناد والمقاومة فى قريش، بحيث أدرك عقلاؤها أنه من الخير الانضمام إلى الرسول ﷺ، يتمثل ذلك فى إسلام خالد بن الوليد، وخالد رجل له مكانته العظيمة فى قريش، فهو بطلها وفارسها فى يوم أحد ، وكان خالد قائداً بصيراً يدرك أين تكون الكفة الراجحة، ولقد أدرك خالد هذا فى عمرة القضاء ، فلم يلبث أن أعلن إسلامه وبعث بهداياه إلى الرسول ﷺ، ولم يسلم خالد فى صمت بل قال على ملأ من قريش: « لقد استبان لكل ذى عقل أن محمداً ليس بشاعر ولا ساحر ، وأن كلامه من كلام رب العالمين، فحق على كل ذى لب أن يتبعه » . ولقد هم أبو سفيان أن يثور بخالد ويؤلب قريشاً لقتله، فقال عكرمة بن أبى جهل : « مهلا يا أبا سفيان ، أنتم تقتلون خالداً على رأى رآه،

وهذه قريش كلها قد تبايعت عليه، والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم ». وهكذا كانت عمرة القضاء التى هى شرط من شروط صلح الحديبية فتحا لقلوب أهل مكة وأبصارهم . وكما أسلم خالد أسلم رجلان آخران لهما أهمية ولهما خطورة ، وهما عمرو بن العاص داهية قريش الذى لايقل بصراً بالأمور عن خالد، وعثمان بن طلحة حارس الكعبة. وبإسلام هؤلاء الثلاثة أسلم عدد كبير من أهل مكة وأصبحت فى حكم البلد الذى فتح أبوابه للدعوة الإسلامية ، ولم يبق إلا أن تفتح أبوابها وتسلم القيادة للمسلمين.

ثم إن هذه الهدنة أتاحت للرسول فرصة العمل بحرية وهو آمن بعد أن أمن جناحه الجنوبى من ناحية قريش، وانصرف فى اطمئنان ليقضى على القوة الأخرى المعادية التى كانت تقوم فى جناحه الشمالى ، وهى قوة اليهود الذين تركزوا فى خيبر، والذين أخذوا يعدون العدة ويعملون على تكوين حلف يهودى يضم يهود خيبر ووادى القرى وتيماء لمهاجمة المدينة، فاستطاع الرسول أن يهاجم خيبر وينتصر عليها وعلى خصومها وحصونها القوية، على الرغم مما بذله اليهود من مقاومة عنيفة مستميتة ، وبالقضاء على قوة اليهود فى خيبر أمن الرسول ﷺ جناحه الشمالى. كما أتاح هذا الصلح لبعض القبائل فرصة الدخول فى عهد الرسول ﷺ والانضمام إلى صفه صراحة، وبخاصة قبيلة خزاعة التى كان جزء كبير من الأحابيش – الذين كانت تعتمد عليهم قريش – من بطونها؛ وبذلك ضم الرسول جزءا كبيرا من هذه القوة إلى جانبه وأضعف مركز قريش الحربى إلى حد كبير . وبدأت القبائل التى كانت تناوئ المدينة تراجع موقفها وتسعى للانضمام إليه، حتى أنه لم يمض عامان إلا والاسلام قد انتشر انتشاراً سريعاً بين هذه القبائل ، وانضمت إليه انضماماً كاملاً لدرجة أنه عند فتح مكة فى العام الثامن الهجرى كان رجال هذه القبائل يؤلفون القوة الكبرى فى الجيش الذى تقدم لفتحها. فقد قدمت سليم ألف فارس، كما قدمت جهينة ثمانمائة ، وقدمت بنو كعب وبنو ليث وأشجع وغفارا أكثر من ألف مقاتل، وهكذا بعدت القبائل عن قريش بالدرجة التى تقربت بها من الرسول ﷺ . وكانت هذه الأعداد الضخمة من الرجال دليلاً على مدى انتشار الإسلام بين هذه القبائل انتشاراً كبيراً فاق كل عدد وصل إليه المسلمون فى السنوات السابقة منذ البعثة حتى وقت صلح الحديبية .

ثم إن الشرط الأخير الذى أرضت به قريش غرورها، والذى غضب من أجله المسلمون وعارضوه ، مالبث أن ظهر أنه فى غير مصلحة قريش وأنه كان وبالاً عليها، والرسول ﷺ حين قبله كان سياسياً بعيد النظر وكان حكيماً عالماً بما يصلح الدولة فى داخلها ، فإنه ليس فى مصلحتها أن يكون بين صفوفها من لا يؤمن بمبادئها، ومن كان هواه مع أعدائها. وكانت قريش قصيرة النظر حين حبست بعض المسلمين فى مكة ومنعتهم من الهجرة وعملت على فتنتهم عن دينهم بالقوة، فقد استمسك هؤلاء بدينهم برغم تعذيب قريش، وكانوا نقطة ضعف داخل الدولة المكية، كانوا طابوراً خامساً كما نعبر عنه فى عصرنا الحديث، وكانوا إلى جانب ذلك يعذبون ضمير أهل مكة ويشعرونهم بالإثم دائماً، وخصوصاً إذا قدرنا قوة عصبية الأرحام وذوى القربى؛ وإذا كان الزعماء يرضون هذا لمصلحة الدولة كما ظنوا ويرغمون العامة على قبول عملهم، وتساعدهم على ذلك حالة الحرب، فإن عواطف الناس كانت هذا الصف ، وخصوصاً بعد أن أشاع صلح الحديبية جوا من السلم وأتاح للعواطف والرأى أن تنفس عن نفسها، وكان الرسول ﷺ يرى أن مصلحة دولته تقتضيه أن يتخلص من خصوم مبادئها أو على الأقل لا يتمسك بهم بين صفوفه، لذلك وافق على ألا يرجع إليه من يخرج من صفوفه إلى العدو.

على أنه لم يخرج من صفوف المسلمين أحد إلى مكة ، بل على العكس خرج من صفوف قريش بعض المسلمين فارين إلى الرسول ﷺ ، فلما ردهم إلى مكة كانوا وبالا عليها ، وأصدق شاهد على ذلك قصة أبى بصير عتبة بن أسيد حليف بنى زهرة ، فإنه بعد صلح الحديبية فر إلى المدينة ،فكتب أولياؤه إلى الرسول ﷺ يطلبون رده وأرسلوا إليه رجلين يعودان به ، فسلمه الرسول ﷺ للرجلين وفاء بشروط الصلح ، فلما كان فى بعض الطريق احتال على الرجلين حتى أخذ من أحدهما سيفه فقتله به ، وفر الآخر إلى المدينة ولحق به أبو بصير، فقال للرسول ﷺ : « يارسول الله وفت ذمتك. وقد امتنعت بدينى أن أفتن فيه أو يعبث بى » فقال رسول الله ﷺ :« ويل أمه! مسعر حرب لو كان معه رجال » فخرج أبو بصير حتى نزل بمكان يقال له العيص على ساحل البحر ، وكان طريق قريش إلى الشام، فسمع به من كان بمكة من المسلمين فلحقوا به ، حتى صار فى عصبة من المسلمين بلغت نحوا من سبعين

رجلا، وكانوا لا يظفرون برجل من قريش إلا قتلوه، ولا يمر بهم عير إلا أخذوها واقتسموها ، حتى كتبت فيهم قريش إلى رسول الله يسألونه بأرحامهم إيواءهم فلا حاجة لهم بهم ، ففعل رسول الله فقدموا عليه بالمدينة. وهكذا جر هذا الشرط وبالا على قريش، فقد تكونت ضدها عصابة خطيرة خرجت عن التبعية لها، وكذلك لم تدخل فى تبعية المدينة فلم تكن تسأل عنها ولا عن أعمالها، فألحقت بقريش ضرراً فادحاً دعاهم إلى أن يرجو الرسول ﷺ أن يؤوى هذه الجماعة وأن يقبل إلغاء هذا الشرط .

وهكذا أثبتت الحديبية بعد نظر الرسول وسلامة تقديره، وكانت آية من آيات السياسة الحكيمة والدبلوماسية الفذة حتى اعتبرت فتحاً مبينا فاق فى كل نتائجه أعظم الفتوح الحربية، فإنه لم يفتح البلاد وحدها وإنما فتح العقول والقلوب للدين الجديد، ومهد للفتح الأعظم بعد ذلك بسنتين، وهو فتح مكة فتحاً سلميا وانضمامها إلى الدولة الاسلامية وما أعقب ذلك من توحيد العرب ودخول الناس فى دين الله أفواجاً.

**فتح مكة ( رمضان سنة ٨ هـ / يناير ٦٣٠م ):**

لم تلبث قريش أن نقضت صلح الحديبية فى شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة ، حينما أراد بنو بكر حلفاؤها أن يأخذوا بثاراتهم القديمة من بنى خزاعة حلفاء المسلمين ، معتمدين على مناصرة قريش لهم ، وحرضهم على ذلك متطرفو قريش وعلى رأسهم عكرمة بن أبى جهل، وأمدوهم سراً بالمال والسلاح والرجال؛ وأعلن بنو بكر الحرب على خزاعة فجأة فأوقعوا فيهم بعض الخسائر فى الأرواح والأموال ، ولما التجأت خزاعة إلى البيت الحرام طاردهم بنو بكر أملاً فى استئصال شأفتهم غير مكترثين بصلح الحديبية.

كان هذا الاعتداء الذى قام به بنو بكر تؤيدهم قريش بشبابها وسلاحها على خزاعة نقضاً للعهد الموقع يوم الحديبية، ولذلك خرج عمرو بن سالم الخزاعى ومعه أحد بنى كعب وبديل بن ورقاء وقوم آخرون من خزاعة إلى المدينة حتى قدموا على رسول الله، واستغاثوا به مما أصابهم على يد بنى بكر وقريش، فوعدهم الرسول بالنصرة.

أما قريش فقد ندمت على ما قدمته من عون لبنى بكر وأدرك شيوخها أنه لابد من عمل شئ لتمكين الصلح والزيادة فى مدته، فأوفدوا أبا سفيان بن حرب لهذا الغرض، فخرج إلى المدينة ليشدد العقد ويزيد فى مدته. وعندما دخل المدينة عمد إلى مقابلة ابنته أم حبيبة زوج الرسول ﷺ فأساءت استقباله، فمضى لمقابلة الرسول ﷺ فى المسجد وكلمه فيما أوفد من أجله، فلم يجبه بكلمة، فاستعان بكبار الصحابة أمثال أبى بكر وعمر وعلى حتى يتوسطوا له عند الرسول ﷺ فأبوا جميعاً ، فلما يئس من شفاعتهم جميعاً ركب راحلته وعاد إلى مكة يحمل لقومه أخبار سفارته الفاشلة .

وحينذاك عزم الرسول ﷺ على فتح مكة، فأعد جيشاً كثيفاً من أهل المدينة لم تشهد له الحجاز مثيلاً من قبل إذ بلغت عدته عشرة آلاف مقاتل، ودعا الله أن يأخذ عن قريش بالأخبار فكان يقول : «اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ولا يسمعون بنا إلا فلتة » يقصد مفاجأتها بالفتح. وخرج بجيشه من المدينة فى العاشر من رمضان، وكان كلما تقدم نحو هدفه يزداد قوامه القتالى بانضمام مسلمى القبائل التى تسكن جانبى الطريق. وعلى الرغم من ضخامة هذا الجيش فقد بقى سر حركته مكتوما لم تعلم قريش عنه شيئاً مثلما أراد الرسول ﷺ.

وعندما وصل الجيش الإسلامى إلى موضع مر الظهران - وهو على بعد أربعة فراسخ من مكة - أمر رسول الله بأن توقد النيران على رءوس المرتفعات المطلة على مكة . فلما رأت قريش النيران تملأ الأفق البعيد، أسرع أبو سفيان وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزام بالخروج باتجاهها حتى يعرفوا أصحابها ونواياهم، ولما اقتربوا من الجيش الإسلامى قال أبو سفيان لصاحبيه : « مارأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكرا ، فرد بديل قائلاً : هذه والله نيران خزاعة حمشتها الحرب ! »..

وتجمع المصادر على أن أبا سفيان وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزام خرجوا من مكة يتلقفون الأخبار، كما تجمع على أن العباس بن عبد المطلب - الذى وقف إلى جانب الرسول ﷺ فى بيعة العقبة الثانية والذى كان يوافيه بأخبار مكة وتحركاتها ضده - خرج هو الآخر مهاجراً وأنه لقى رسول الله فى ذى الحليفة، وفى ذلك دلالة على أن قريش كانت تتوقع مسيرة الرسول ﷺ ، ولخروج العباس للقاء رسول الله

مغزيان : الأول أن يصبح مهاجراً قبل أن يفتح رسول الله مكة، والثانى أن يأخذ الأمان لقريش. كذلك لم يخرج كل من أبى سفيان وبديل بن ورقاء معا مجرد صدفة وإنما ليسهل له بديل الاتصال بالرسول، كما أن لقاء أبى سفيان بالعباس وهو راكب بغلة الرسول لم يكن مجرد صدفة أو محض اتفاق. ومن المعتقد أنه اتفق معه على هذا اللقاء حتى يجيره العباس أمام المسلمين ويمنعه من التعرض لسيوفهم، وفى نفس الوقت ليمثل قريش أمام الرسول ﷺ ويعلن إسلامه، وعندئذ يؤمن الرسول ﷺ أهل مكة فلاتفتح عنوة، ويعتقد البعض أن زعماء قريش الثلاثة الذين خرجوا يتحسسون الأخبار وفقاً لما أوردته المصادر العربية وهم أبو سفيان وبديل وحكيم لابد أنهم كانوا يؤلفون وفد التسليم، وأنهم كانوا على اتفاق سابق مع العباس الذى خرج من مكة ليمهد لهذا اللقاء.

التقى العباس مع أبى سفيان ورافقه حتى قدم به على الرسول ﷺ، لكن الرسول ﷺ طلب من عمه أن يأخذ أبا سفيان إلى خيمته ويحضره إليه فى صباح الغد، فلما كان الصباح جيئ بأبى سفيان فأعلن إسلامه أمام الرسول؛ وحينذاك استأذن العباس الرسول ﷺ فى أن يجعل لأبى سفيان شيئا يفتخر به بين قريش، قائلا : « يارسول الله. إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً يكون فى قومه، فقال له الرسول ﷺ : من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن ». ثم عاد أبو سفيان إلى مكة ليبلغ قومه بتأمين الرسول ﷺ لكل من دخل داره أو المسجد الحرام أو دار أبى سفيان، وأصبحت مكة بذلك تنتظر قدوم المسلمين، واختفى الناس خلف الأبواب الموصدة؛ بينما ذهب البعض الآخر إلى المسجد الحرام ؛ أما المتطرفون من شباب قريش ومن بينهم عكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو فقد بقوا فى الشوارع مصممين على القتال.

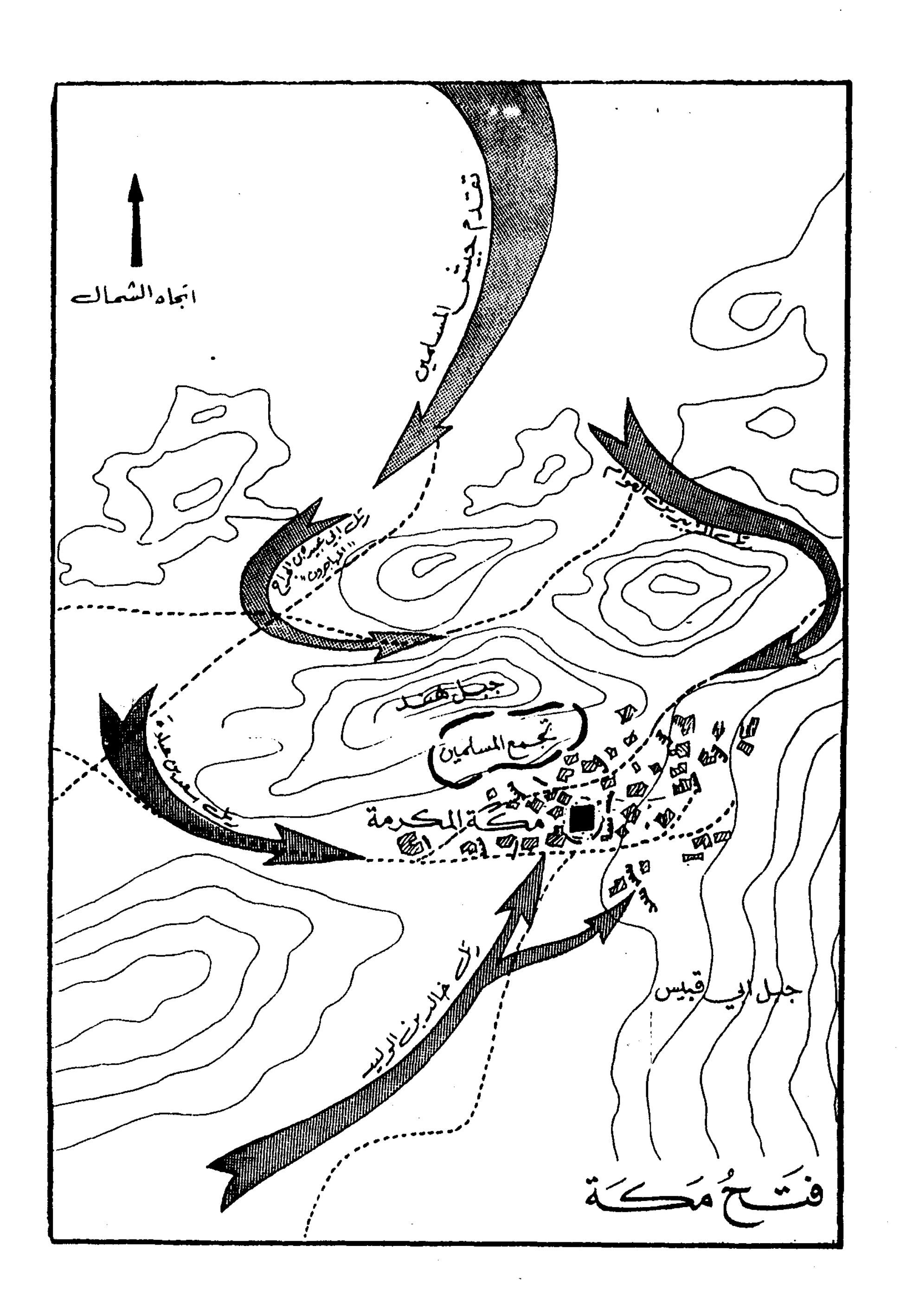
تقدمت القوات الإسلامية لفتح مكة بعدما قسمها الرسول إلى فرق أربع لاقتحامها من جهات أربع : الميسرة بقيادة الزبير بن العوام ليدخل من ناحية الشمال الشرقى، والميمنة بقيادة خالد بن الوليد ليدخل من ناحية الجنوب، وقوات الأنصار بقيادة سعد بن عبادة ومهمته الدخول من ناحية الغرب، أما قوات المهاجرين بقيادة أبى عبيدة بن الجراح فللدخول من ناحية الشمال الغربى فى إتجاه جبل هند، وأصدر

الرسول توجيهاته لقواده بألا يقاتلوا إلا من يقاتلهم ليتم فتح مكة دون إراقة دماء .

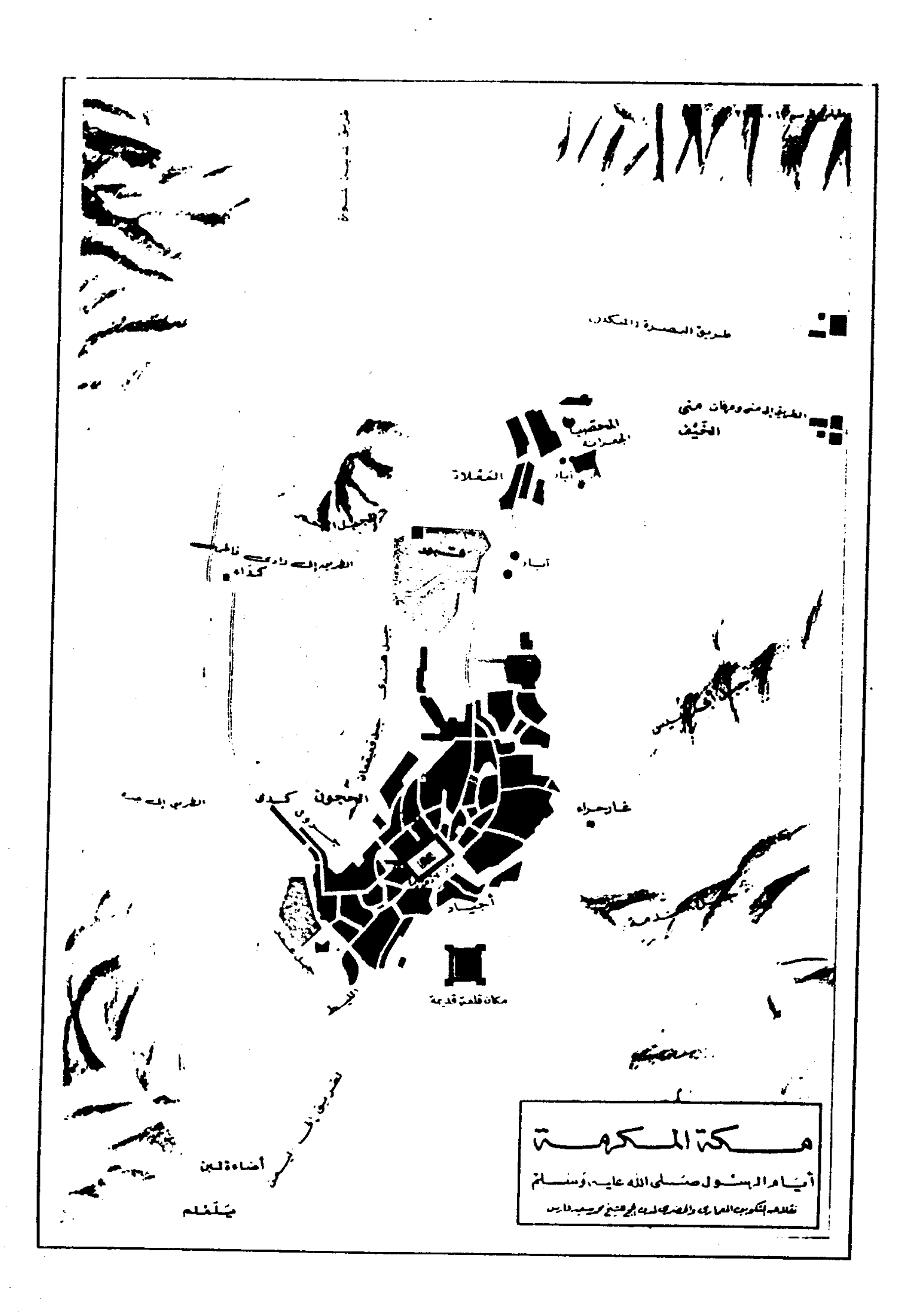
دخلت القوات الإسلامية مكة من جهاتها الأربع فلم تلق مقاومة باستثناء الفرقة التى يقودها خالد بن الوليد ، حيث تجمع متطرفو قريش مع بعض حلفائهم وأصروا على مقاومتها وأمطروها بوابل من سهامهم ، إلا أن خالد شتتهم وأرغمهم على الفرار بعدما قتل منهم إحدى وثلاثين رجلاً وقيل ثلاث وعشرين فقط، بينما قتل من المسلمين ثلاث رجال فقط. وهكذا تم فتح المدينة المقدسة.

كان رسول الله معسكراً فى منطقة جبل هند، وبعد أن أعاد تجميع قواته نهض والمهاجرون والأنصار من حوله نحو مكة فدخلها وهو منحن على راحلته حتى لتكاد جبهته تمس قتب الراحلة شكراً لله، وذلك فى العشرين من رمضان (يناير ٦٣٠م) واتجه مباشرة إلى المسجد الحرام فطاف به، وأخذ يطعن بالقوس الأصنام المحيطة به وهو يقول جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد. ثم دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة فأزال ما بها من صور، ثم صلى ركعتين ودار فى البيت يكبر، ولما أنهى تطهير البيت من الأصنام والصور، وقف على باب الكعبة وقريش تنتظر ماذا يصنع ، فقال : لا إله إلا الله وحده لاشريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ... يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ... الناس من آدم وآدم من تراب ثم تلا قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم... الآية ، ثم قال : يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت، قال : فإنى أقول كما قال أخي يوسف عليه السلام : لاتثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين اذهبوا فأنتم الطلقاء . ثم أقام الرسول بمكة خمسة عشر يوماً بعد الفتح نظم خلالها شئونها وفقه أهلها فى الدين وهكذا استطاع الرسول ﷺ أن يكسب أكبر معركة فى تاريخ الدعوة الإسلامية بغير حرب وبغير إراقة دماء .

وبفتح مكة فى العشرين من رمضان سنة ثمانى هجرية تحققت المرحلة الأولى الهامة من توحيد الأمة العربية بالإسلام، وخرجت الدولة الإسلامية من نطاق



اتجاه الشمال
تقدم جيش المسلمين
جبل هند
تجمع المسلمين
مكة المكرمة
رتل خالد بن الوليد
جبل أبي قبيس
فتح مكة


مكة المكرمة
أيام الرسول صلى الله عليه وسلم
طريق البصرة والمشرق
الخيف
المحصب
الجعرانة
آبار
المعلاة
كداء
الحجون
كدى
غار حراء
أجياد
مكان قلعة قديمة
أضاة لبن
يلملم

الدولة المدينة إلى نطاق الدولة الكبيرة؛ بحيث لن يمر عام واحد بعد ذلك إلا وامتد سلطانها إلى كل شبه الجزيرة علي ماسنرى.

# الفصل الخامس
## توجيه الدعوة الإسلامية
## داخل الجزيرة وخارجها

منذ أن عقد الرسول ﷺ مع قريش صلح الحديبية فى أواخر العام السادس للهجرة، ثم تخلص نهائياً من خطر اليهود فى بداية العام الذى يليه، اتجه إلى اصطناع سياسة ترمى إلى توحيد شبه الجزيرة ونشر الدعوة خارجها عن طريق بث الدعاة فى أرجاء شبه الجزيرة وخارجها، ثم التمهيد للفتوحات الإسلامية خارجها، بجس نبض الممالك والامبراطوريات المجاورة. وقد اتسمت سياسة الرسول ﷺ فى هذا السبيل بالفطنة والحصافة، فلم يعمد إلى القضاء على العصبيات القائمة دفعة واحدة، ولم يحاول تجريد الحكام القائمين من سلطانهم على التو، وإنما اكتفى بأن يحمل دعاته شروط الإسلام من : الولاء لله ورسوله والالتزام بشريعته؛ وللقبائل بعد ذلك أن تحتفظ بكياناتها المستقلة ، ولأهل الذمة إن أرادوا أن يظلوا على عقائدهم مع دفع الجزية. والحق أن سيرة الرسول ﷺ الحسنة وسياسته فى المآخاة بين المهاجرين والأنصار فى المدينة ، وتسامحه مع قريش حين عقد صلح الحديبية، وبذل العهود لليهود ، كل ذلك حفز القبائل العربية للترحيب بالدعوة الإسلامية حينما بعث إليها الرسول دعاته يدعوها إلى الاسلام ، فى المحرم من سنة سبع هجرية، حيث خرج ستة نفر من هؤلاء الدعاة فى يوم واحد.

وكان أول داع وجهه الرسول ﷺ هو عمرو بن أمية الضمرى، بعثه إلى النجاشى بالحبشة وزوده بكتابين إليه : أحدهما يدعوه فيه إلى الإسلام ويتلو عليه القرآن ، والثانى يطلب منه أن يبعث إليه بمن قبله من المسلمين وأن يزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان التى كانت من بين المهاجرين مع زوجها ثم توفى، فرغب الرسول ﷺ فى الزواج منها استمالة لأبيها كى يعلن إسلامه. ونسخة الكتاب الأول هى : «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى النجاشى الأصحم ملك الحبشة. سلم أنت فإنى أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته . وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى فإنى رسول الله، وقد بعثت إليك ابن عمى جعفراً ونفراً معه من المسلمين، فإذا جاءوك فاقرهم ودع التجبر، فإنى أدعوك وجنودك إلى الله ، فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحى ، والسلام على من اتبع الهدى».

ويذكر ابن سعد أن النجاشى أخذ كتاب الرسول ﷺ فوضعه على عينيه، ونزل عن سريره فجلس على الأرض تواضعاً، ثم أسلم وشهد شهادة الحق، وأجاب على كتاب الرسول ﷺ بتصديقه وإسلامه على يدى جعفر بن أبى طالب ونسخة رده هى : « بسم الله الرحمن الرحيم إلى محمد رسول الله. من النجاشى الأصحم بن أبجر : سلام عليك يا نبى الله ورحمة الله وبركات الله الذى لا إله إلا هو الذى هدانى إلى الإسلام . أما بعد فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى فورب السماء و الأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت. وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قرينا ابن عمك وأصحابه فأشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين، وأرسلت إليك بابنى أرها بن الأصحم بن أبجر، فإنى لا أملك إلا نفسى، وإن شئت أن آتيك فعلت يارسول الله ». ثم زوج النجاشى الرسول ﷺ من أم حبيبة وأصدقها عنه أربعمائة ديناراً ذهباً وأرسلها مع مسلمى الحبشة فى سفينتين، فوصلوا المدينة فى جمادى الأول سنة سبع هجرية (سبتمبر ٦٢٨م).

وبعث الرسول ﷺ دحية بن خليفة الكلبى، أحد دعاته الستة إلى هرقل قيصر الروم يدعوه إلى الإسلام ، وكتب معه كتاباً وأمره أن يسلمه إلى عظيم بصرى ليرسله إلى قيصر ونص الكتاب هو : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى أما بعد. أسلم تسلم . وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن تتول فإن إثم الأكارين عليك ». والأكارين تعنى الفلاحين والمراد الذى يتبعونك وينقادون لك. وذكر اليعقوبى أن هرقل رد على الرسول ﷺ بكتاب جاء فيه : « إلى أحمد رسول الله الذى بشر به عيسى، من قيصر ملك الروم أنه جاءنى كتابك مع رسولك ، وأنى أشهد أنك رسول الله نجدك عندنا فى الإنجيل، بشرنا بك عيسى بن مريم، وأنى دعوت الروم أن يؤمنوا بك فأبوا، ولو أطاعونى لكان خيراً لهم، ولوددت أنى عندك فأخدمك وأغسل قدميك ». فلما قرأه الرسول ﷺ قال : سيبقى ملكهم ما بقى كتابى بينهم .

وبعث الرسول ﷺ عبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام وأرسل معه كتاباً هذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى

كسرى عظيم فارس. سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حياً . أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس، ( أى إثم أتباعك ) . فلما طالع كسرى كتاب الرسول ﷺ مزقه، فلما بلغ ذلك الرسول ﷺ قال : « مزق الله ملكه ».

وبعث الرسول ﷺ حاطب بن أبى بلتعة اللخمى إلى المقوقس، نائب هرقل على مصر فى الاسكندرية، يدعوه إلى الإسلام، وكتب معه كتابا بهذا المعنى، ونصه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط. سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم كل القبط . يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوااشهدوا بأنا مسلمون » . فأحسن المقوقس استقبال حاطب وأجاب بكتاب جاء فيه : « قد علمت أن نبياً قد بقى، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم، وقد أهديت لك كسوة وبغلة تركبها » ، ولم يزد المقوقس على ذلك ولم يسلم ، فقبل الرسول ﷺ هديته.

أما الداعى الخامس وهو شجاع بن وهب الأسدى، فقد بعثه الرسول ﷺ إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى صاحب دمشق يدعوه إلى الاسلام بكتاب نصه. « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر. سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله، فإنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى ملكك» . فلما قرأه الحارث رماه وقال : « من ينزع منى ملكى ؟ أنا سائر إليه ولو كان باليمن جئته » . ثم كتب إلى قيصر واستأذنه فى الخروج لمحاربة الرسول ﷺ ، فرد عليه قيصر ينهاه عن ذلك . فلما علم الرسول ﷺ بما فعله أمير الغساسنة قال : «باد وباد ملكه» .

وبعث الداعى السادس وهو سليط بن عمرو العامرى إلى هوذة بن على الحنفى أمير اليمامة يدعوه إلى الإسلام قائلاً له : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هوذة بن على . سلام على من اتبع الهدى واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى

الخف والحافر ، فاسلم تسلم ، وأجعل لك ما تحت يديك »؛ فلما قرئ عليه الكتاب رد على الرسول ﷺ بقوله : « ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله وأنا شاعر قومى وخطيبهم ، والعرب تهاب مكانى، فاجعل لى بعض الأمر أتبعك ». وكأنه أراد أن يشارك الرسول ﷺ نبوته ، فلما قرئ الكتاب على الرسول ﷺ قال : باد وباد ما فى يده، فمات بعد ذلك بقليل .

وذكر ابن الأثير أن الرسول ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدى بكتاب إلى صاحب بصرى، فلما نزل مؤتة وهى قرية من قرى البلقاء على حدود الشام، اعترضه أميرها شرحبيل بن عمرو الغسانى، فأوثقه رباطا ، ثم ضرب عنقه صبراً. ولم يقتل للرسول ﷺ رسول غيره، وكان قتله سببا فى البعث الذى سيرسله الرسول ﷺ إلى مؤته على ما سيأتى ذكره.

وفى العام الثامن للهجرة وجه الرسول ﷺ دعاة آخرين إلى سائر قبائل العرب فى داخل الجزيرة العربية يدعوهم إلى الإسلام ، فأرسل عمرو بن العاص إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى الأزديين أميرى عمان يدعوهما إلى الإسلام قائلاً لهما : « أما بعد . فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام . أسلما تسلما. فإنى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما . وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما ، وخيلى تحل بساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما ». فلما جاءهما الكتاب صدقا الرسول ﷺ وآمنا به وأسلما وأسلم معهما خلق كثير؛ ووضعت الجزية على من لم يسلم منهم.

كما وجه الرسول ﷺ العلاء بن الحضرمى، إلى المنذر بن ساوى أمير البحرين يدعوه إلى الإسلام ، فكتب إليه المنذر باسلامه وإسلام نفر من رعيته وقال : «فإنى قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضى يهود ومجوس فأحدث إلى من ذلك أمرك». فرد عليه الرسول بقوله : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى. سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. أما بعد . فإنى أذكرك الله عز وجل فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه وإنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ومن نصح لهم فقد نصح لى. وإن رسلى قد أثنوا عليك خيراً، وإنى قد شفعتك فى قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه

وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم. وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك. ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية».

كما كتب الرسول ﷺ إلى أقيال ( حكام ) اليمن وإلى بنى معاوية من كندة، وإلى بنى عمرو من حمير، وإلى جبلة بن الأيهم ملك غسان، وإلى أساقفة نجران وكهنتهم، وإلى أمراء ذى مرحب بحضرموت، وإلى قبائل بنى قنان بن يزيد الحارثيين، وإلى بنى طيئ وإلى بنى جذام، وإلى بنى زرعة وبنى الربعة من جهينة، وإلى بنى جعيل من بلى، وإلى بنى الجرمز بن ربيعة وهم من جهينة، وإلى بنى سليم وإلى غيرهم من قبائل العرب.

وتعتبر رسائل الرسول ﷺ إلى أمراء القبائل والملوك المجاورين لبلاد العرب نقطة تحول هامة فى سياسته الخارجية، وقد نجحت هذه السياسة ومهدت لتوحيد سائر أنحاء بلاد العرب فى السنة التاسعة من الهجرة التى عرفت بعام الوفود، كما سنرى.

**غزوة مؤتة ( جمادي الأول سنة ٨ هـ / سبتمبر ٦٢٩م ):**

لم يترتب على كتب الرسول ﷺ إلى ملوك ورؤساء الدول مشاكل تستوجب وقفة حاسمة سوى ما حدث فى منطقة الشام، وكان عليه أن يثأر لقتل رسوله الحارث بن عمير الأزدى على يدى شرحبيل بن عمرو الغسانى أمير مؤتة، ومقتل فروة بن عمرو الجذامى عامل الروم على معان وما حولها على أيدى الروم بعد أن بلغهم إسلامه. فأرسل فى جمادى الأول من تلك السنة جيشاً إلى الشام لتأديب أمير مؤتة المذكور.

أعد الرسول ﷺ جيشاً ضخماً عدته ثلاثة آلاف مقاتل على رأسهم زيد بن حارثة، وأوصى المسلمين بأنه إذا أصابه قدر فعليهم جعفر بن أبى طالب، فإن أصاب جعفر قدر فعلى الناس عبد الله بن رواحة الأنصارى، فإن أصيب عبد الله فليرتضى المسلمون رجلاً من بينهم يؤمرونه عليهم ؛ وخرج الرسول ﷺ وصحابته يودعون الحملة خارج المدينة، بعد أن أوصى أمراءها وصيته المشهورة التى تعتبر ناموس الحرب عند المسلمين حيث أوصاهم قائلاً : « أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من

المسلمين خيراً. اغزوا باسم الله فى سبيل الله من كفر بالله، لاتغدروا ولا تغلوا ولاتقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث فأيتهن ما أجابوك إليها ، فاقبل منهم وأكفف عنهم ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، فإن فعلوا فاخبرهم أن لهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين إن دخلوا فى الإسلام، فإن أبوا أن يتحولوا واختاروا دارهم فاخبرهم أنهم يكونوا كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله، ولا يكون لهم فى الفئ ولا فى الغنيمة شئ إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم، وإن أنت حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أن تستنزلهم على حكم الله، فلا تستنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لاتدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا ؟ وإن حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة رسوله ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإن تخفروا ذمتكم وذمة آبائكم خير لكم من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله. وستجدون رجالاً فى الصوامع معتزلين الناس فلا تتعرضوا لهم .. لاتقتلن إمرأة ولا صغيراً ضرعاً ولا كبيراً فانياً، ولا تغرقن نخلاً ولا تقلعن شجراً ولا تهدموا بناء ».

سارت الحملة نحو غايتها حتى بلغت معان من أرض الشام، وهناك بلغهم أن هرقل الروم قد علم بتحركهم نحو بلاده ، فحشد قواته فى مآب من أرض البلقاء، وتقدر المصادر العربية قوة الجيوش التى اشتبكت مع المسلمين بمائة ألف من الروم ومثلهم من القبائل العربية الموالية للروم من لخم وجذام وبلى وبكر، وهذا رقم كبير لا يمكن الموافقة عليه ، وما يمكن قبوله أن قوة الروم كانت تفوق قوة المسلمين بكثير. ولهذا فعندما شاهد المسلمون هذه الجموع الغفيرة أقاموا فى معان ليلتين يفكرون فيما يصنعون، وترددوا فى الإقدام أو الانتظار إلى أن يكتبوا للرسول ﷺ يخبرونه بعدد العدو فيأمرهم إما بالعودة أو يزودهم بإمداد يعينهم على حربه ، وكاد هذا الرأى يسود لولا أن تقدم عبد الله بن رواحة وقال لهم : « ياقوم إن التى تكرهون للتى خرجتم لها إياها تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، وما نقاتلهم إلا بهذا

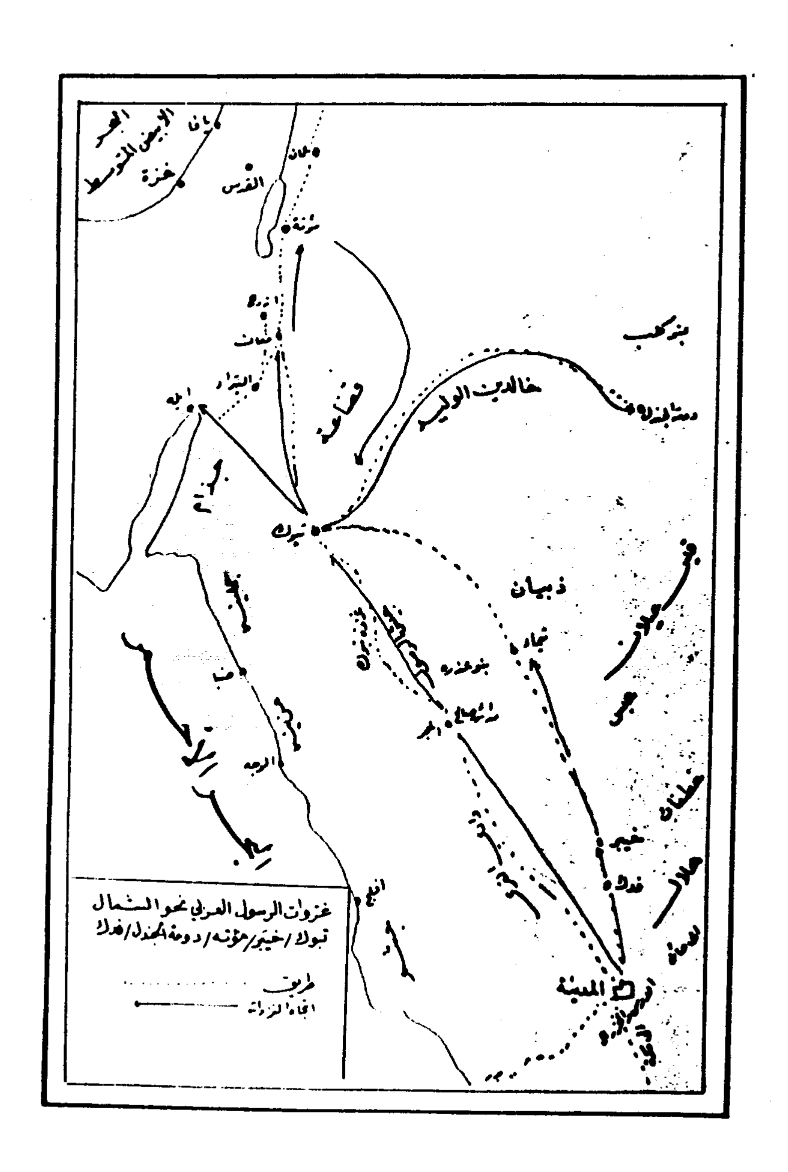
الدين الذى أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين : إما ظهور وإما شهادة،؛ فوافقه الجميع على هذا الرأى وأخذهم الحماس، فتحركوا نحو تجمع الروم وحدث اللقاء الأول فى قرية مشارف على تخوم البلقاء ، لكن لما كانت منطقة مؤتة أصلح للقتال لوجود العوارض الطبيعية، التى يستطيع المسلمون التحصن بها، حيال تفوق أعدائهم العددى الساحق، فقد قرر زيد اختيارها لمسرح الأعمال القتالية، فزحفوا إليها حيث وافاهم المشركون.

بدأ الهجوم باندفاع زيد بالراية إلى صفوف الأعداء، فحارب مستميتاً حتى مزقته رماح العدو، فتناول الراية جعفر بن أبى طالب واندفع بها فأصيبت يده اليمنى، فتناولها بيده اليسرى فقطعت أيضاً، فاحتضنها بعضديه حتى استشهد، فتناولها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل أيضاً، فتناولها ثابت بن أقرم، فهتف بالناس: ياقوم اصطلحوا على رجل منكم، فاصطلح المقاتلون على خالد بن الوليد. واشتد الأمر على المسلمين وتكالب عليهم العدو، ولما درس خالد الموقف قرر الانسحاب لتخليص المسلمين من المأزق الذى وقعوا فيه، واستفاد من حلول الظلام فأعاد تجميع الجيش، وشكل مؤخرة قوية لحماية الانسحاب وإعاقة مطاردة العدو له، وإنقاذ القسم الأكبر من الجيش من التطويق، وأحدث خالد ضجة عالية أوهم بها العدو بقدوم إمدادات جديدة للمسلمين، حتى اختالت الحيلة عليهم، وبذلك تمكن خالد من تنفيذ الانسحاب دون أن يكبد قواته خسائر تذكر، حتى عاد بهم إلى المدينة .

كان ذلك أول اشتباك جرى بين المسلمين وبين الغساسنة والروم المسيحيين، وتنحصر أهميته فى أنه أول تجربة حربية تجتازها الدولة الإسلامية على مستوى دولى، وإذا كانت هذه الموقعة انتهت بهزيمة جيش المسلمين، فإنما اعتبرها الرسول ﷺ جولة تعقبها كرة، إذ حينما عير أهل المدينة أصحاب مؤتة بأنهم فروا من المعركة قائلين لهم : يافرار ... فررتم فى سبيل الله ؟ ، رد على هذا الاتهام بقوله : « إنهم ليسوا بالفرار بل هم الكرار إن شاء الله » .

وبالاضافة إلى أنها كانت اختباراً لقوةالمسلمين، وفرصة للجيش الإسلامى للاحتكاك الدولى فى شمال شبه الجزيرة، فقد أطلعتهم على أسلوب قتال عدوهم، وهذا ما أفادهم فى معاركهم القادمة معهم ، كما فتحت المجال أمام القبائل العربية

الضارية فى الشمال للدخول فى الإسلام. على أن قريش اعتبرت هزيمة المسلمين فيها دلالة على ضعفهم، وخيل إليها أن هذه الهزيمة بداية لسلسلة من الهزائم، وعندئذ تشجعت فنقضت صلح الحديبية، ومدت يد العون لبنى بكر ضد خزاعة حلفاء المسلمين؛ وهو ما ترتب عليه فتح المسلمين مكة فى رمضان من نفس العام الثامن للهجرة على ما أشرنا إليه سابقاً .


البحر الأبيض المتوسط
يافا
غزة
القدس
مؤتة
قضاعة
خالد بن الوليد
بنو كلب
تبوك
جذام
ذبيان
تيماء
بنو عذرة
الحجر
خيبر
فدك
ينبع
المدينة
غزوات الرسول العربي نحو الشمال
تبوك / خيبر / مؤته / دومة الجندل / فدك
طريق
اتجاه الغزوات

**غزوتا حنين والطائف ( شوال سنة ٨ هـ / فبراير ٦٣٠م ) :**

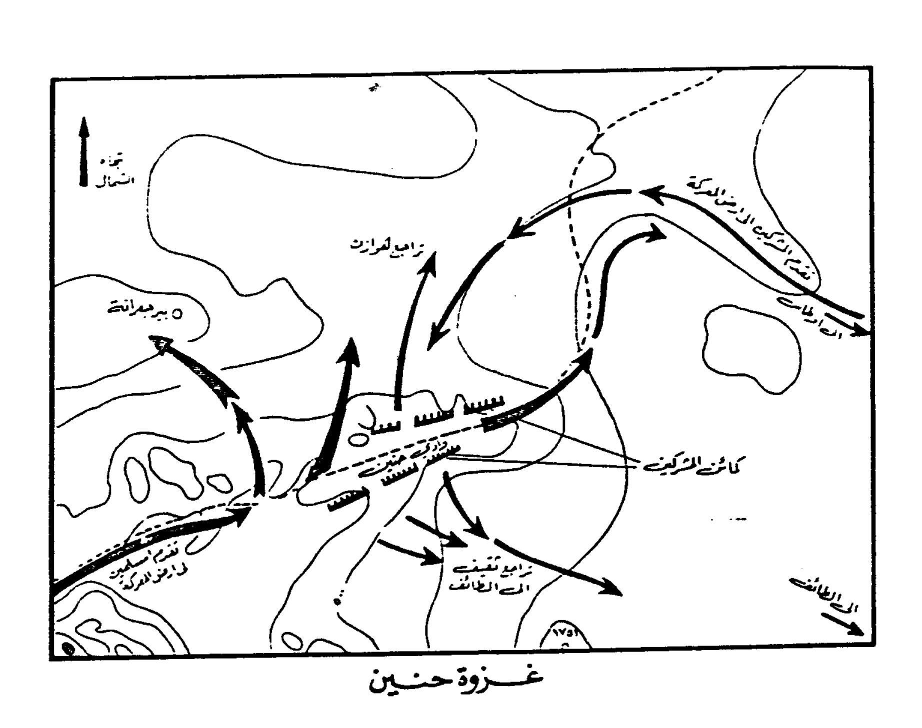
كانت مكة قبل الفتح تحمل لواء المعارضة للإسلام ، فلما فتحت اعتبرت قبيلتا هوازن وثقيف فى الطائف ذلك ضربة قاضية للوثنية فى الجزيرة العربية، وأيقنوا بأن الضربة التالية سيوجهها الرسول ﷺ إليهم ، لإرتباط الطائف بمكة فى الجاهلية. ولذلك فعندما بلغ هوازن فتح مكة جمعهم رئيسهم مالك بن عوف النصرى واجتمع إليه ثقيف وبنو نصر وبنو جشم وبنو سعد وجماعة من بنى هلال، وصمموا على محاربة الرسول ﷺ قبل أن يشرع فى الزحف إليهم. فخرجوا ومعهم أموالهم وماشيتهم ونساءهم وأولادهم ، ونزلوا بوادى أوطاس ، وهناك اعترض دريد بن الصمة من بنى جشم على اصطحاب النساء والأطفال، ونصح مالكاً قائد هوازن بتقديم الفرسان لمحاربة المسلمين، فلم يأبه مالك بهذه النصيحة . ولما علم الرسول ﷺ بخروجهم أعد جيشاً من المسلمين ، وخرج فى اثنى عشر ألف مقاتل، منهم عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وألفان من مسلمة الفتح أى الذين أسلموا من أهل مكة حين فتحها.

وصلت طلائع المسلمين إلى وادى حنين - وهو واد منحدر من أودية تهامة فى طريق الطائف - فى أول شوال من العام الثامن للهجرة، أى بعد خمسة عشر يوماً من فتح مكة، فدخلت الوادى قبل أول ضوء - عند الفجر - وكان وادياً أجوف منحدراً ينحط فيه الركبان كلما أوغلوا كأنهم يسيرون إلى هاوية، وما أن استقرت معظم قواتهم فيه حتى فوجئوا بوابل سهام المشركين، فأحدث هذا الهجوم المفاجئ أثره فى إرباكهم.

ذلك أن خطة هوازن قامت على احتلال مرتفعات الوادى ومضائقه قبل وصول المسلمين، وكمنت فى مواضعها المستورة تترصد وصولهم حتى إذا دخلته قوات المسلمين باغتتهم هوازن بالنبال من كل جانب لتحطيم معنوياتهم، ثم الهجوم عليهم لإرغامهم على الانسحاب. ولأن الظلام كان لايزال سائداً، وكانت مواضع المشركين مخفية ومموهة تمويهاً جيداً فقد اضطرت مقدمة المسلمين إلى الانسحاب، وجرفت فى انسحابها الكتلة الرئيسية لقواتهم ، وانقلب الانسحاب إلى هزيمة .

ترك المشركون مواقعهم ليطاردوا المسلمين، وكان يتقدمهم رجل على جمل له أحمر، وبيده راية سوداء فى رأس رمح طويل، فكلما أدرك المسلمين طعنهم برمحه، وهوازن وثقيف خلفه يطعنون ويضربون حتى انتشر الفزع بين المسلمين الذين ارتبكت صفوفهم ، واختلطت قبائلهم، وتزاحموا على المسالك لا يلوى أحد منهم على أحد ؛ حتى بلغ من شدة ارتباكهم أنهم لم يتنبهوا إلى الرسول ﷺ وهو ثابت على بغلته ومعه كبار الصحابة، منهم أبو بكر وعمر وعلى والعباس وأبو سفيان بن الحارث وابنه جعفر؛ ولما لم يسمعوا نداءه عليهم بالثبات، أمر عمه العباس – وكان جهير الصوت – أن ينادى عليهم بالعودة، فلما سمعوه أخذوا يناضلون ليشقوا طريقهم إلى حيث الرسول ﷺ، حتى اجتمع حوله قرابة مائة رجل وهم يصيحون : لبيك .. لبيك ، فناشدهم بالصمود فى استقبال قوات المشركين؛ فثبتوا يقاتلون قتال الأبطال، وكان النهار قد طلع وعرفت الوجوه بعضها بعضاً، واشتد القتال واستمر حتى الضحى، ولما تيقن الرسول ﷺ أن الكفة مالت لصالح المسلمين وفتر هجوم المشركين صاح برجاله قائلاً : الآن قد حمى الوطيس، شدوا عليهم. فكانت هذه الصيحة إيذانا ببدء الهجوم المضاد، واندفع المسلمون يمزقون صفوف أعدائهم بالسيوف والرماح، حتى أن ثقيف وهوازن رأت أن المقاومة لن تجديهم نفعاً، وأنهم لن يستطيعوا صد هجوم المسلمين، فانسحبوا من ميدان المعركة تاركين وراءهم نساءهم وأولادهم وأموالهم غنيمة للمسلمين، ولما لم يكن للمشركين حراسة قتالية فى المؤخرة لحماية الانسحاب فقد انقلب انسحابهم هزيمة.

انسحبت أكثر ثقيف وفى مقدمتهم مالك بن عوف باتجاه الطائف، وانسحبت هوازن والقبائل الأخرى باتجاه أوطاس ونخلة؛ وقام المسلمون بالمطاردة، فوصلت بعض قواتهم إلى أوطاس وأوقعت بهوازن خسائر فادحة فى الأرواح؛ كما وصلت قوات أخرى إلى نخلة وأوقعت بالمنسحبين إليها خسائر كبيرة أيضاً، ثم استسلم لها كثير منهم أسرى. فلما أنهت هذه القوات مطاردة المنسحبين إلى أوطاس ونخلة انضمت إلى قوة الجيش الرئيسى الذى كان يطارد الفارين إلى الطائف، وكانت مدينة حصينة ذات أسوار عالية ولها أبواب متينة يصعب اقتحامها.



اتجاه
الشمال
تراجع هوازن
بير جعرانة
كمائن المشركين
وادي حنين
تراجع ثقيف
الى الطائف
الى الطائف


غزوة حنين

أمر الرسول ﷺ بفرض الحصار على الطائف من جميع جهاتها، وأخذت القوات الإسلامية تضيق الحصار عليها، حتى أصبحت على مرمى السهام، فسددت ثقيف لها نبالها وأوقعت بها بعض الخسائر، فقرر الرسول ﷺ أن يبتعد بقواته إلى مسافة لاتستطيع معها سهام المشركين أن تنالهم، واستشار رجاله فيما يجب أن يصنع لفتح الحصن، فأشار عليه سلمان الفارسى بقذف السور بالمنجنيق – وهى آلة من آلات الحصار ترمى بها الحجارة الثقيلة – ومهاجمته بالدبابات وهى آلات تصنع من الخشب وتصفح بالجلود ليدخل فيها الجنود فيدبون إلى الحصون لينقبوها.

رمى المسلمون الطائف بالمنجنيق واقترب بعضهم إلى السور بحماية الدبابات ليحدثوا فيه ثغرة، لكن أهل الطائف استطاعوا إحباط هذا الهجوم ، إذ حموا قطعاً من المعادن بالنار، حتى إذا انصهرت ألقوها على الدبابات الخشبية فأحرقتها، واضطر المسلمون المحتمون بها إلى الانسحاب خشية أن يحترقوا بداخلها، فرمتهم ثقيف بالنبال.

ظل المسلمون مقيمين على حصار الطائف خمس عشرة ليلة، ولما استشار الرسول ﷺ صحابته فى استمرار الحصار أشاروا عليه بالانسحاب، فأمر بفك الحصار وإعلان الرحيل وعاد الجيش فى طريقه إلى المدينة ، تاركاً أمر ثقيف للزمن الذى كان يسير فى صالح الدعوة الإسلامية، ومن ثم رأى ألا فائدة من إراقة الدم العربى بيد العرب أنفسهم، لا سيما بعد أن فتح مكة وألحق الهزيمة بثقيف وهوازن فى حنين، وقد أثبتت الأيام صدق تقدير الرسول ﷺ فلم يمض وقت طويل على حصار الطائف حتى أعلنت ثقيف وهوازن إسلامهما. وفى الطريق وعند الجعرانة أمر الرسول ﷺ بتوزيع الغنائم، فرد على هوازن نساءهم وأبناءهم، وقسم الأموال بين المسلمين ، ثم أعطى المؤلفة قلوبهم من نصيبه ( الخمس ) ، ومن هؤلاء : أبو سفيان بن حرب وابنه معاوية، وحكيم بن حزام، والحارث بن الحارث، والحارث بن هشام بن المغيرة. ثم اعتمر الرسول ﷺ من الجعرانة إلى مكة ، ومن الأخيرة رجع إلى المدينة بعد أن كان قد استعمل عليها عتاب بن أسيد، فأقام الحج بالمسلمين تلك السنة، وهو أول أمير أقام الحج فى الإسلام، فدخل الرسول ﷺ المدينة فى اليوم الرابع والعشرين من ذى القعدة.

**غزوة تبوك ( رجب سنة ٩ هـ / اكتوبر ٦٣٠م ) :**

كان فتح مكة معقل الوثنية وإسلام ثقيف وهوازن، وامتداد سيادة الرسول ﷺ حتى حدود الشام، فضلاً عن انتشار الدعوة الإسلامية بين نصارى العرب الخاضعين للروم فى الشام؛ حتى أن أحد قادة فرقهم ويدعى فروة بن عمرو أعلن إسلامه وفضل أن يقتله الامبراطور على ألا يعود إلى المسيحية؛ كل ذلك دفع الامبراطور البيزنطى هرقل إلى الاستعداد لمناجزة المسلمين، فحشد قواته على حدود الشام الجنوبية، ووزع على قواته راتب سنة كاملة؛ كما فرق كثيراً من الأموال على نصارى العرب فى الشام تشجيعاً لهم على مؤازرة جيشه، ثم وجه طلائعه إلى البلقاء ليحول الأنظار عن التحشد الذى قام به فى منطقة تبوك.

ولما علم الرسول ﷺ بهذه الاستعدادت ، سارع إلى التصدى لتهديدات الروم وتحرشاتهم فأعلن النفير العام، ولم يخف نواياه على غزو المناطق الشامية المتاخمة لدولته فى هذه الغزوة ، مثلما كان يفعل فى الغزوات السابقة؛ لأن المسافة طويلة ولابد من تأمين النواحى الإدارية للجيش، كى لا يؤدى نقص المواد التموينية إلى إخفاقه.

وعلى الرغم من أن الوقت كان صيفاً شديد الحرارة، وكانت السنة سنة جدب، وكان المسلمون فى شدة وضيق بسبب القحط – ولهذا أطلق على هذه الغزوة غزوة العسرة – فقد أصر الرسول ﷺ على أن تكون له المبادأة فى مناجزة الروم، وتسارع المسلمون فى تلبية ندائه بالاستعداد والتأهب، وضرب كثير منهم المثل فى الفداء والتضحية فهذا عثمان بن عفان يتبرع بألف دينار مساهمة منه فى تجهيز الجيش، وذاك أبو بكر الذى دفع كل أمواله – وكانت أربعين ألف درهم – فلما سأله الرسول ﷺ عما أبقاه لأهله من مال، قال : أبقيت لهم الله ورسوله. ولم يقتصر الأمر على المسلمين من الرجال بل جادت كثير من النساء بحليهن مساهمة فى تجهيز الحملة. وعلى قدر حرص الرسول ﷺ على تعبئة كل قادر على حمل السلاح فقد رفض إشراك المنافقين، لأنهم لم يكفهم أن يقابلوا استنفاره بالفتور، وإنما أخذوا يثبطون الناس عن المضى للغزو متعللين بشدة الحر وجدب الأرض.

فلما اكتملت الاستعدادات خرج الرسول ﷺ على رأس جيش لم تشهد له الجزيرة العربية مثيلاً من قبل، إذ بلغ تعداده ثلاثين ألف مقاتل ، وراح يقطع بهم الصحراء القاحلة فى هذا الحر الساخن حتى وصل إلى تبوك، فلم يلق كيداً وصالحه أهلها على الجزية، أما جموع الروم فكانت حينما جاءتها الأنباء بضخامة الجيش الإسلامى وما يتمتع به من روح عالية، آثرت السلامة وانسحبت إلى الشمال. ومع ذلك قرر الرسول ﷺ أن يعسكر بقواته بعض الوقت فى المنطقة ليتخذها قاعدة يوجه منها السرايا والبعوث إلى النواحى المجاورة، حتى يضمن خضوعها له، ويقطع على الروم أمل الاستعانة بأهاليها العرب إذا ما فكروا فى غزو الحجاز من ناحيتهم.

بدأ الرسول ﷺ بأن وجه رسالة إلى يوحنا بن رؤية صاحب أيلة ، يطلب إليه الانضواء تحت راية الإسلام أو يغزوه؛ وما أن تسلم الرسالة حتى أقبل بنفسه إلى الرسول ﷺ وقدم له الطاعة، فصالحه على أن يؤدى جزية سنوية قدرت بثلاثمائة دينار ذهبى؛ واشترط عليه أن يقرى - أى يقدم المؤن لمن يمر عليه من - المسلمين. كما قدم عليه أهل أذرح فصالحهم على مائة دينار كجزية سنوية تؤدى فى شهر رجب، وصالح فى نفس الوقت أهل الجرباء على نفس الشروط ، وكتب لهم كتاباً جاء فيه : «هذا كتاب من محمد النبى رسول الله، أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار فى كل رجب وافية طيبة والله كفيل عليهم».

كذلك وفد عليه أهل مقنا اليهود فكتب لهم كتاب أمان هذا نصه : بسم الله الرحم الرحيم. من محمد رسول الله إلى بنى حبيبة وأهل مقنا . سلم أنتم فإنه أنزل على أنكم راجعون إلى قريتكم، فإذا جاءكم كتابى هذا فإنكم آمنون، ولكم ذمة الله وذمة رسوله. وأن رسول الله قد غفر لكم ذنوبكم وكل دم أتبعتم به ، لاشريك لكم فى قريتكم إلا رسول الله أو رسول رسول الله، وإنه لا ظلم عليكم ولا عدوان، وإن رسول الله يجيركم مما يجير منه نفسه، فإن لرسول الله بزتكم ورقيقكم والكراع والحلقة، إلا ما عفا عنه رسول الله أو رسول رسول الله ، وإن عليكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخيلكم وربع ما صادت عركم ، وربع ما اغتزلت نساؤكم. وإنكم قد برئتم بعد ذلكم، ورفعكم رسول الله عن كل جزية وسخرة، فإن سمعتم وأطعتم فعلى رسول الله أن يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم، ومن ائتمر فى بنى حبيبة وأهل مقناً من المسلمين

خيراً فهو خير له، ومن أطلعهم بشر فهو شر له، ليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهل بيت رسول الله ، وكتب على بن أبى طالب فى سنة تسع ».

كذلك وجه الرسول ﷺ خالد بن الوليد على رأس كتيبة قوامها نحو خمسمائة فارس إلى دومة الجندل، ففاجأها وفتحها بعدما قاتل ملكها أكيدر وأسره، ثم قدم به على الرسول ﷺ فعفا عنه عندما أعلن إسلامه أمامه، وصالحه على الجزية وكتب له ولأهل دومة الجندل كتاباً جاء فيه : « هذا كتاب من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد والأصنام ولأهل دومة. إن لنا الضاحية من الضحل (أى الأرض المرتفعة قليلة المياة )، والبور ( التى لم تزرع ) والمعامى ( المجهولة ) وأغفال الأرض ( التى لا آثار فيها ) ، والحلقة ( الدروع ) ، والسلاح والحافر ( كل ماله حافر من الحيوانات)، والحصن ، ولكم الضامنة من النخل ( الموجودة بالحصن) والمعين من المعمور ( الماء الدائم ). لا تعدل سارحتكم ولا تعد فاردتكم، ولا يحظر عليكم النبات، تقيمون الصلاة لوقتها ، تؤتون الزكاة بحقها، عليكم بذلك عهد الله والميثاق ولكم به الصدق والوفاء. شهد الله ومن حضر من المسلمين ». أى أنه بمقتضى هذا العهد تؤول إلى المسلمين الأراضى الظاهرة من المناطق المغمورة بالمياة والأراضى البور التى لم يسبق لها أن زرعت، بالإضافة إلى الأراضى غير المعروفة والتى لاصاحب لها، والدروع والسلاح والخيل والبغال والحصن. بينما يحتفظ أهل دومة الجندل بنخيلهم ومياههم الجارية الدائمة ومواشيهم التى ترعى فى مراعيها ومواضعها، ونباتهم الذى يزرعونه.

وقد ظل الرسول ﷺ مرابطاً بقواته فى منطقة تبوك عشرين يوماً حتى تدعمت هيبة المسلمين فى نفوس القبائل العربية الضارية بتلك النواحى؛ ثم انصرف عائدا إلى المدينة فوصلها فى رمضان من نفس العام التاسع للهجرة ( ٦٣٠م ).

**توحيد الجزيرة العربية :**

لما حان موعد الحج بنهاية العام التاسع، عهد الرسول ﷺ إلى أبى بكر بإمارة الحج، ثم أصدر بيان براءة الذى تضمنته سورة من سور القرآن الكريم هى التوبة، وفوض إلى على بن أبى طالب مهمة قراءته على مشهد من جميع الحجاج بمكة.

وتبدأ السورة المذكورة بذكر براءة صادرة من الله ورسوله إلى المعاهدين من المشركين ، ومعنى هذا أن الله برئ من المشركين وأنه لاعهود بينهم وبين الدولة الاسلامية، وهو لذلك يمهلهم فرصة أربعة أشهر للدخول فى الإسلام وفى الدولة الإسلامية، أو يعتبروا فى نظر الإسلام خارجين عليها ووجبت محاربتهم. فيقول سبحانه وتعالى : « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين. فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر وأعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين . وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برئ من المشركين ورسوله ، فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم . إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين. فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم. وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ». إلى آخر سورة التوبة .

ووفقاً لهذا البيان المعروف ببراءة يتضح لنا أن موقف الرسول ﷺ مع الوثنيين كان يختلف فى حالتين : فالمشركون الذين كانوا يرتبطون معه بعهود سابقة تنص على مدة معينة لم ينقصوها بنكث أو نقض ولم يظاهروا عليه أثناءها أحداً، توفى إليهم عهودهم إلى مدتهم التى ارتبط الرسول ﷺ بها، على ألا يسمح بتجديدها لتغير الظروف، وعليهم أن يدخلوا فى الإسلام وإلا حل للمسلمين قتالهم بعد ذلك. أما المشركون الآخرون فإنهم يمهلون أربعة أشهر، فإذا انسلخت هذه الأشهر حل للمسلمين قتالهم أينما وجدوهم حتى يتوبوا إلى الله ويعتنقوا الإسلام.

أما فيما يتعلق بالنصارى واليهود فعليهم أن يعلنوا خضوعهم للدولة الإسلامية بدفع الجزية يعطونها عن يد وهم صاغرون. أما المنافقون ممن عاهدهم الرسول ﷺ ولم يستقيموا وأبت قلوبهم أن تتقبل الإسلام فعليهم أن يطهروا أنفسهم من النفاق ويتوبوا إلى الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإن نكثوا إيمانهم فهم كفرة حل قتالهم.

وجاء فى البيان أيضاً أن مكة أصبحت بحرمها إسلامية بعد أن برئت الكعبة من الأصنام، وأن الحج أصبح يجرى على الطريقة الإسلامية، وأنه لا يجوز لغير المسلم أن يحج أو يقرب من المسجد الحرام.

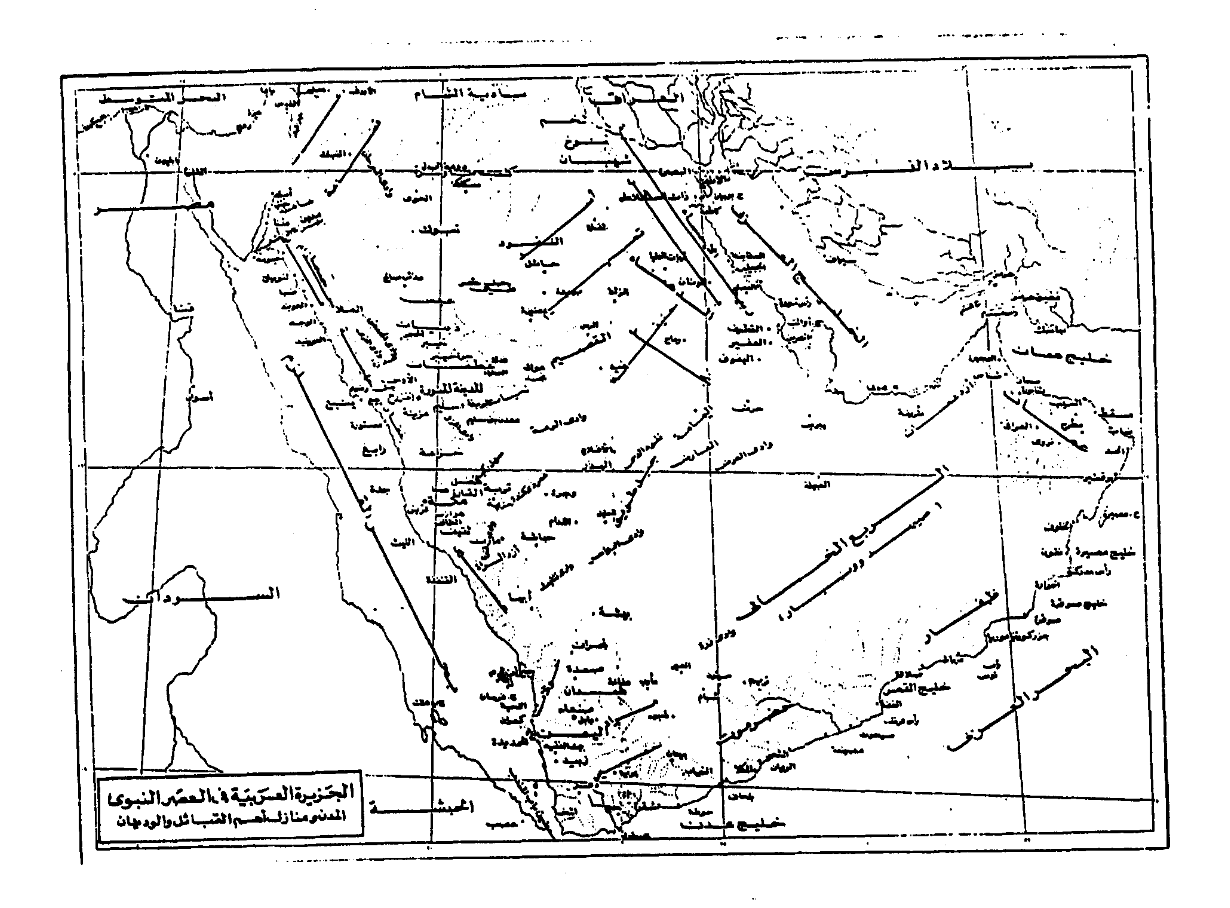
وكان بيان براءة بمثابة إنذار وجهه الرسول ﷺ إلى المشركين فى موسم الحج، وهو الموسم الذى يجتمع فيه كل ممثلى العرب فى بلاد العرب، بعد أن مكن لنفسه ولدولته بالانتصارات التى أحرزتها دولته فى المدينة على مدى السنوات التسع التى مرت منذ الهجرة، مثل موقعة بدر الكبرى، وغزوة الأحزاب، وفتح مكة، وغزوة تبوك ، وغزوة دومة الجندل وغيرها؛ وهدف بيان براءة هو ضم جميع قبائل العرب فى شبه الجزيرة إلى الدولة الإسلامية عن طريق إعلان تحولها إلى الإسلام وخضوعها لها ، وعلى هذا النحو بدأت وفود القبائل العربية تصل تباعاً إلى المدينة بعد فترة قصيرة من إذاعة هذا البيان، معلنة خضوعها للإسلام ودخولها فى طاعة الدولة ، وكان الرسول ﷺ يرسل مع هذ الوفود معلمين مهمتهم تعليم هذه القبائل قواعد الإسلام، وفى نفس الوقت تحصيل الصدقات منهم، وبفضل هؤلاء المعلمين دخلت قبائل العرب فى الإسلام .

وبدخول قبائل العرب فى الإسلام، وقدوم وفودهم إلى المدينة فى العامين التاسع والعاشر من الهجرة تبدأ صفحة جديدة فى تاريخ الدولة الإسلامية، التى أصبحت تضم جميع قبائل العرب على اختلاف أديانهم، باستثناء مناذرة الحيرة وغساسنة جلق والجابية، وهؤلاء الغساسنة بوجه خاص كانوا يشكلون خطراً ماثلاً على الدولة من الجهة الشمالية ، وقد أدرك الرسول ﷺ هذه الحقيقة منذ أن اعترض شرحبيل بن عمرو الغسانى رسوله وقتله، ومنذ أن احتك بهم المسلمون فى غزوة مؤتة، ولذلك عزم الرسول ﷺ على إنفاذ حملة جديدة لتأديبهم، وأعد لهذه الحملة وجعل على قيادتها أسامة بن زيد بن حارثة، وكان هدفها غزو مشارف الشام ، ولكن لم يقدر لهذه الحملة أن تحقق مهمتها فى حياة الرسول ﷺ، حيث انتقل إلى الرفيق الأعلى قبل أن تتحرك الحملة ؛ فتأخر خروجها إلى بداية خلافة أبى بكر.

ثم حج الرسول ﷺ حجة الوداع فى ذى الحجة من العام العاشر للهجرة

(مارس٦٣٢ م) وشهد انتصار الإسلام على الوثنية ممثلا فى الحشود الهائلة من الحجاج الذين امتلأت بهم ساحة الحرم، وشهد الرسول ﷺ كيف ارتفعت كلمة الإسلام بهذا العدد الضخم من الحجاج الذى بلغ ما يقترب من مائة ألف حاج من العرب ليس بينهم مشرك واحد .

ولما أدى الرسول ﷺ مناسك الحج على النظام الاسلامى، وأرى الناس مناسكهم وأعلمهم بسنن حجهم ، خطب فيهم فى عرفات خطبته الأخيرة، التى بين فيها مناسك الحج، كالوقوف بعرفات ورمى الجمار وطواف البيت وما أحل فى الحج وما حرم ، ثم عاد إلى المدينة فى الرابع عشر من ذى الحجة ثم مرض يوم السابع والعشرين من صفر وهو فى بيت ميمونة أم المؤمنين، فاستأذن صلوات الله عليه نساءه أن يمرض فى بيت عائشة فأذن له فى ذلك، وطال مرضه ﷺ حتى ارتقى إلى الرفيق الأعلى فى يوم الاثنين لاثنتى عشرة من ربيع الأول سنة إحدى عشرة هجرية ( يونيو ٦٣٢م )، بعد أن أكمل رسالته وأتم نعمته على المسلمين، أو كما قال الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً» .




الجزيرة العربية في العصر النبوي
المدن ومنازل أهم القبائل والوديان

# الفصل السادس
## نشأة النظم الإسلامية فى عهد الرسول ﷺ

حينما هاجر الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة أصبح رئيساً لأحزاب غيرمتجانسة، فعمد إلى توحيدها بأن ربط بين المهاجرين والأنصار برابطة المؤاخاة، ثم اتخذ مسجداً لصلاة المسلمين وللاجتماع بأتباعه، وشرع بعد ذلك فى وضع نظام للحياة الاجتماعية فى الدولة بالمدينة يكون دعامة الوحدة بين سكانها ، فوضع الصحيفة التى تعتبر بحق دستور دولته.

وإذا كانت تلك الأنظمة الثلاثة هى أبرز ما قام به الرسول ﷺ بالمدينة بعد الهجرة مباشرة، فإنها لم تكن كل النظم التى وضع أساسها وحدد اختصاصاتها، بل إن النظم الإسلامية التى تمت فى عهده كانت تنشأ تباعاً عندما كانت تدعو الحاجة إليها، أو تستجد من الأمور ما يحتم إنشاءها، وعلى هذا فقد جاءت النظم الإسلامية مواكبةلتطور الأحداث ومستجيبة لها فى نفس الوقت ، وربما كان هذا أحد أسباب عظمتها وأصالتها.

وسوف نركز على النظم السياسية والإدارية والاقتصاديةوالقضائية والجهاد، ونبين دور الرسول فى تأسيس كل منها وتأصيله .

**أولاً *النظام السياسى*:**

يمكن القول أن النظام السياسى الذى أقامه الرسول ﷺ كان يرتكز على مجموعة من الأصول التشريعية المقررة، وقد تمثلت هذه الأصول فى :

(١) أن الرسول ﷺ هو رئيس الدولة الإسلامية ومرجعها فى كل شئ فقال تعالى : « يا أيها الذين أمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً »، وقوله أيضاً : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » وأيضاً : « وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ».

وقد سبقت الإشارة إلى أنه ﷺ قرر هذا المبدأ فى بيان « الصحيفة»، كما أكدته – فيما بعد – ممارساته السياسية، سواء فى الحرب والسلم والإدارة والاقتصاد وغيرها من النظم، ويكفى أن نشير هنا إلى موقفه من المكيين بعد فتح مكة عندما جمعهم فى المسجد الحرام، وقرر سلطته عليهم ثم أصدر عفوا شاملاً عنهم بقوله : « اذهبوا فأنتم الطلقاء ».

على أنه ينبغى أن يكون واضحاً أن سلطاته ﷺ لم تكن مطلقة، وإنما كانت تدور فى نطاق الالتزام بمبادئ الدين وأهدافه، وقد جاءت النصوص صريحة فى هذا المجال ، فيقول القرآن على لسان الرسول ﷺ : « إن أتبع إلا ما يوحى إلى ........». ويقرر المبدأ الذى لم يتغير بالنسبة لكل الأنبياء والرسل وهو : « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ، ثم قوله أيضاً : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » .

ولم يكن الرسول ﷺ مع هذا مستبداً برأيه وحده، وإنما كان يستعين بأراء كثير من الصحابة، وبخاصة أبى بكر حتى كان العرب الذى اختلطوا بالفرس والروم والحبشة- وعرفوا شيئاً عن النظم السياسية لتلك الدول- يطلقون على أبى بكر لقب (وزير محمد )، غير أن هذا اللقب لم يكثر استعماله فيكتب له الذيوع والانتشار آنذاك لأن الدولة كانت فى بداية عهدها.

(٢) أن القرآن الكريم هو دستور هذه الدولة ، فهو يتضمن الشرائع والقوانين والتنظيمات التى أرادها الله لعباده لقوله تعالى : « إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون، لايمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين »، وقوله أيضاً : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين» ، وكذلك : « مافرطنا فى الكتاب من شئ ». ولذا فإن هذا الدستور يجب أن تنفذ أحكامه ولا تتعطل تنظيماته ، لقوله تعالى: « وأحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك » و « وأن احكم بينهم بما أنزل الله إليك ».

ولكن الملاحظ أن توجيهات القرآن السياسية قد جاءت على هيئة مبادئ عامة وقوانين كلية، كإقامة العدل والحق، والتعاون على البر والتقوى، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، واحترام الإنسان والكف عن العدوان ، ومطالبة أفراد الجماعة الإسلامية بالقيام بواجباتهم التى حددها لهم ، وغيرذلك من المبادئ التى اشتمل عليها. ولذلك يجنح بعض الباحثين إلى القول بأن الإسلام ليس له نظرية سياسية أو نظام سياسى محدد، ومع أن أصحاب هذا الرأى يريدون الغض من التصور السياسى للإسلام، إلا أن الدراسة المنصفة تذهب إلى عكس هذا الرأى تماماً، وترى أن مجئ هذه المبادئ الإسلامية فى تلك الصورة الكلية دليل على عمق نظرته وسر خلوده .

فالإسلام دين عالمى جاء خاتماً للأديان كلها، ولذا اقتضى أن تكون مبادئه صالحة للخلود، وتستجيب لمتطلبات العصور التالية دون أن تتناقض مع تجدد احتياجات كل عصر أو توقع المسلمين فى الحرج والضيق، لأن هذه المبادئ لو جاءت مفصلة لوجب عليهم فى كل زمان ومكان الالتزام والوقوف عندها، وإلا اعتبروا خارجين عن التمسك بالدين الصحيح، وفى ذلك تضييق وحجر على العقول من التفكير الحر الملائم لحل المشكلات الجديدة، وتشكيل الحياة بصورة مناسبة لزمانها، مادام ذلك نابعاً من روح الدين وغير خارج على أصوله أو نصوصه . ومع هذا فليس هذا الموقف غريباً أو منكراً بالنسبة للقرآن الكريم، بل يعد فى الواقع سبقاً مشهوداً له فى مجال التشريع، حيث أننا نجد أن الدساتير الحديثة التى يحترمها أتباعها، ويريدون لها الثبات والاستقرار تصاغ موادها فى قوالب كلية، ويكتفى فيها بوضع الأسس العامة دون الدخول فى التفصيلات الجزئية، أو التوقف للحديث عن الإجراءات التنفيذية، بل يترك ذلك للمذكرات التفسيرية التى يضعها خبراء الفقه الدستورى، وليس هذا كله إلا امتداداً للنظام الإسلامى، حيث كان الرسول ﷺ يقدم بسنته النبوية الشروح والتطبيقات الفعلية لما جاء به القرآن الكريم من مبادئ ونظم.

(٣) أن الشورى هى الوسيلة الإسلامية لاستطلاع رأى الأمة فى كافة المواقف والمشاكل التى تعرض لها ، وتتطلب منها الإدلاء بآرائها والمشاركة بجهود أبنائها لمجابهة هذه المواقف ووضع الحلول لها ، فقد أمر الله سبحانه وتعالى الرسول ﷺ بالمشاورة فقال: « وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » ، ثم وصف المجتمع الإسلامى بأن الأمور شورى بين أفراده فقال: « ... وأمرهم شورى بينهم ... »، وقد كانت سياسة الرسول تطبيقا واعياً لهذا المبدأ فيقول أبو هريرة : « لم يكن أحد أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ ».

وهناك كثير من الأحداث التاريخية التى تثبت أن الرسول ﷺ كان كثيراً ما ينزل على رأى أصحابه، ويحترم الاتجاه الغالب فيما بينهم، كما كان يرجح أحياناً رأيا على آخر لما يرى فيه مصلحة تعود على الدولة ، فقد نزل على رأ ى الحباب بن المنذر وسعد بن معاذ فى مكان نزول الجيش الإسلامى، ومكان قيادته ﷺ لهذا الجيش فى غزوة بدر، ثم استجاب لرأى الأغلبية من شباب المسلمين فى الخروج للقاء قريش

فى أحد، ونفذ مشورة سلمان فى حفر الخندق، ورجح رأى أبى بكر فى قبول الفداء فى أسرى بدر، وغيرها من الصور التى تَفيض بها حياته ﷺ فى كافة المجالات.

وهكذا كان الرسول ﷺ يستشير أهل الرأى والخبرة ممن شهد لهم بالعقل والفضل ، وأظهروا حرصهم على الدين ونصرة الدولة الإسلامية، حتى قيل أنه ﷺ كان له مجلس شورى يتكون من سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار منهم حمزة ، وجعفر بن أبى طالب، وأبو بكر، وعمر وعلى وابن مسعود وسلمان وعمار وأبو حذيفة وأبو ذر والمقداد وبلال وغيرهم . ولم يكن يقتصر فى مشاورتهم على أمر دون آخر، وإنما كان يكثر طلب الرأى منهم فى كثير من أحواله العامة والخاصة على السواء.

وبتحقيق هذه المرتكزات الأساسية الثلاثة (١) القيادة العليا للدولة (الرسولﷺ) و(٢) الدستور الدائم ( شريعة القرآن )و (٣) المشاركة الشعبية ( إرادة الأمة أو الشورى ) يمكن القول بجلاء أن أهم عمد النظام السياسى فى الإسلام قد أقيمت وأصبحت مهيمنة على شئون الدولة ، وأنها هى التى تعطيها فى الوقت نفسه صفتها المميزة، وشخصيتها المستقلة النابعة من الدستور : « الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه »، والمتمثلة فى شخصية قائدها وأخلاقياته وممارساته ، وانفعال الجماعة الإسلامية بنظامها وقائدها، ومدى مشاركتها قولاً وعملاً فى مسئولياتها ، والأعباء الملقاة على عاتقها، وباجتماع هذه العناصر الثلاثة تحققت للدولة الإسلامية سيادتها وتفردها عن غيرها من الدول فى القديم والحديث على السواء.

ويوضح أحد الباحثين هذا المعنى بجلاء ، ويفرق بين سيادة الدولة فى الإسلام وفى غيرها من النظم السابقة أو اللآحقة بقوله « السيادة بمعناها العصرى عند الآخرين أو مقلديهم من المسلمين غيرها فى النظام الإسلامى ، فهى فيه مكونة من عدة قوى يجتمع بها سلطانها هى : الشريعة والأمة والإمام حارس الشريعة ومختار الأمة، ولذلك يسمو النظام الإسلامى على ماعداه ، فهو يكفل أصول المبادئ الأخلاقية العامة وأسس العدل والمساواة بين الخلق والإخاء البشرى، فيقيم الحقوق والواجبات البشرية على قواعد الشمول والخلود بأمر الله تعالى وإرادته، فيقطع بذلك السبيل على الهوى والتعصب والتحزب إذ ليس للأمة ولا للملوك ولا للرؤساء ولا

للعامة سبيل إلى نقض حقوق الإنسان وواجباته بدعوى حرية الأمة وسيادتها فى وطنها ».

فمفهوم السيادة فى الشريعة الإسلامية غير مفهوم السيادة الشعبية فى دساتير الأقوام الأخرى ودساتيرنا المنقولة عنها، إذ هى لا تتحقق إلا بإجتماع العناصر الثلاثة التى ذكرناها : الشريعة الإسلامية والأمة ممثلة فى أهل الحل والعقد، والإمام المختار، ففيهم مجتمعين السلطان الذى يسمى حق السيادة التى كانت قديماً للملوك وصارت حديثاً للشعوب .

وقد ظلت هذه الركائز العمود الفقرى للنظام السياسى فى الإسلام حتى بعد تغير القيادة بوفاة الرسول ﷺ، إذ بادر المسلمون إلى ملء الفراغ الذى حدث فى منصب القيادة بإنشاء نظام الخلافة، وهو ما سنتحدث عنه فيما بعد .

**ثانياً *النظام الإداري*:**

كان الرسول ﷺ بحكم منصبه رئيساً للدولة يباشر بنفسه كثيراً من الأعمال التى تتطلبها مصلحتها، فكان يتولى إدارة المدينة ويأمر بكتابة الرسائل إلى الملوك والرؤساء ويستقبل الوفود، وغير ذلك من المهام الإدارية كإشرافه على إعداد الجيش أثناء الاستعدادت الحربية ، وتقسيم الغنائم والفيوء التى تتمخض عنها الحروب ، ومن ثم فإنه نظراً لتعدد مصالح الدولة وتشعب أنشطتها بدأ الرسول ﷺ ينشئ نظاماً إدارياً ليتولى القائمون به الإشراف على تنفيذ المهام التى يسندها إليهم، ومن هنا فإن النظام الإدارى هو الهيئة التى يناط بها تنفيذ السياسات العليا لتحقيق أهداف الدولة كما يتصورها الرسول ﷺ فى شتى المجالات ، وقد تولى القيام بهذه الأعباء مجموعة من الإداريين الأكفاء المشهود لهم بالمهارة وحسن التصرف فى ميادين الحكم والاقتصاد وغيرها من مناشط الحياة المختلفة.

ويمكن أن نلمح أولى مراحل هذا التنظيم الإدارى منذ بيعة العقبة الثانية عندما طلب الرسول ﷺ من المبايعين أن يختاروا من بينهم اثنى عشر نقيباً تكون لهم الكلمة بين قومهم ، ويكونوا مسئولين أمامه مسئولية مباشرة. ولقد قام هؤلاء النقباء – كما سبق القول – بتمهيد وتهيئة المجال لنجاح الدعوة الإسلامية فى المدينة ، وضمنوا بعملهم هذا أن تقوم المدينة بدورها المنتظر فى المجال الإسلامى.

ولا شك أن الرسول ﷺ كان على جانب كبير من الذكاء ، والعبقرية السياسية مما جعله يحلل ملكات أصحابه، ويقدر مواهبهم ويعرف مدى ملاءمة كل منهم للقيام بعمل معين، فكان يقول : أرحم أمتى بأمتى أبو بكر ، وأشدهم فى دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان ، وأقضاهم على، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت ؛ وأقرؤهم أبى بن كعب، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة . ولذلك نجده ﷺ يكثر من استخدام بنى أمية فى الأعمال حتى قيل أن ثلاثة أرباع عماله كانوا من بنى أمية، لأنه طلب للأعمال أهل الجزاء والغناء من المسلمين ، ولا شك أن بنى أمية كانوا مشهورين بين العرب بالقيادة والرئاسة، ويعلل ابن خلدون ذلك بقوله : « لأن عصبية ( قوة ) مضر كانت فى قريش، وعصبية قريش فى عبد مناف، وعصبية عبد مناف كانت فى بنى أمية تعرف ذلك لهم قريش، وسائر الناس ولا ينكرونه ».

وفى إطار الخطة التى وضعها الرسول ﷺ للنظام الإدارى يمكن أن نتلمس البذور الأولى لكثير من المؤسسات التى ستتفرع فيما بعد، وكان من أهم الأشكال الإدارية فى عهده ﷺ ما يلى :

**( أ ) *الولاة علي المدن والبلدان* :**

سبقت الإشارة إلى أن الرسول ﷺ كان الحاكم العام للمدينة ، ولكنه لم يكن دائم البقاء فيها، بل كثيراً ما كان يخرج على رأس الجيوش لتأمين حدود الدولة وصد الأعداء عن غزوها، أو فى محاولة لفتح طرق جديدة للدعوة الإسلامية حتى تصل كلمتها للناس جميعاً، وفى هذه الحالة لم يكن يترك المدينة دون حاكم، بل كان ينيب عنه من يحكمها باسمه ليتولى تصريف شئونها اليومية كأن يؤم المسلمين فى الصلاة، ويقضى بينهم فى الخصومات، ويكون على أهبة الاستعداد للدفاع عن المدينة ضد أى حدث طارئ ، ويحدثنا ابن هشام عن نواب الرسول ﷺ على المدينة بصفة تكاد تكون منتظمة كلما خرج فى إحدى الغزوات . وقد ترددت أسماء كثير من الصحابة فى هذا المجال كسعد بن عبادة، والسائب بن مظعون، وزيد بن حارثة ، وسباع بن عرفطة، وعبد الله بن أم مكتوم، وعثمان بن عفان، وأبى ذر الغفارى وغيرهم . ومن الجدير بالذكر أن بعض هؤلاء تولى إمرة المدينة أكثر من مرة كعبد الله بن أم مكتوم وسباع بن عرفطة.

وأصبحت هذه القاعدة الإدارية هى السائدة فى الإمارة على المدن والبلدان التى تم فتحها فى عهد الرسول ﷺ، فقد أسند حكم مكة إلى عتاب بن أسيد، وفرض له مرتباً على عمله ، فباشر مهام منصبه وحج بالمسلمين فى السنة التاسعة للهجرة، فكان أول أمير للحج فى الإسلام ، كما أسند رئاسة ثقيف إلى عثمان بن أبى العاص وكان من أحدثهم سناً، وذلك لأنه كان حريصاً على تعلم القرآن والتفقه فى الإسلام، واستعمل فروة بن مسيك المرادى على قبيلة مراد وما حولها من القبائل كزبيد ومذحج، وجعل صرد بن عبد الله الأزدى أميراً على من أسلم من قومه، ثم كلفه بمجاهدة من يليه من المشركين فى اليمن، وهكذا كان الرسول ﷺ يجعل أمير أو شيخ كل قبيلة حاكما عليها بعدما أعلنت إسلامها وانضمامها إلى إطار الدولة الإسلامية فى العام التاسع الهجرى (عام الوفود ) كما يتضح ذلك فى إمارات البحرين والأحساء وقبائل كندة وعبد القيس وهمدان وغيرهم.

**(ب) *الكتاب* ( نواة ديوان *الرسائل* والانشاء ):**

كانت الحاجة ملحة لضرورة كتابة القرآن فور نزوله حتى يتمكن الصحابة من حفظه، ويطمئن الرسول ﷺ إلى أنه سيظل محفوظاً من بعده كما أملاه ودون فى عهده، ولذلك اهتم باختيار مجموعة من الصحابة كانوا مشهورين بأنهم من «الكملة »، وهم أولئك الذين يتقنون الكتابة وبعض المهارات كالرمى والسباحة، وبدأ هؤلاء يدونون القرآن الكريم ومن أشهرهم على بن أبى طالب، وعثمان بن عفان ، وأبى بن كعب وزيد بن ثابت. ولكن عندما بدأت الدولة تتعدد مصالحها وتحتاج إلى تخصيص عدد من الكتاب يتولى كل منهم ناحية معينة كثر عدد كتابه ﷺ حتى وصل عددهم – فى بعض المصادر – إلى ثلاثة وعشرين كاتبا، ويمكن أن نتعرف على بعض هؤلاء الكتاب فى المجالات التالية :

١ – خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان يكتبان بين يديه ﷺ فى حوائجه.

٢ – المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير يتوليان الكتابة العامة بين الناس سواء فى معاملاتهم أو ما يجب عليهم من أموال الديات، فيقومان بتوثيق هذه العقود.

٣ – عبد الله بن الأرقم والعلاء بن عقبة يختصان بكتابة أنساب القبائل، وأماكن

مرعاهم ومياههم، وكذلك ما كان يطرأ بين الأنصار من مشاكل وخاصة فى الحقوق بين النساء والرجال .

٤ - زيد بن حارثة وعبد الله بن الأرقم كانا يتوليان كتابة الرسائل إلى الحكام والملوك.

٥ - معيقب بن أبى فاطمة كان مختصاً بكتابة الغنائم الحربية .

٦ - الزبير بن العوام وجهم بن أبى الصلت يكتبان أموال الصدقات.

٧ - حذيفة بن اليمان كان يتولى تقدير الإنتاج من فواكه الحجاز ، كما كان يقوم عبد الله بن رواحة بتقدير إنتاج اليهود فى خيبر وتقسيمه بمقتضى الشروط التى تم الاتفاق عليها فى معاهدة التسليم.

٨ - ناجية الطقاوى ونافع بن ظريف النوفلى يكتبان المصاحف .

٩ - زيد بن ثابت كان يتولى الكتابة إلى اليهود ويتلقى مكاتباتهم ، فقد روى عنه أنه قال : أمرنى رسول الله ﷺ أن أتعلم كتابة يهود ، وقال لى : أنى لا آمن يهود على كتابى. فلم يمر بى نصف ( ربما كان يقصد نصف عام ) حتى تعلمته، فكنت أكتب له إلى اليهود ، وإذا كتبوا له قرأت كتابهم.

١٠- حنظلة بن الربيع كان يقوم بالكتابة إذا ما تخلف أحد الكتاب أو تغيب عن عمله، حتى أطلق عليه لقب « الكاتب » وقد زيد على من تقدم من الكتاب أبو بكر، وعمر وشرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص والعلاء بن الحضرمى وغيرهم.

وعلى أية حال فإن هؤلاء الكتاب كانوا يشكلون النواة الأولى لديوان الرسائل أو ما اصطلح - فيما بعد - على تسميته بديوان الإنشاء ، لأنهم كانوا يقومون بشتى الأعمال التى يقوم بها هذا الديوان، وقد حفظت كتب التاريخ وبخاصة سيرة ابن هشام نصوصاً كثيرة للكتب التى صدرت عن الرسول ﷺ متضمنة عهوده ، ومواثيقه ومكاتباته إلى القبائل العربية والممالك المحيطة بالدولة الإسلامية والدول العالمية الشهيرة فى عهده، يدعوهم فيها إلى الدخول فى الإسلام ويحذرهم مغبة الكفر والعناد. غير أنه يمكن القول أن هذه الكتب كانت من إنشائه ﷺ، على عكس ماحدث فيما بعد حيث كان الكتاب هم الذين يقومون بصياغة الأفكار التى يريد الحاكم التعبير عنها، والكتابة فيها دون أن يعنى هو بإرهاق نفسه فى كتابتها وصياغتها.

وكانت الكتب تصدر بالبسملة ثم تبدأ بذكر اسمه ولقبه ﷺ ثم بذكر اسم من توجه إليه الرسالة، وتختم عادة بالنص على اسم الكاتب، كما كانت الكتب تختم بخاتم خاص بالرسول ﷺ، وكان هذا الخاتم مصنوعاً من الفضة على هيئة مربع نقش عليه فى ثلاثة أسطر محمد رسول الله ( كل كلمة منها فى سطر تبدأ بـ « الله » فى أعلى ثم «رسول» فى الوسط ثم «محمد» فى الأسفل ) ، وذلك بعد أن علم ﷺ من بعض أصحابه أن ملوك الروم لا يقرأون كتاباً إلا إذا كان موثقاً بخاتم صاحبه .

ومما يذكر أن الرسول ﷺ أصدر أمراً بمنع تقليد هذا الخاتم، لأنه كان يدرك أهميته الخاصة فى توثيق مكاتبات الدولة كما هو متبع الآن بالنسبة للأختام الرسمية التى لا يجوز تقليدها، وإلا وقع من يفعل ذلك تحت طائلة العقاب - فقد روى أنه ﷺ قال « قد صنعت خاتماً فلا ينقش أحد على نقشه ».

**(جـ) جامعو *الضرائب والصدقات* ( *عمال الخراج* ):**

اقتضى النظام الاقتصادى - الذى سنتحدث عنه فيما بعد - وجود مجموعة من العمال الذين يقومون بتحصيل الأموال المقررة لدى الأفراد والجماعات، والمحافظة عليها وتوزيعها على أصحاب الحق فيها ، ثم تسليم حصة الدولة فى هذه الأموال إلى الرسول ﷺ بعد عودته إلى المدينة ، ومن هنا وجه الرسول ﷺ كثيراً من أصحابه الذين اشتهروا بالأمانة والدقة فى التقدير، والبعد عن الطمع والتعفف عن قبول الهدايا أو الرشا ، والتنزه عن المحاباة إلى القبائل المختلفة، لجمع الأموال الواجبة فى ممتلكاتهم التى تجب فيها الزكاة، أو بعض الضرائب التى تم الاتفاق عليها، أو الجزية من أهل الكتاب.

ولعل الصورة التى تقدمها المصادر التاريخية لعبد الله بن رواحة تؤيد مدى حرصه ﷺ ودقته فى اختيار عماله، إذ يروى ابن هشام والبلاذرى - فى فتوح البلدان - أن عبد الله بن رواحة كان مكلفاً بتقدير حصة الدولة لدى يهود خيبر ، وكان يذهب إليهم فى كل عام لتقدير ماعليهم من الثمار، وقد حاولوا أن يشتروا ذمته بإعطائه بعض الأموال حتى يتسامح معهم فى التقدير، لكنه وقف منهم موقفاً حاسماً وقال: « ياأعداء الله أتطعموننى السحت ! والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلى ،

وإنكم لأبغض إلى من عدتكم من القرود والخنازير، ولن يحملنى بغضى لكم: وحبى إياه إلا أن أعدل بينكم. فقالوا : بهذا قامت السماوات والأرض »، وعندما استشهد ابن رواحة فى غزوة مؤتة جعل الرسول ﷺ مكانه فى استيفاء حق الدولة من اليهود لجبار ابن صخر بن أمية السلمى .

وقد حاول ابن هشام أن يقدم ثبتاً كاملاً بأسماء عمال الرسول ﷺ على سائر مناطق شبه الجزيرة العربية فقال : كان رسول ﷺ قد بعث أمراءه وعماله على الصدقات إلى كل ما أوطأ الإسلام من البلدان، فبعث المهاجر بن أمية بن المغيرة إلى صنعاء ، وبعث لبيد بن زياد الأنصارى إلى حضرموت وعلى صدقاتها، وبعث عدى ابن حاتم إلى طئ وعلى صدقاتها وعلى بنى أسد ، وبعث مالك بن نويرة على صدقات بنى حنظلة، وفرق صدقة بنى سعد على رجلين منهم، وكان قد بعث العلاء ابن الحضرمى على البحرين، وبعث على بن أبى طالب إلى أهل نجران ليجمع صدقتهم ويقوم عليهم بجزيتهم.

ولا شك أن الرسول ﷺ كان يقدر أهمية العمل الذى يقوم به هؤلاء الولاة والعمال، فكان يوصيهم بإقامة العدل ، ويرسم لهم المناهج الرشيدة التى يسيرون عليها فى أداء عملهم ، وربما كانت وصيته ﷺ لمعاذ بن جبل حينما أرسله إلى اليمن تجمع كل هذه المعانى السابقة إذ جاء فيها: « أما أنك تأتى قوماً من أهل الكتاب فقل لهم : أن الله فرض عليكم فى اليوم والليلة خمس صلوات فإن أطاعوك فقل : أن الله فرض عليكم فى السنة صوم شهر رمضان فإن أطاعوك فقل : أن الله فرض عليكم حج البيت من استطاع إليه سبيلا فإن أطاعوك فقل : أن الله قد فرض عليكم فى أموالكم صدقة تؤخذ من أغنيائكم فترد فى فقرائكم فإن أطاعوك فإياك وكرائم أموالهم، وإياك ودعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب ولا ستر ».

ولعل السر فى هذه الدقة فى الاختيار، والتركيز على حسن الآداء لهؤلاء العمال يرجع إلى أنهم كانوا هم الذين يحتكون بجماهير المسلمين فى حياتهم اليومية، وتؤثر السياسة التى ينتهجونها فى رسم الصورة الصحيحة أو الخاطئة لدى هذه الجماهير عن الإسلام، ولذا فإن الرسول ﷺ كان يحاسب عماله حساباً دقيقاً، ويفتش على مصادر ثرواتهم ، ويسمع ما يلقى إليه من أخبارهم ، ويستجيب لمطالب الرعية

بعزل الولاة إذا ما تبين له صدق شكواهم، فقد عزل العلاء بن الحضرمى - عامله على البحرين - لأن وفد عبد القيس شكاه وولى بدلاً منه أبان بن سعيد وقال : استوص بعبد القيس خيراً ، وأكرم سراتهم. وعندما رجع أحد العمال على الصدقات وحاسبه الرسول ﷺ ، بادر العامل إلى عزل بعض الأموال وقال للرسول : هذا لكم، وهذا أهدى إلى. وهنا غضب الرسول ﷺ وعنف هذا العامل، وقام فى الناس خطيباً وقال : مابال الرجل نستعمله على العمل بما ولانا الله، فيقول هذا لكم وهذا أهدى إلى أفلا قعد فى بيت أبيه وأمه فنظر أيهدى إليه أم لا ؟.

**ثالثا النظام الاقتصادي:**

اقتضت الظروف التى قامت فيها الدولة الإسلامية فى المدينة أن يكون نشاطها الاقتصادى بسيطاً، فقد كانت الرقعة الجغرافية التى نشأت عليها محدودة المساحة قليلة السكان ، ولهذا فإن مصادر الدخل كانت محدودة ونفقاتها كانت محدودة أيضاً ومن ثم لم تكن هناك أجهزة إدارية تحتاج إلى إنفاق كبير أو تكاليف باهظة تقتضى فرض الضرائب وغيرها من أوجه النشاط الاقتصادى، وكان ثمة عامل أساسى ساعد على هذا كله وهو الروح الإسلامية التى تغلغلت فى نفوس الأنصار والمهاجرين، وجعلت الأثرياء والقادرين منهم يتسابقون إلى البذل والإنفاق من تلقاء أنفسهم، أو بمجرد توجيهات الرسول ﷺ وحضهم على تجهيز الجيوش ، أو المشاركة فى تحمل ديات بعض القتلى أو شراء مصدر من مصادر المياه ، وغيرها من المشروعات ذات الصبغة العامة. ولذا يمكن القول أن التعاون والتكافل الاجتماعى بين المسلمين كفى الدولة إلى حد كبير مؤونة القيام ببعض الأعباء الاقتصادية الملقاة عليها، ولذلك كان نشاطها الاقتصادى غير ملحوظ اللهم إلا فى بعض المناسبات التى كان يتوفر فيها لدى الرسول ﷺ فائض مالى كبير نقداً أو عيناً، نتيجة الانتصارات الحربية التى خاضها المسلمون دفاعاً عن الدين وتأمين الدولة، فإن الرسول ﷺ كان ينفق الأموال على المحتاجين، كما كان يوقف بعض المصادر من الأرض لتكون مرعى لإبل الصدقة كاحتياطى للدولة تنفق منه عند الحاجة.

وهنا تجدر الإشارة إلى مصادر دخل الدولة الإسلامية فى عهد الرسول ﷺ

حتى نتعرف على طرق تحصيلها وأوجه إنفاقها، وبذلك تتكون فى الأذهان صورة النظام الاقتصادى كما قررته الشريعة وطبقه ﷺ، ويمكن حصر هذه المصادر فى :

**(١) الزكـاة :** وهى فريضة مالية، أوجب الله أخذها - بنسب محددة - من أموال الأغنياء لترد على فقراء المسلمين، كما يتم الصرف منها على بعض أوجه الانفاق العام فقال الله تعالى « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » . وهذه الأموال التى تؤخذ منها الزكاة تشمل كافة ما يتمول به من الإنتاج الزراعى والثمار والثروة الحيوانية، والأموال السائلة وعروض التجارة وغيرها من الثروات المعدنية النفيسة كالذهب والفضة، مما تكفل الفقهاء بالحديث عنه من حيث الأنصبة التى تجب فيها الزكاة ، وشروط إخراجها كما نجد ذلك مبسوطاً فى كتب الفقه المختلفة.

وقد حدد القرآن مصارف الزكاة، أو الأبواب التى يتم الصرف منها عليها بقوله: « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ». وبالإضافة إلى هذا هناك أنواع خاصة من الزكاة تجمع وتصرف فى وقت محدد ولظروف معينة، ومنها زكاة الفطر التى تهدف إلى توفير أسباب السعادة للمحتاجين فى فرحة العيد بعد الفطر من صيام شهر رمضان ، كما أن هناك حقوقاً مالية أخرى ولكن الشارع ترك أمرها إلى ضمير المسلم ورغبته الصادقة فى الإنفاق ، وقد أطلق على هذا النوع من الحقوق اسم « الصدقة ». ومع أن الصدقة غير ملزمة لقوله ﷺ : « ليس فى المال حق سوى الزكاة » ، إلا أن بعض المسلمين كانت تسخو نفوسهم بمداومة التصدق، فتروى بعض المصادر أن مالك بن ثعلبة الأنصارى - وكان من أغنى الأنصار - مر بالرسول ﷺ وهو يتلو قوله تعالى: « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ماكنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون»، فأخذته غاشية من هذا التهديد، ثم أقسم أن يتصدق بماله كله ، فأمسى وهو لا يملك ديناراً ولا درهماً.

**(٢) النتائج المالية للحروب :** من المسلم به أن المسلمين اضطروا إلى خوض الحروب ضد الأعداء ، الذين كانوا يتربصون بهم من كل جانب فى مكة من جانب

قريش وفى المدينة من قبل اليهود، وفى باقى شبه الجزيرة العربية من القبائل التى كانت تخشى على نفوذها من المد الإسلامى الصاعد، ومن المسلم به أيضاً أن هذه الحروب كانت تسفر ، بالإضافة إلى ما تتمخض عنه من قتلى وجرحى، عن بعض الغنائم الحربية بشتى أنواعها سواء أكانت أسرى أم أسلحة وعتاداً وأموالاً منقولة، أم غيرها من الأموال الثابتة كالأرض والعقارات والحصون. ولا شك أن هذه الأموال كانت تقتضى أنواعاً خاصة من تنظيم التصرف فيها بحسب الجهد المبذول فى الحصول عليها، ولذلك جاء القرآن الكريم بأصول محددة فى هذا المجال لبعض هذه النظم، وترك صوراً أخرى للرسول ﷺ يتولى تنظيمها، ووضع الأسس الملائمة لكل حالة منها على حدة ، وقد تمثلت هذه النظم المالية فيما يلى :

**( أ ) الغنائم :** وهى الأموال التى حصل عليها المسلمون نتيجة اشتباك مسلح بينهم وبين الأعداء ودار فيه قتال، كما حدث فى غزوات بدر سنة ٢ هـ وبنى قينقاع وبنى قريظة سنة ٥هـ وخيبر سنة ٦ هـ وسبى بنى المصطلق سنة ٦ هـ ويقال أن الرسول ﷺ كان قد أصاب منهم سبياً كثيراً ، وسبى هوازن أيضاً سنة ٨هـ .

والغنائم تشمل أربعة أنواع هى : الأسرى والسبى والأرض والأموال. فالأسرى هم الرجال المقاتلون من الكفار الذين يقعون فى الأسر، والسبى هم النساء والأطفال، ولا يجوز قتالهم وإنما يقسمون فى جملة الغنائم. وإن كانت النساء من غير أهل الذمة وامتنعن عن الإسلام يقتلن أو يسترققن، ويجوز قبول الفدية عنهن، وأما الأرض التى تؤخذ عنوة يخرج أهلها منها لأنها غنيمة؛ وأما الأموال المنقولة فهى ما يمكن نقله كالماشية والأموال.

وقد فصل القرآن الكريم أوجه إنفاق مال الغنائم، وبين أنها حق للذين حضروا المعركة، مع بيان نصيب الرسول ﷺ من هذه الغنائم ، وهذا النصيب يمثل فى الواقع حق الدولة فى هذه الأموال ، فقال الله تعالى: « واعلموا أنما غنمتم من شئ فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان »، فأخرج الرسول ﷺ منها هذا الخمس ثم قسم الأخماس الأربعة الباقية على المحاربين للفارس ثلاثة أسهم ( للفرس سهمان وللفارس سهم ) وللراجل – من ليس له فرس – سهم، وعلى هذه السنة مضى

تقسيم الغنائم كأحد المصادر الاقتصادية للدولة الإسلامية الناشئة حيث يقول الرسولﷺ : «الغنيمة لمن شهد الوقعة » .

**(ب) الفئ :** وهو تلك الأموال التى حصل عليها المسلمون دون جهد أو مشقة حقيقية ، وإنما كانت تأتيهم نتيجة انهزام الأعداء نفسياً أمام قوة الإسلام وحسن سياسة الرسول، أو هو « كما عبر عنه الماوردى : « كل مال وصل من المشركين عفواً من غير قتال، ولا بايجاف خيل ولا ركاب »، كما حدث ليهود بنى النضير سنة ٤ هـ عندما نقضوا العهد، وخرجوا على شروط الصحيفة وهموا بقتل الرسولﷺ، مما دعاه إلى نبذ عهده لهم، وطلب منهم الجلاء عن المدينة ، ثم زحف إليهم وحاصرهم فنزلوا على شروطه ، على أن يسمح لهم بالجلاء بما معهم من الأموال المنقولة ما عدا السلاح ، ومن ثم آلت الأرض والسلاح إلى المسلمين.

ونزل التشريع الإسلامى لتنظيم الانتفاع بأموال الفيئ فى قوله تعالى: « وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شئ قدير، ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب، للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون» . ومعنى هذا أن خمس أموال الفيوء جعلت خاصة للرسول ﷺ ينفق منها على نفسه نفقة سنة، وما بقى يجعله عدة فى سبيل الله وللإنفاق على مصالح الدولة ، وأما الأربعة أخماس الباقية فكانت توزع بين الجنود .

**(جـ) الخراج :** والخراج هو تلك الالتزامات المالية التى تفرض على الأرض التى استولى عليها المسلمون عنوة أو صلحاً إثر بعض المواقع الحربية، كأرض يهود خيبر وفدك ووادى القرى وتيماء، وذلك أن هؤلاءعرضوا على الرسول ﷺ أن يقرهم على ما فى أيديهم من زراعة الأرض، على أن يكون لهم نصف إنتاجها وللدولة الإسلامية النصف ، وقالوا : إن لنا بالعمارة والقيام على النخل علماً فأقرنا فأقرهم الرسول ، وعاملهم على الشطر من الثمر والحب، وقال : أقركم ما أقركم الله وهكذا

أصبح الخراج يمثل تلك الضريبة المقررة على الأرض المفتوحة إذا ما تركت فى أيدى أصحابها لقاء هذه الضريبة التى تؤخذ منهم عنها.

**( د ) الجزية :** وهى ضريبة مالية تؤخذ من أهل الكتاب - اليهود والنصارى ومن عومل معاملتهم كالمجوس - الذين يقيمون فى نطاق الدولة الإسلامية ويتمتعون بحمايتها، وما تؤديه لهم من خدمات مع إيثارهم البقاء على معتقداتهم الدينية الأولى. وقد وجبت الجزية على أهل الكتاب كما وجبت الزكاة على المسلمين ، حتى يتكافأ الفريقان وهما رعية لدولة واحدة فى المسئولية. وأصل هذا التشريع قوله تعالى: « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ».

وتجب الجزية على الرجال الأحرار العقلاء الأصحاء القادرين على الدفع، ويعفى منها من لا قدرة له على العمل والأعمى والمقعد والمجنون وغيرهم من ذوى العاهات؛ والنساك والمتعبدون فى الأديرة والصوامع إلا إن كان غنياً ، وتسقط الجزية بالإسلام. وجاءت سنة الرسول ﷺ ملتزمة بهذا المبدأ ، فقد صالح اليهود فى وادى القرى وتيماء ومن كان يوجد منهم بالطائف على الجزية ، وكذلك فرضها على النصارى فى تبوك وإيلة ، وأذرح ودومة الجندل ، ونجران ، وعمان والبحرين واليمن، كما عامل مجوس هجر بالبحرين ومجوس اليمن معاملة أهل الكتاب، وقال «سنوا بهم سنة أهل الكتاب».

والجزية مقدار ضئيل من المال لا يتعدى فى السنة ديناراً واحداً على الشخص الواحد من الذكور البالغين فحسب، وقد أضيف إليها أحياناً قيام الذميين الذين تؤخذ منهم الجزية باستضافة الجيوش الإسلامية أو بعض الرسل الذين يقدمون إليهم أو يمرون بهم ، وكانت الجزية تدفع نقداً - وهو الغالب - أو عيناً من بعض الإنتاج الذى يتوفر لدى هؤلاء الذميين ويحتاج المسلمون إليه. فقد صالح الرسول ﷺ أهل نجران على أن يؤدوا الجزية ثياباً وسلاحاً مما كانوا مشهورين بصناعته ، فقد نص على أن عليهم ألفى حلة فى صفر ، وألف حلة فى رجب ثمن كل حلة أوقية على أن يؤخذ منهم ما أعطوا من سلاح أو خيل أو ركاب أو عرض من العروض بقيمته

قصاصاً من الحلل . كما قرر ﷺ هذا المبدأ فى بعض كتبه إلى ملوك حمير باليمن حيث يقول : « ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يرد عنها وعليه الجزية، على كل حالم ذكر أو أنثى حر أو عبد دينار واف من قيمة المعافر ( ثياب شهيرة باليمن ) أو عوضه ثياباً» .

**(هـ) العشر :** وهو ضريبة مفروضة على الأرض التى آلت للمسلمين بحكم الفتح من المشركين العرب، وذلك أن الإسلام لم يقبل من الوثنيين سوى الإسلام أوالقتال ، فما أسلموا عليه من الأرض يبقى تحت أيديهم على أن يدفعوا للدولة عشر الإنتاج إن كانت الأرض تسقى بسهولة من غير آلة أو مشقة، و نصف العشر إن كانت تحتاج إلى عمل وتكاليف تستهلك جزءا من الإنتاج ، ولا شك أنه يدخل فى هذه الأرض أرض المدينة ومكة والطائف واليمن، فيروى أبو يوسف فى كتاب الخراج « أن رسول الله ﷺ افتتح فتوحاً من الأرض العربية، فوضع عليها العشر ولم يجر على شئ منها خراجاً، فأجروا الأرض العربية كلها هذا المجرى» .

وهكذا يمكن القول أن الأموال التى كانت ترد للدولة نتيجة للحرب تعتبر بمثابة الأموال أو الموارد العامة التى تصرف منها على أوجه نشاطها فى السلم والحرب، وتعد الرصيد الثابت لاستمرار قدرة الدولة على القيام بوظائفها وواجباتها المتعددة . ذلك لأن الجانب الأعظم من الزكاة قد حدد القرآن مصارفها بدقة ، ويجب أن تؤدى إلى أربابها مباشرة فور تحصيلها، ضماناً لتوفير حياة إسلامية كريمة لبعض طوائف المجتمع من المحتاجين ، أو من هم فى حاجة ماسة إلى المساعدة والعطاء .

وقد كان الرسول ﷺ يتصرف فى الأموال المنقولة فى مدة لا تتجاوز الأيام الثلاثة إذ قال لكاتبه حنظلة بن الربيع الأسيدى : « إلزمنى وأذكرنى بكل شئ لثالثه» ، فكان لا يأتى على مال ولا طعام ثلاثة أيام إلا ذكره فلا يبيت عند رسول الله منه شئ. كما أنه ﷺ استحدث نظام القطائع، وهى أجزاء من الأراضى المملوكة للدولة لكى ترعى فيها إبل الصدقة والزكاة استعداداً للجهاد، فقد روى أنه ﷺ حمى البقيع (مكان) لخيل المسلمين ، ومنع المسلمين من التعدى عليه ، أو الانتفاع الشخصى بما فيه.

**رابعاً النظام الحربي ( الجهاد ) :**

يعتبر النظام الحربى ( الجهاد ) من أبرز المجالات التى اهتمت بها المصادر التاريخية والدراسات الحديثة على السواء ، ذلك أنها شغلت وقتاً كبيراً من جهاد الرسول ﷺ لنشر رسالته وتبليغها إلى الناس كافة ، وإزالة العقبات من أمامها، كما كانت الطابع المميز واللآفت للنظر بشدة فى الفترة المدنية من حياة الرسول ﷺ، فلقد بلغ عدد الغزوات الحربية والسرايا والبعوث التى خطط لها، وأعد لها ما يلزم من عدد وعتاد ، وسيرها من المدينة لتحقيق أهداف الدولة الاسلامية الناشئة سواء اشترك فيها بنفسه أم لم يشترك ، وسواء وقع فيها صدام بين المسلمين وأعدائهم أو لم يقع، أكثر من سبعين غزوة وسرية وبعثاً، أى أن المدينة كانت تشهد استعداداً لمعركة أو عودة منها كل أربعين يوما تقريباً، وبهذا يمكن القول أنها تحولت إلى معسكر أو ثكنة حربية لاتفتأ ترسل بالجيش تلو الآخر لتحقيق الأهداف الاسلامية وتأمين حدود الدولة، ومناجزة الأعداء على حد سواء .

وإذا لم يكن هناك تطور كبير قد أدخله الاسلام على نظام الحرب لدى العرب من استخدام الأسلحة، والاعتماد على وسائل الركوب التقليدية، وإجادة الكر والفر فى الميدان، والتداعى إلى المبارزة فى بداية الالتحام، سوى ما استحدثه من نظام التعبئة واللقاء فى ميدان المعركة على هيئة صفوف الصلاة حيث قال الله تعالى : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص »، واللجوء إلى بعض الوسائل الدفاعية التى كانت متبعة لدى بعض الأمم الأخرى كحفر الخندق حول المدينة واستخدام المنجنيق والدبابة فى حصار الطائف، فإنه مما لا شك فيه أن الاسلام قد غير مفهوم القتال من حيث أسبابه وغاياته، ووضع له أخلاقيات ومثل عليا، وهذا ما يمتاز به النظام الحربى كما طبقه الرسول ﷺ وألزم أتباعه به .

فقد أصبحت الحرب لا تثار لمجرد أسباب تافهة من دعوى العصبية أو المفاخرة والمنافرة، أو الأخذ بالثأر أو لمجرد الاعتداء والسلب والنهب وغير ذلك من العادات القبلية الذميمة، لكن الاسلام جعل السبب الوحيد للحرب هو رد الظلم ووقف العدوان ، والصد عن دين الله، فقال تعالى فى أول آية أذن فيها للمسلمين بالقتال: « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من

ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور» . فالحرب فى الإسلام إذن حرب دفاعية هدفها الأول والأخير تبليغ الرسالة إلى الناس كافة لقوله تعالى: « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » وكذلك قوله: « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنه أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين، فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم » .

وإذا نحن تقصينا آيات الكتاب الكريم فى القتال ورجعنا إلى ظروف التنزيل، وتتبعنا الحوادث فى حياة الرسول ﷺ وحروبه وسراياه حربا حربا وسرية سرية،ما خالجنا شك فى أن الحرب المشروعة فى الاسلام هى الحرب الدفاعية . وعلى هذا فالحرب الهجومية التى تشن لأغراض مادية : اقتصادية أو سياسية لا يقرها الإسلام ولا يؤيدها، بل يقف منها موقف المنكر لأنها عندئذ تكون ظلما وعدوانا فقال تعالى: « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين »، وقوله أيضا: « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا » .

وقد جعل الاسلام الحرب حالة استثنائية ومحنة طارئة على المجتمع البشرى، أما الأصل فى العلاقات بين الطوائف والشعوب والأمم إنما هو السلم فيقول تعالى : «يأيها الذين أمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين» . وعلى هذا فيجب على المسلمين أن يلبوا دعوة الأعداء إلى وقف القتال والدخول فى السلم ، فقال تعالى: « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم » : وقوله أيضاً « فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » . ثم وضع لهذه الحالة الطارئة – الحرب – قواعد سلوكية وآدابا خلقية يجب الالتزام بها احتراما لإنسانية الإنسان، وحفاظا على حرماته، وعدم الاعتداء على من لم يقوموا بعمل حربى إيجابى ضد المسلمين، فقد

حرم الاسلام مباغتة الأعداء ومفاجأتهم دون أن ينذرهم، ويعطيهم الفرصة المناسبة لكى يتدبروا أمرهم، ويحددوا موقفهم من الشروط الاسلامية المعروضة عليهم وهى الاسلام أو الجزية أو القتال ، وعندما يعاند الخصوم ويأبون إلا مواصلة القتال فإن الإسلام يأمر أتباعه أن يكفوا أيديهم عن النساء والصبيان والطاعنين فى السن والمتفرغين للعبادة مالم يعاونوا بآرائهم ومشورتهم فى التطورات الحربية، كما ينهاهم عن إتلاف المصادر الاقتصادية من الزروع والأشجار إلا إذا اضطروا إلى ذلك لإيقاع الرعب فى نفوس الأعداء وجعلهم يسارعون إلى إنهاء المعارك أو التسليم .

ولأن الحرب الاسلامية حرب شريفة، ذات غايات سامية فقد أمر المسلمون بالثبات فى المعركة، والفدائية فى القتال فلا عذر لأحد فى التراجع عن تحقيق الهدف، أو الفرار أمام الأعداء حتى لو كانت نسبة المسلمين إلى أعدائهم ١ : ١٠ فقال تعالى : « يا أيها الذين أمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار »؛ وقال أيضاً: « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » . ومن ثم فإن المسلمين كانوا إذا دخلوا الحرب استبسلوا فيها لا يبغون سوى النصر أو الشهادة، لأنهم يعلمون أنهم إنما يدافعون عن حق أو يردون ظلماً أو يحولون دون فساد، وكانوا إذا ما تحقق النصر كفوا عن القتال فلا يتتبعوا فارا، ولا يجهزوا على جريح، لأنه ليس هناك رغبة فى التشفى أو الانتقام قال تعالى : « ولا يجرمنكم شنأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ...» .

ولقد كان الرسول ﷺ باعتباره رئيس الدولة هو القائد الأعلى للجيش، ولذلك نجده يتولى القيادة بنفسه فى سبع وعشرين غزوة خلال تسع سنوات، وكان يشرف على إدارة المعركة من وضع الخطط وترتيب الصفوف، ومباشرة القتال أحيانا، وكانت وسيلته لتعبئة الجيش للقتال هو « النفير العام » أى حث جميع المسلمين على الخروج للقتال بأسلحتهم وعتادهم فقال تعالى: « انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله »، فكان عندئذ يخرج الرجال والشباب، وبعض الصبية أيضاً غير أنه ﷺ كان يرد من الصبية من يرى أنه لا يستطيع تحمل مشقات الحرب وويلاتها، وكان يسمح لبعض النساء بالانضمام إلى الجيش لأداء بعض المهام التى يجدن القيام بها كسقاية المرضى، ومداواة الجرحى وغيرهما من أعمال الإخلاء الحربى، بل كان منهن من تباشر القتال العملى كما حدث فى معركة أحد عندما

وقفت أم عمارة تدافع عن الرسول ﷺ . ولكن الثابت تاريخياً أنه ﷺ لم يكن يخرج بنفسه فى كل المواقع الحربية، بل كان كثيرا ما يختار من بين أصحابه من يتوسم فيهم الشجاعة والحزم، والمقدرة على تنفيذ المهام المنوطة بهم كاستطلاع أخبار الطرق التجارية التى تمر منها تجارة قريش، أو إرهاب بعض القبائل حتى لا تنضم إلى جانب الأعداء، أو للرد على بعض المؤامرات التى كان يقصد منها النيل من المسلمين، وقد عرفت هذه الحملات الحربية الخاطفة بالسرايا والبعوث، وقد بلغت خمسا وثلاثين سرية وبعثا فى رواية وثمانية وأربعين بعثا فى رواية أخرى ..

وقد تولى قيادة هذه الحملات الحربية مجموعة من القادة المهرة الذين رباهم الرسول ﷺ ووثق فيهم فأسند إليهم قيادة هذه السرايا والبعوث، وكان من بينهم حمزة ابن عبد المطلب الذى أرسله على رأس فرقة من المهاجرين إلى سيف(الطريق البرى) البحر الأحمر لاستطلاع تجارة قريش، وعقد له أول لواء عقد فى الإسلام، ومنهم أيضا عبيدة بن الحارث، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الله بن جحش، وخالد بن الوليد، وعبد الله بن رواحة وغيرهم كثير .

ومما يذكر أن الرسول ﷺ كان يهتم بعقد الألوية والرايات التى تميز المسلمين فى ميدان المعركة، وكانت ألوانها تتردد بين البياض والسواد، كما كانت رايته تسمى العقاب ، أما المسلمون فكانوا يتخذون شعارات لهم يتنادون بها فى المعارك لإثارة الحماس وإيقاع الرعب فى نفوس الأعداء، فكان شعارهم فى بدر : أحد .. أحد؛ وفى أحد : أمت.. أمت؛ أما فى الخندق فكان شعارهم : حم لا ينصرون ؛ وفى غزوة بنى المصطلق : يا منصور أمت أمت؛ وفى فتح مكة كان شعار المهاجرين: يا بنى عبد الرحمن ، وشعار الخزرج : يا بنى عبد الله ، وشعار الأوس : يا بنى عبيد الله .

ومن الجدير بالذكر أن المسلمين جميعا فى فترة الصراع الحربى ضد قريش بالذات – قبل فتح مكة – كانوا مطالبين بالجهاد ، وبأن يكونوا على أهبة الاستعداد أى يكونوا جاهزين تحت السلاح، فإذا ماندبهم الرسول ﷺ لغزوة أو سرية تسارعوا لوضع أنفسهم تحت إمرة القائد العام – فيما يشبه التجنيد الاجبارى لوقت محدد ـ وهم يرددن قائلين « يأخيل الله اركبى » دون أن يتخلف منهم أحد إلا لعذر مقبول حدده القرآن فى قوله تعالى : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل، والله

غفور رحيم ،. بل إن أصحاب الأعذار كانوا يتقدمون للرسول ﷺ لكى يحدد موقفهم، ويمضى فيهم رأيه، فعثمان بن عفان - مثلا - تخلف عن بدر - بمعرفة الرسول ﷺ لأنه كان يمرض زوجه ، وهولاء الفقراء الذين لم يستطعوا تجهيز وسائل الركوب التى تطلبتها تلك المعركة البعيدة مع الروم فى أرض تبوك جاءوا يبكون للرسول ﷺ ويشكون إليه ضيق ذات أيديهم فقبل شكواهم ، ونزل فيهم قول الله تعالى: ، ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون ، . ومن الحق أن هذه الاستجابة الفورية من المسلمين لصوت النفير العام كانت تنفيذا لعقد الاتفاق الذى قطعه الله على نفسه فى قوله : ، إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ، .

ولقد كان لهذا الموقف الحربى آثاره الخطيرة فى اختبار طوائف الجماعة الإسلامية ومدى ولائها للإسلام ، والتزامها بالدفاع عن دولته، فهؤلاء المؤمنون لم يكونوا يترددون فى الاستجابة الفورية وتقديم النفس فى طاعة ورضا، أما من كان يتأرجح الإيمان فى نفسه دون أن يكون فى ذلك خروج متعمد على أصل الإيمان، فقد كانت تغلبه أحيانا مغريات الحياة فيتخلف عن الجهاد، ولكنه سرعان ما يتبين سوء عمله فيندم وينزل على ما يتقرر بشأنه ، ولعل فى قصة هؤلاء النفر الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك أبلغ دليل على هذا الموقف ، فلقد أصدر الرسول ﷺ قرارا باعتزالهم، ومنع المسلمين من مخاطبتهم أو الاقتراب منهم ، ومن ثم شعر هؤلاء بأن المجتمع ينبذهم، فدخلوا المسجد النبوى وربطوا أنفسهم بسوارى المسجد، وأقسموا ألا يفكهم أحد حتى يحكم الله فيهم بما يشاء، وأخيراً بعد ما نالوا عقابهم النفسى نزل قوله تعالى : ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ، . أما هؤلاء المنافقون الذين كانوا يظهرون الإسلام،

ويجارون المجتمع الجديد كى يستفيدوا منه دون أن يلتزموا بأداء واجباتهم نحوه، فلقد تبين موقفهم بجلاء فى أثناء الاستعداد للمعارك . ولذلك ظهرت فى هذه الأوقات العصيبة طائفة المنافقين، ففى غزوة بدر رجع عبد الله بن أبى بن سلول

زعيم المنافقين بثلث الجيش، وفى غزوة الخندق – الأحزاب – أخذوا يتهاربون من الوقوف خلف الخندق فى صفوف المسلمين ويقولون « إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا ، ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا، ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا» . ثم كشف القرآن الكريم موقفهم تماما وعرى نفوسهم المريضة وأبان عن عداوتهم للإسلام ودولته فى الآيات الثانية عشرة حتى العشرين من سورة الأحزاب ، ثم تعقب موقفهم مرة أخرى فى سورة التوبة من الآية الخامسة والأربعين حتى السابعة والخمسين .

وهكذا يمكن القول أن النظام الحربى فى عهد الرسول ﷺ كان يركز على الأهداف النبيلة ، والوسائل الشريفة ، ويشحذ المجاهدين بطاقات روحية مقدسة تجعلهم يدخلون المعركة وشعارهم دائما قول الله تعالى: هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ؟ أى النصر أو الشهادة ، ولذلك لم يهتم الإسلام بتطوير الوسائل المادية للقتال ، أو التفنن فى ابتكار وإنتاج أسلحة الفتك والدمار ليجعل الحرب بذلك محصورة فى أضيق نطاق؛ وإن كان قد أمرالمسلمين بحسن الاستعداد، والأخذ بوسائل القوة لإرهاب الأعداء ، فقال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وأخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم .... » . ومن ثم فلم يكن الرسول ﷺ يتردد فى الاستعانة بأحدث ما كان موجودا فى عهده من أسلحة، فقد أرسل بعض الصحابة إلى اليمن ليروا ذلك السلاح الجديد الذى سمع عنه وهو الدبابات والمجانيق، ثم استخدمه فى حصار مدينة الطائف ضد بنى ثقيف عندما تحصنوا بقلاعهم ..

**خامسا *النظام القضائي*:**

أصبح من المعروف الآن – والسائد فى معظم النظم الديمقراطية فى العالم – مبدأ الفصل بين السلطات واستقلال بعضها عن بعض ، فكل سلطة من سلطات الدولة الثلاث وهى : السلطة التنفيذية، والسلطة التشريعية، والسلطة القضائية مستقلة تماما ،ولا يجوز لواحدة منها أن تباشر هيمنتها أو تفرض إرادتها على سلطة أخرى، حتى يمكن أن تؤدى كل منها عملها فى الإطار المحدد لها . وبذلك يتحقق الحد الأدنى من العدالة لأفراد المجتمع البشرى، وربما كان السبب الذى دعا إلى هذا الفصل

واستقلال السلطات هو قيام التشريع على أساس وضعى تتدخل فيه الأهواء والأغراض والمصالح الخاصة، ويمكن من هذا المدخل أن تؤثر السلطة التنفيذية مثلا على السلطة التشريعية لإصدار قوانين أو تشريعات تخدم أغراضها ومصالحها فحسب ، كما يمكن للسلطة التشريعية أيضا أن تسن من القوانين ما تلزم به السلطة القضائية لتحقيق أهداف المشرعين ، ومن ثم كان استحداث هذا الفصل بين السلطات حتى يترك للسلطة القضائية مجال للتنفس وتحكيم الصالح العام ، وتوخى أو تحقيق العدالة ما أمكن. ومع هذا كله فإن الفصل بين السلطات لم يؤدى - على أية حال - إلى تحقيق العدالة على الوجه المنشود ..

ولقد استطاع الإسلام بنظرته الشاملة أن يقضى على هذه المشكلة حينما جعل التشريع خاصا لله وحده، وجعل السلطتين التنفيذية والقضائية ملزمتين بتطبيق هذا التشريع، لإقامة العدل بين البشر والقضاء على الظلم، وإنصاف المتخاصمين ورد الحقوق لأصحابها؛ ولذلك فليس ثمة تعارض بينهما، وإنما هما متكاملتان تهدف كل منها للوصول إلى غاية واحدة وهى تحقيق العدالة التامة . ومن ثم فلم يكن هناك فى عهد الرسول ﷺ - وبخاصة فى المرحلة الأولى لتأسيس الدولة الاسلامية وقبل أن تمتد حدودها فتشمل شبه الجزيرة العربية - أى فصل بين السلطة التنفيذية والسلطة القضائية ، فقد كان الرسول ﷺ هو الحاكم العام للدولة وهو قاضيها أيضاً، فهو الذى يفصل فى القضايا التى يتعرض لها المسلمون ويرفعونها إليه، وهو الذى يأمر بتنفيذ الأحكام التى يصدرها ويشرف على تطبيقها، دون أن تكون هناك شبهة تدخل من السلطة التنفيذية فى الحكم القضائى، فالكل متآزر لتحقيق غاية واحدة .

وقد اهتم القرآن بإرساء أسس التقاضى بين المسلمين، وذلك بالتركيز الشديد على الهدف الأسمى للقضاء وهو إقامة العدل الذى تنتظم به الحياة ويأمن فيه الأفراد على أنفسهم وأموالهم وسائر حقوقهم فقال تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان »، وقال أيضاً : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »، ثم أمر أن يكون العدل هو رائد الجميع حتى تستقيم حركة المجتمع دون شقاق أو نزاع فقال تعالى: « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً »

ولقد جاءت النصوص صريحة فى إسناد أمر القضاء للرسول ﷺ ليقضى بين المسلمين فيما يلم بهم من أحدا ث، أو يقع بينهم من خلاف على أساس من التشريع السماوى الحكيم ، فقال تعالى :« إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما، واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيماً »، وقوله: « وأن احكم بينهم بما أنزل الله إليك » . ثم ألزم المسلمين برفع شكاياتهم للرسول ﷺ، والوقوف عند ما يأمرهم به فقال تعالى : « فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول » وأيضاً : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » ، وقوله تعالى : « ما كان لمؤمن ولا مومنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً »، ثم أصدر القرآن أمراً عاما قاطعا فقال : «وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، ومن ثم فإن الرسول ﷺ كان القاضى الذى يفزع إليه المسلمون فى كل صغيرة وكبيرة من شئونهم لكى يمضى فيهم أمر الله، ويدلهم على وجه الصواب فيما أشكل عليهم أو اختلفوا فيه من أمور دنياهم، أو ما ترددوا فيه وخالفوه من أمر دينهم.

وتقدم أحداث التاريخ شاهد صدق على التزام الرسول والمسلمين بهذا الموقف، ويكفى أن تشير إلى بعض هذه المواقف حتى يتبين بجلاء عمق هذا النظام فى المجتمع الإسلامى الأول . فقد شجر خلاف بين زوجين من أسر المدينة ولم تتحمل الزوجة استمرار الحياة الزوجية، وخافت على أولادها من بقائهم فى رعاية والدهم فجاءت شاكية إلى الرسول ﷺ ، وأخذت تعرض له وجهة نظرها وتدافع عن موقفها قائلة : يا رسول الله إن لى منه أولادا إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إلى جاعوا . وأخذ الرسول يراجعها حتى نزل قول الله تعالى: « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله، والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير » فقضى لها الرسول ﷺ بما أشار به القرآن الكريم. كما أمر الرسول ﷺ بتطبيق حد السرقة على فاطمة المخزومية حينما ثبت عليها ارتكابها لهذه الجريمة، وغضب غضباً شديداً من بعض الصحابة الذين حاولوا أن يتدخلوا لديه متشفعين لها وقال « وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» ، كما أقام حد الزنا – جلدا

ورجما – على هؤلاء الذين تردوا فى هذه المعصية وثبتت عليهم بالأدلة القاطعة، وكانت الحالات التى عرضت عليه تقوم على أساس الاعتراف ، والاعتراف – كما يقول فقهاء القانون – سيد الأدلة.

وكانت هناك مواقف عملية يتعرض لها المسلمون تتعلق بمصالح شخصية أو بمنافع عامة لبعض الصحابة، فعندما ما كانت تعرض على الرسول ﷺ كان يحكم فيها بسنته النبوية دون أن يكون هناك نصوص صريحة من القرآن الكريم، فعند ما أوصى النعمان بن بشير إلى أحد أبنائه بأكثر مما يستحق من ثروته نهاه الرسول عن ذلك وأمره برد الوصية ، وقال : هلا أوصيت إلى سائر ولدك بمثل ما أوصيت به إلى ابنك هذا . وعندما شكا أحد الأنصار سمرة بن جندب وكان يملك بعض النخيل فى بستانه ويؤذيه بكثرة دخوله وخروجه عليه ، استدعاء الرسول ﷺ وطلب منه أن يبيع نخله للأنصارى فرفض فقال له الرسول ﷺ ، هبه ولك مثله فى الجنة ، فأبى أيضا عندئذ قال له : أنت مضار وأصدر حكمه، فأمر الأنصارى بأن يذهب ويقلع نخل سمرة لأنه ثبت لديه أنه لا يبغى غير الضرر .

ومن ثم كان الرسول ﷺ حريصا على إقامة العدل بين الناس، والتحذير من تحايل بعض المتخاصمين على بعض توسلا لصدور الحكم فى صالحهم، والاستئثار بما ليس لهم، فالرسول ﷺ ـ على أية حال ـ بشر وهو لا يقضى فى القضايا المطروحة أمامه إلا بما يتوفر لديه من أدلة، ما لم يكن هناك انتهاك لنص شرعى. ولذلك كان يذكى فى نفوس أتباعه نزعة الصدق والالتزام بالحق ، فكان دائم التذكير لأصحابه بقوله « إنكم تختصمون إلى رسول الله ، وإنما أنا بشر ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضى بينكم على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه، فإنما ذلك قطعة من النار يأتى بها فى عنقه يوم القيامة » ، ولذلك سرعان ما كانت تنفض الخصومات ويبادر كل طرف من أطراف القضية بالتنازل عن حقه حتى يتقى الشبهات ويفوز بما عند الله ، وهو خير وأبقى .

ولعل من الجدير بالذكر أن ممارسة الرسول ﷺ للقضاء لم تكن تتوقف على ما

يحدث بين المسلمين من مشاكل وقضايا فحسب ، وإنما كان يلجأ إليه بعض الذميين كاليهود ليفصل بينهم ، ومهما كانت هناك من أهداف سيئة أحياناً تتخفى وراء هذا الموقف ، فإن ذلك كان يؤكد حقيقة ناصعة وهى حرص الرسول ﷺ على إقامة العدل وتطبيق الشرع الصحيح، فقد روى أن اليهود أتوا للرسول ﷺ برجل وإمرأة وقالوا يا محمد : هذا رجل قد زنى بعد إحصانه بإمراة قد أحصنت فاحكم فيها فقد وليناك الحكم فيها ، فأمر رسول الله ﷺ برجمهما فرجما بباب المسجد، وقد روى القرآن الكريم هذه الحادثة فى قوله تعالى: « فإن جاؤك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين ، وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين » .

وقد ظل الرسول ﷺ يمارس القضاء بنفسه حتى اتسعت رقعة الدولة بالفتوحات الأولى فى عهده عليه السلام ، ومن ثم نشأت الحاجة إلى إسناد منصب القضاء لبعض الصحابة الذين يجيدون القيام بهذا العمل الجليل، ومن ثم أرسل قضاة إلى أماكن مختلفة ، وأوصاهم بتحرى الحق وإقامة العدل، ولعل فى موقفه من معاذ بن جبل الذى أرسله إلى اليمن ما يشير إلى الخطة التى انتهجها عليه السلام فى هذا المجال فقد قال لمعاذ « بم تحكم ؟ قال بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله، قال: فإن لم تجد، قال : أجتهد برأيى ، فقال الرسول ﷺ الحمد لله الذى وفق رسوله لما يرضى رسول الله ».

وقد كانت هذه السوابق التاريخية التى سنها الرسول ﷺ الأسس التى تفرعت عنها النظم القضائية فى الإسلام عندما اتسعت رقعة الدولة – فيما بعد – وتشعبت مصالحها ، واستجدت فيها من المشاكل والقضايا ما لم يكن معهوداً فى الصدر الأول للدولة، مما حفز العلماء والقضاة إلى تطبيق هذه الأصول أو ابتكار حلول متسقة معها حتى لا يقع الناس فى الحرج ، أو يضيقون بمشاكل لا يجدون لها حلا من دينهم الذى يحرصون على الالتزام به والتمسك بمبادئه وقيمه فى شتى مناشط الحياة ..

# القسم الثالث

## عصر الخلفاء الراشدين

## ( ١١ - ٤٠ هـ / ٦٣٢ - ٦٦١م )

بانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى فى العام الحادى عشر من الهجرة (٦٣٢م ) يبدأ عصر جديد اصطلح المؤرخون على تسميته بعصر الخلفاء الراشدين ، الذى امتد حتى عام ٤٠هـ (٦٦١م) وخلفاء هذا العصر هم علي الترتيب التالى : أبو بكر الصديق ١١ - ١٣ هـ ( ٦٣٢ - ٦٣٤م ) ، عمر بن الخطاب ١٣ - ٢٣ هـ ( ٦٣٤ - ٦٤٤) ، عثمان بن عفان ٢٤ - ٣٥هـ ( ٦٤٤ - ٦٥٦م ) ، على بن أبى طالب ٣٥ - ٤٠ هـ ( ٦٥٦ - ٦٦١ م ) .

ولعل أهم ملامح هذا العصر هى محاولات إقرار نظام الخلافة وتأصيل النظام الديمقراطى على أساس مبدأ الشورى ؛ كما كان تثبيت العقيدة داخل شبه الجزيرة هو الشاغل الأول للخليفة الأول ، الذى واجه حركة الردة وقمعها ؛ تلت ذلك مرحلة جديدة فى تاريخ نشر الإسلام وهى مرحلة عالمية الدعوة حيث بدأت الفتوحات . الإسلامية ؛ التى ترتب عليها أن برزت مشكلات جديدة جعلت الخليفة الثانى يضع أسس تنظيم البلاد المفتوحة، فوفق بين روح الإسلام وبين النظم المتوارثة فى هذه البلاد. على أن ضخامة التطور الذى شمل المجتمعات الإسلامية الجديدة كانت أكبر من أن يلتمس لها الخليفة الثالث حلاً ، فكان ما كان من أمر الفتنة الكبرى التى تعتبر علامة تحول خطير فى مسار المجتمع الإسلامى ، إذ أدت إلى صراع دموى بين الخليفة الرابع وبين واليه على الشام وهو معاوية بن أبى سفيان، وهو صراع نتج عنه انشقاق الجماعة الإسلامية إلى فرق متصارعة ، فانتهى عصر الخلفاء الراشدين ليبدأ عصر خلفاء بنى أمية .

ولنحاول الآن الإشارة إلى هذه الملامح بقليل من التفصيل .

# الفصل الأول

## استحداث نظام الخلافة وإقراره

كان لخلو منصب القيادة فى الدولة الإسلامية بوفاة الرسول ﷺ أثر عنيف وهزة مباغتة ، أصابت المجتمع الإسلامى فى المدينة المنورة . ومن ثم شاع الاضطراب النفسى بين المسلمين ، حتى أن بعض الشخصيات المتزنة من كبار الصحابة كعمر بن الخطاب فقدت صوابها، وأنكرت حادث الوفاة نفسه، فقد كانت شخصية الرسول ﷺ تملأ عليهم جوانب الحياة ، حتى أوشكوا أن يعتقدوا بأنه سيخلد بينهم . ويتمثل هذا الاعتقاد أبلغ تمثيل فيما يرويه ابن هشام عن اعتذار عمر بن الخطاب لابن عباس عما بدر عنه فى يوم وفاة الرسول ﷺ بقوله : يا ابن عباس ، هل تدرى ما كان حملنى على مقالتى التى قلت حين توفى رسول الله ﷺ ، فقال : لا أدرى يا أمير المؤمنين، أنت أعلم، قال : فإنه والله أن كان الذى حملنى على ذلك إلا أنى كنت أقرأ هذه الآية : «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً» ، فوالله إنى كنت لأظن أن رسول الله ﷺ سيبقى فى أمته حتى يشهد علينا بآخر أعمالنا ، فإنه للذى حملنى أن قلت ما قلت .

ومع ذلك ، فلم يلبث المسلمون أن أفاقوا من هذا الاعتقاد على صدمة الواقع ، وأدركوا أنهم أمام مسئولية ضخمة ومطلب ملح عليهم أن يقوموا به ، حتى تظل الدولة قادرة على آداء رسالتها ، وتجنب الفوضى و الاضطراب فى الداخل ، أو التعرض للعدوان من قبل الطامعين والموتورين فى الخارج ، ولذلك لم يلبث المسلمون أن سارعوا إلى اختيار رئيس من بينهم ، ليتولى شئون الدولة ويباشر المهام القيادية التى كان الرسول يقوم بها ؛ من المحافظة على الدين ورعاية مصالح الدنيا .

لكنهم ووجهوا بموقف بالغ الصعوبة والتعقيد ، إذ لم يجدوا فى التشريع القرآنى أو فى السنة النبوية ما يوضح لهم طريق اختيار القيادة العليا للدولة ، وكانت النتيجة المتوقعة فى مثل هذا الموقف أن تختلف الاتجاهات وتتعدد وجهات النظر ، وتصطرع الآراء حول من يلى القيادة ، وبرزت آنذاك ثلاثة تيارات كل منها يدعو المسلمين إلى اتجاه ، ويدعم رأيه بحجج وبراهين ليدلل على أحقيته وحده بهذه القيادة، ويبرز فى نفس الوقت الأخطار المترتبة على خروجها من يديه .

وهذه التيارات أو الاتجاهات هى التى أشار إليها ابن هشام بقوله : «لما قبض رسول الله ﷺ انحاز هذا الحى من الأنصار إلى سعد بن عبادة فى سقيفة بنى ساعدة واعتزل على بن أبى طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله فى بيت فاطمة وانحاز بقية المهاجرين إلى أبى بكر وعمر» .

فالاتجاه الأول كان يدعو إلى حصر القيادة فى الأنصار ، وتزعمه سعد بن عبادة – سيد الخزرج – الذى بادر بعقد اجتماع للأوس والخزرج فى سقيفة بنى ساعدة ؛ وهناك أثار انتباههم ولفت أنظارهم إلى ضرورة أن تكون القيادة لهم بعد الرسول ﷺ ، لأنهم القوة التى آزرته فى جهاده لنشر الدين ، ووقفت إلى جانبه تدفع عنه الأعداء ، وعلى أيديها وبجهودها أمن المسلمون على أنفسهم وأموالهم، واتسعت رقعة الدولة ؛ فهم – إذن – أحق بهذه القيادة من غيرهم ، ثم صاح فيهم بقوله : «فشدوا أيديكم بهذا الأمر ، فأنتم أحق الناس وأولاهم به» . ولقيت مقالته استجابة وقبولا من الأنصار فأجابوه جميعا : «أن قد وفقت فى الرأى ، وأصبت فى القول» ، ثم رشحوه لأن يكون هو القائد الجديد قائلين : «لن نعدو مارأيت ، نوليك هذا الأمر، فأنت مقنع ولصالح المؤمنين رضا» ؛ وبذلك كاد الأمر يتم لسعد.

ولاشك أن ما دفع الأنصار إلى الحرص على أن تكون القيادة لهم هو تخوفهم من المستقبل إذا ما آلت إلى المهاجرين؛ لأنهم توقعوا أن يفقدوا المنزلة البارزة التى كانت لهم فى الدولة على عهد الرسول ﷺ ؛ وأن الأجيال التالية من أبناء المهاجرين لن تعرف لهم هذه المكانة، أو تقدر لهم جهادهم فى سبيل نصرة الدين حق قدره . وربما كانت نفس هذه المشاعر هى التى طافت بأذهان الأنصار أثناء الأيام الأخيرة من مرض الرسول، فأحدقوا بحجرته يبكون حتى خرج إليهم وهدأ روعهم ، وأوصى المهاجرين بهم قائلاً : «إنه لم يمت نبى قط إلا خلف وراءه تركة ، وأن تركتى فيكم الأنصار رضى الله عنهم ، وهم كرشى التى آوى إليها ، أوصيكم بتقوى الله تعالى والإحسان إليهم ، فقد علمتم أنهم نصروكم فى النشط والكسل ، فاعرفوا لهم حقهم، وأقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم» .

ولعل تخوف الأنصار هذا يتبدى واضحاً بعدما خرج الأمر من أيديهم فى سقيفة بنى ساعدة ؛ فانبرى الحباب بن المنذر – أبرز خطبائهم فى السقيفة – يلقى باللوم والتقريع عليهم قائلا لهم : « أما والله لكأنى بأبنائكم على أبواب أبنائهم – أى أبناء المهاجرين – قد وقفوا يسألونهم بأكفهم ولا يسقون الماء » ؛ فرد عليه أبو بكر هذا التصور قائلاً له : « أمنا تخاف ياحباب ؟ » ، فأجابه الحباب : «ليس منك أخاف ولكن ممن يجئ بعدك » ، ثم عقب على ذلك بقوله : « إذا ذهبت أنا وأنت جاءنا بعدك من يسومنا الضيم » .

وعلى كل حال فلم يصل الأنصار إلى الغاية التى كانوا يرجونها ، بسبب التدخل السريع من أصحاب الاتجاه الثانى وهم غالبية المهاجرين ، الذين كان يمثلهم فى البداية ثلاثة من كبار الصحابة ، هم أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح . فعندما وصلهم نبأ اجتماع الأنصار فى السقيفة فزع أبو بكر، وانطلق هو وعمر ومعهما أبو عبيدة إلى حيث يجتمع الأنصار، وهناك أخذ أبو بكر زمام الموقف، فوجه دفة الأمور وأنظار المجتمعين إلى الرأى الأمثل الذى ترضى به العرب ، ولفت أنظارهم إلى أن المهاجرين أصحاب السبق فى الإسلام وأهل الرسول وعشيرته ، وركز بشدة على مكانة قريش الأدبية فى نفوس العرب ، وأنهم يخضعون لها طوعاً لما بينهم وبينها من وشائج القربى والمصاهرة ، إلى أن قال : « ونحن مع ذلك أوسط العرب أنسابا ، ليست قبيلة من قبائل العرب إلا ولقريش فيها ولادة ». إلى غير ذلك من الأقوال الصائبة والأدلة القوية التى أثرت على الأنصار، حتى بدا عليهم الاقتناع بمنطقه القوى الذى صور الواقع العملى والعوامل المؤثرة فيه أبلغ تصوير، ومن ثم انقادوا له .

لكن فريقاً من الأنصار حاول – تحت إلحاح الخوف من المستقبل – أن يجد لنفسه دوراً فى شئون الزعامة ، فاقترح على المهاجرين أن تكون الزعامة لرجلين فى آن واحد، أحدهما مهاجر والآخر أنصارى ، وقال « إنا نشفق مما بعد اليوم، ونحذر أن يتغلب على هذا الأمر من ليس منا ولا منكم ، فلو جعلتم اليوم رجلا منا ورجلا منكم بايعنا ورضينا »؛ وبرروا هذا الاقتراح بأن ذلك : «أجدر أن يعدل فى أمة محمد ﷺ ،

وأن يكون بعضنا يتبع بعضا، فيشفق القرشى أن يزيغ فيقبض عليه الأنصارى، ويشفق الأنصارى أن يزيغ فيقبض عليه القرشى » .

تصدى عمر بن الخطاب لهذا الاقتراح وشجبه بشدة قائلاً : «هيهات أن يجتمع سيفان فى غمد واحد ، إنه والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لاينبغى أن تولى هذا الأمر إلا من كانت النبوة فيهم وأولو الأمر منها، لنا بذلك على من خالفنا من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين » . ثم عقب أبو عبيدة على قوله مذكراً الأنصار بأنهم كانوا أول من نصر الرسول وآواه ، وحذرهم من أن يكونوا أول من يبدل موقفه ويتنكر له ، قائلاً : «يامعشر الأنصار ، أنتم أول من نصر وآوى ، فلا تكونوا أول من يبدل ويغير » .

وحينذاك بدأت جبهة الأنصار تتصدع، فانسحب بعضهم من الاجتماع وهم يرون أن يقضى المهاجرون أمرهم دون أن يقيموا لرأى الأنصار وزناً ، ثم انشق بشير ابن سعد الخزرجى على سعد بن عبادة ونصح الأنصار بأن يسلموا الأمر للمهاجرين ، قائلاً : « إن محمدا رسول الله ﷺ رجل من قريش ، وقومه أحق بميراثه وتولى سلطانه، وايم الله، لايرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبداً ، فاتقوا الله ولاتنازعوهم ولا تخالفوهم» . وعلى إثر ذلك بدأ التصدع واضحا فى جبهة الأنصار، حيث انشق بعض سادة الأوس وأقبلوا على بعضهم البعض يقولون : « لئن وليتموها سعداً عليكم مرة واحدة لازالت لهم – أى للخزرج – بذلك عليكم الفضيلة ، ولا جعلوا لكم نصيباً فيها أبداً » ومن ثم تحاضوا فيما بينهم على مبايعة أبى بكر.

وعلى هذا النحو ، استطاع زعماء المهاجرين بمنطقهم الواضح القوى أن يستميلوا الغالبية العظمى من الأنصار إلى الاعتراف بأحقية المهاجرين، الذين لم يكن أمامهم إلا أن يضعوا حداً حاسماً لهذا الموقف؛ وهنا تقدم أبو بكر فرشح للمجتمعين عمر بن الخطاب وأبا عبيدة للزعامة، قائلاً : « إنى ناصح لكم فى أحد هذين الرجلين أبى عبيدة بن الجراح أو عمر ، فبايعوا من شئتم منهما » ؛ لكنهما رفضا هذا الترشيح فى وجوده وصاح عمر : «معاذ الله أن يكون ذلك وأنت بين

أظهرنا، أنت أحقنا بهذا الأمر، وأقدمنا صحبة لرسول الله ﷺ ، وأفضل منا فى المال، وأنت أفضل المهاجرين وثانى اثنين، وخليفته على الصلاة والصلاة أفضل أركان دين الإسلام، فمن ذا ينبغى أن يتقدمك ويتولى هذا الأمر عليك ، ابسط يدك أبايعك ، ، ثم تقدم هو وأبو عبيدة نحوه يبايعانه ، وكأن القوم كانوا فى انتظار هذه الإشارة ، فأقبلوا مسرعين على أبى بكر يبايعونه دون اعتبار لسعد حتى كادوا يطأونه . وبذلك انفض هذا الاجتماع وقد اختار القوم بإرادتهم وبعد مناقشات علنية وصريحة قائدا جديداً للدولة هو أبو بكر. ويطلق على هذه البيعة اسم «بيعة الخاصة» ، وبقى أن يعرض هذا الاختيار على جماهير المسلمين ليتم الأمر نهائياً لأبى بكر ، وهو ما تم بالمسجد فى «بيعة العامة» فى اليوم التالى ، بعدما قدم عمر أبا بكر إلى جماهير المسلمين ودعاهم إلى بيعته، بقوله: «إن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله ﷺ ، ثانى اثنين إذ هما فى الغار، فقوموا فبايعوه» ، فبايعه الناس بيعة العامة بعد بيعة السقيفة الخاصة.

هذا ولاشك أنه قد تدخلت عوامل متعددة فى اختيار أبى بكر للخلافة، فهو من الناحية الدينية أول من أسلم من الرجال، وطالت صحبته للرسول ﷺ سواء فى مكة أو فى المدينة، وكان صاحبه فى الهجرة ومشيره فى المدينة ، حتى لقد روى أن الرسول هم أن يبعث ببعض صحابته إلى الدول المجاورة يدعون للإسلام ويرغبون فيه ، فقيل له : «أفلا تبعث أبا بكر وعمر ، فقال : لاغنى لى عنهما، إنما منزلتهما من الدين منزلة السمع والبصر من الجسد» ؛ وإن كان أبو بكر يفضل عمر بالسبق إلى الإسلام؛ وبتقديم الرسول له فى إمامة المسلمين للصلاة أثناء مرضه؛ وصلى ذات مرة عن يمينه قاعداً وأصر على أن يظل إماماً بالرغم من بعض المحاولات غير المقصودة لتقديم عمر؛ وعلق السيوطى على ذلك بقوله : «فكان ذلك أوضح دلالة على أن الصديق أفضل الصحابة على الإطلاق، وأحقهم بالخلافة وأولاهم بالإمامة» . وقد أدرك المسلمون مغزى استخلاف الرسول لأبى بكر على الصلاة – وهى عماد الدين – فكان لذلك أثره فى أن ارتضوه للخلافة ، حتى قال على بن أبى طالب : «قد قدمك رسول الله ﷺ لتوحيد ديننا، من ذا الذى يؤخرك لتوجيه دنيانا» .

وإلى جانب هذه العوامل، فهناك اعتبارات عملية أخرى قدمت أبا بكر على غيره من الصحابة ، وجعلته خليقاً بخلافة الرسول ﷺ فى قياده الدولة ، وقد تجلت هذه الاعتبارات فى شجاعته النفسية ورزانته، وقدرته على تدبير الأمور وتوجيهها لصالح المسلمين فى ذلك الوقت العصيب الذى أعقب وفاة الرسول مباشرة ، حين أعلن وفاته بما لايدع مجالا للشك، ثم أقبل على الأنصار - وهم أقرب ما يكون إلى تمام البيعة لسعد بن عبادة - فتمكن بقوة منطقه من تحويل أنظارهم عنه، ومازال يحاججهم حتى بايعوا لمن رضيه ممثلو المهاجرين، مثلما أشرنا من قبل.

وفوق هذا كله ، فقد أتاحت له سنه العالية من الخبرة والتجربة والحنكة السياسية ما جعل أبا عبيدة بن الجراح يلفت نظر على بن أبى طالب إلى مثل هذا العامل المؤثر فى اختيار الرؤساء لدى العرب، فقال له : « إنك حديث السن، وهؤلاء مشيخة قومك، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك، وأشد احتمالا واضطلاعا به ، فسلم لأبى بكر هذا الأمر» .

تلك كانت أهم الاعتبارات التى جعلت المسلمين فى المدينة المنورة يسارعون إلى مبايعة أبى بكر بالخلافة ، فيما عدا سعد بن عبادة من الاتجاه الأول ، وممثلو الاتجاه الثالث وهم بنو هاشم ، الذين كان يمثلهم على بن أبى طالب و العباس بن عبد المطلب، ومن التف حولهما مثل الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ، وهؤلاء اعترضوا على مبايعة أبى بكر لاعتقادهم بأحقيتهم فى الخلافة ؛ وقدموا لذلك على ابن أبى طالب.

وهناك من الدلائل على أن بنى هاشم قد جالت بخواطرهم فكرة استخلاف الرسول ﷺ سواء أثناء مرضه أو فى أعقاب وفاته، فقد حدث أن تحدث العباس مع علي فى ذلك صراحة ، وطلب منه أن يذهب للرسول ليستطلع رأيه فى هذا الشأن ، ويسأله : فيمن يكون هذا الأمر بعده، فإن كان « لنا بينه ، وإن كان لغيرنا أوصى بنا خيراً » ، لكن عليا رفض آنذاك أن يضيق الأمر على نفسه وعلى بنى هاشم بعامة ويحرمها من الزعامة نهائيا إذا ما رفضَ الرسول ﷺ أن يعهد بها إليهم، ورد على

العباس قائلا : « إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده ، وإنى والله لا أسألها رسول الله ﷺ ». فلما توفى الرسول ﷺ وتأكد العباس أنه لم يوصى لأحد بشئ ، رأى أن يضع المسلمين أمام الأمر الواقع؛ بأن يبايع عليا بالخلافة، وقال له : «ابسط يدك أبايعك ويبايعك أهل بيتك ، ولن يقول الناس آنذاك سوى أن عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله ، فيعترفون لك بالخلافة » . بيد أن عليا رفض للمرة الثانية، وكان رفضه فى هذه المرة لثقته الشديدة أن المسلمين لن يعدلوا عنه إلى غيره؛ حيث رد على العباس قائلاً : « ومن يطلب هذا الأمر غيرنا ».

على أن الذى لاشك فيه أن بنى هاشم قد اعتمدوا فى دعواهم الخلافة على قرابتهم للرسول ﷺ وعلى أن أمر المسلمين يجب أن يظل فى بيته، وهو ما عبر عنه علي بوضوح فى محاجته جماهير المهاجرين ، حينما ذهبوا إليه يطلبون منه مبايعة أبى بكر ؛ إذ قال : «أنا أحق بهذا الأمر منكم ، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لى ، أخذتم هذا الأمر من الأنصار واحتججتم عليهم بالقرابة من النبى ﷺ، وتأخذونه منا أهل البيت غصباً ؟ ألستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم ، فأعطوكم المقادة وسلموا إليكم الإمارة ، وأنا احتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار ، نحن أولى برسول الله حيا وميتا ، فانصفونا إن كنتم تؤمنون ، وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون » ، ثم استطرد قائلا : « الله الله يامعشر المهاجرين ، لا تخرجوا سلطان محمد فى العرب عن داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم ، ولا تدفعوا أهله عن مقامه فى الناس وحقه ، فوالله يامعشر المهاجرين، لنحن أحق الناس به لأنا أهل البيت، ونحن أحق بهذا الأمرمنكم » .

وإذا كانت جبهة الأنصار قد أذعنت بسهولة ، فإن جبهة بنى هاشم – ولا سيما على بن أبى طالب – قد ظلت على موقفها من المعارضة لبيعة أبى بكر ، بل حاول علي أن يثير الأنصار ويستميلهم إلى جانبه معتمدا على دعاية زوجته السيدة فاطمة رضى الله عنها ؛ ودعوتها إلى تأييده فى الوصول إلى الخلافة ، فلما توفيت بعد أقل من ثلاثة أشهر من وفاة الرسول ﷺ ، تفككت هذه الجبة أيضاً ولم يجد علي بدأ من

أن يبايع أبا بكر حينما دعاه إلى ذلك ، إذ أقبل عليه وكان من بين ما قاله له : فإنه لم يمنعنا أن نبايعك إنكار لفضيلتك، ولا نفاسة عليك، ولكنا كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقاً ، فاستبددت علينا ؛ ثم ذكر علي قرابته من رسول الله ، وختم حديثه إلى أبى بكر بقوله: « موعدك غداً فى المسجد الجامع للبيعة إن شاء الله » . فلما جاء الغد خرج أبو بكر إلى المسجد وهناك قام علي خطيباً فعظم حق أبى بكر وذكر فضيلته وسابقته ، ثم مضى فبايعه وقال : « والله لانقيلك ، ولانستقيلك أبداً ، قد قدمك رسول الله ﷺ لتوحيد ديننا ، من ذا الذى يؤخرك لتوجيه دنيانا » . وبذلك خلصت الرئاسة لأبى بكر.

وفى الخطاب الذى ألقاه أبو بكر بالمسجد النبوى يوم بيعة العامة حدد منهجه السياسى، مركزا على عدد من المبادئ وأهمها :

(١) التزامه بتنفيذ كتاب الله وسنة نبيه ، وبهذا تكون طاعته واجبة على المسلمين فى طاعة الله ورسوله فى قوله : « أطيعونى ما أ طعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » .

(٢) حرصه علي إقامة العدل بين أفراد المجتمع علـى أساس المساواة التامة بقوله : « والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله » .

(٣) تأكيده علي أن رقابة الأمة على أعمال الرئيس واجبها الذى لا ينبغى أن تتخلى عنه بقوله : «فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى » .

(٤) إبراز فكرة أن الرئيس ما هو إلا أحد أفراد الأمة مكلف منها ليقوم بتدبير أمرها ، ولذلك فهو أثقلها عبءاً وأكثرها مسئولية حينما قال : « وايم الله ، ما حرصت عليها ليلا ولا نهاراً ، ولا سألتها الله قط فى سر ولا علانية ، ولقد قلدت أمراً عظيماً ما لي به طاقة ولابد ، ولوددت أنى وجدت أقوى الناس عليه مكانى » .

وقد أصبح هذا الموقف سابقة تاريخية للمسلمين تؤكد مدى حيوية الجيل

الأول منهم ؛ وقدرته على مجابهة الأحداث الفاصلة ، وتدل على إدراكه الواعى بالواجبات والمسئوليات الملقاة على عاتقه إزاء المحافظة على الدين وتماسك الدولة ؛ فكان إنشاؤهم لهذا المنصب الذى أصبح قطب النظام السياسى فى الإسلام ؛ وأصبحت «الخلافة ، هى الشكل الأمثل للرئاسة العامة ، الذى اهتدى المسلمون إليه للقيام بالمهام التى كان يتولاها الرسول ﷺ فى حياته ، ومن ثم قال ابن خلدون : « إن الخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا» .

ومن ناحية أخرى ، فإذا كان إنشاء هذا المنصب – أى الخلافة – قد تم أول مرة على أساس الاختيار الحر المباشر ، فقد كان هذا من شأنه أن يرسى تقليداً سياسياً ينبغى السير على نهجه فى المراحل التالية ، ومن ثم تكون هناك قواعد تاريخية مستقرة فى اختيار الخلفاء ، وأهم هذه القواعد تتمثل فيما يلى :

(١) أن يتم اختيار الخليفة على أساس الانتخاب الحرالمباشر؛ لأن منصب الخلافة أهم أمور المسلمين وأحقها بالشورى، ليتحقق ما وصف الله المسلمين به وهو : «وأمرهم شورى بينهم» .

(٢) أن يتولى ترشيح الخليفة فى المرحلة الأولى أهل الحل والعقد – وهم أولو الرأى وأهل الشورى، الذى يمثلون كبار الشخصيات المؤثرة فى الأمة – وذلك على أساس اختيار أجدر الشخصيات لولاية هذا المنصب.

(٣) أن يقبل الشخص المرشح هذا المنصب ، لأن الخلافة ليست إلا عقداً طرفاه الخليفة من ناحية وأهل الحل والعقد من ناحية أخرى ، ولا ينعقد العقد إلا بإيجاب – أى اختيار أهل الحل والعقد – وقبول المرشح الذى اختاروه .

(٤) ثم يعرض الأمر فى المرحلة التالية على جماهير الأمة ، ليدلوا برأيهم فى الشخص المرشح ، وتتم أو لا تتم البيعة له .

(٥) فإذا لم تتم البيعة له فعلي أهل الحل والعقد ترشيح غيره، وإذا تمت البيعة له فعليه

أن يعلن الحدود العامة والمنهج التفصيلى الذى سيسير عليه ، ومدى التزامه به فى ضوء الأصول الأولى : أى القرآن والسنة .

وقد اختلفت الوسيلة التى تم بها اختيار الخلفاء الراشدين بعد أبى بكر وإن لم تخرج عن مبدأ الشوري، تحت ضغط الظروف التى كانت تمر بها الأمة الإسلامية فى كل مرحلة . ذلك أنه عندما أيقن أبو بكر بدنو أجله ، واستشعر الخطر المحدق بالمسلمين نتيجة اشتباكهم الحربى فى الخارج على جبهتين كبيرتين فى فارس مع الفرس وفى الشام مع الروم ، خاف على المسلمين أن يقعوا فى الخلاف الداخلى إن هو ترك الأمر لهم ليختاروا من يرغبون فيه، اقتداء بسنة الرسول ﷺ؛ ولذلك اجتهد فى البحث عن مخرج من هذا الموقف العصيب بحيث يحقق هدفين معاً ، وهما الحفاظ على وحدة الجبهة الداخلية للمسلمين فى مواجهة أعدائهم فى الخارج، ثم عدم فرض خليفة غير مقبول من جماهير المسلمين .

كان تحقيق هذه الأهداف – من وجهة نظر أبى بكر – أمراً غاية فى الصعوبة، ولذلك ندم على قبول هذه المسئولية الجسيمة – أى منصب الخلافة – وتمنى أن تحملها غيره يوم السقيفة ؛ ويتبدى هذا الشعور فى قوله لعبد الرحمن بن عوف حين دخل عليه فى مرضه الذى توفى فيه : « والله ما آسى إلا على ثلاث فعلتهن ليتنى تركتهن، وثلاث تركتهن ليتنى فعلتهن، وثلاث ليتنى سألت رسول الله عنهن ، فأما اللآتى فعلتهن وليتنى لم أفعلهن .... ليتنى يوم سقيفة بنى ساعدة كنت ضربت على يد أحد الرجلين أبى عبيدة أو عمر ، فكان هو الأمير وكنت أنا الوزير .... وأما اللآتى كنت أود أنى سألت رسول الله ﷺ عنهن ، فليتنى سألته لمن هذا الأمر من بعده؟ فلا ينازعه فيه أحد ، وليتنى كنت سألته : هل للأنصار فيها من حق ...؟ » .

ومع ثقل المسئولية فلم يستسلم أبو بكر لليأس ؛ وإنما اجتهد حتى وجد المخرج فى المبدأ الإسلامى (الشورى) ، بعرض الأمر على جماهير المسلمين لتتحمل

مسئوليتها معه فى تقرير المصير ؛ ولذلك أمر بأن يجتمع المسلمون فى المسجد؛ وهناك قام فيهم خطيبا فقال لهم : «أيها الناس قد حضرنى من قضاء الله ماترون ، وإنه لابد لكم من رجل يلى أمركم ، ويصلى بكم ، ويقاتل عدوكم فيأمركم، فإن شئتم اجتمعتم فأتمرتم ثم وليتم عليكم من أردتم، وإن شئتم اجتهدت لكم رأيى ، والله الذى لا إله إلا هو لا آلوكم فى نفسى خيرا ، فقالوا : يا خليفة رسول الله أنت خيرنا وأعلمنا، فاختر لنا، قال : سأجتهد لكم رأيى واختار لكم خيركم إن شاء الله » .

وعلى هذا النحو فوضت جماهير المسلمين أبا بكر فى اختيار من يراه ليكون خليفة من بعده ؛ وهداه تفكيره إلى اختيار عمر بن الخطاب ، لكنه لم يشأ - رغم ما لديه من تفويض - أن يعلن هذا الاختيار إلا بعدما يستطلع رأى كبار الصحابة ، فلما وجد منهم إجماعاً على صواب هذا الاختيار ، واتفاقا على جدارة عمر بولاية هذا المنصب، دعا إليه عثمان بن عفان وطلب منه أن يكتب عهده إلى عمر، وأملى عليه ما نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ماعهد به أبو بكر بن أبى قحافة آخرعهده فى الدنيا نازحا عنها ، وأول عهده بالآخرة داخلا فيها ... أنى استخلفت عليكم بعدى عمر بن الخطاب، فإن تروه عدل فيكم فذلك ظنى به ورجائى فيه ، وإن بدل وغير فالخير أردت ولا أعلم الغيب، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون» .

وحرصاً من أبى بكرعلى أن يستوثق من طاعة المسلمين ورضاهم بهذا الاختيار أشرف عليهم فقال لهم : «أيها الناس إنى قد عهدت عهداً أفترضون به ؟ فقال الناس : رضينا ياخليفة رسول الله ، فقام على بن أبى طالب وقال : لانرضى إلا أن يكون عمر ، فقال أبو بكر : فإنه عمر » ؛ ثم استدعاه أبو بكر منفرداً وأوصاه بما أوصاه ورضى به المسلمون ؛ فصار الخليفة التالى لأبى بكر .

ومنذ أن تولى عمر الخلافة صار فى فترات مختلفة مشغول الفكر ، موزع الرأى حول من يلى الخلافة بعده ، وهل يقتدى بالرسول ﷺ فلا يستخلف أحدا ويترك الأمر من بعده شورى بين المسلمين؛ أم يقتدى بأبى بكر ويرشح من يتوسم فيه الخير

والصلاح إتقاء للفتنة والاختلاف ، وفى هذا المعنى يروى ابن عباس أنه دخل على عمر ذات يوم فوجده مهموماً مكروبا ، فقال له عمر : «ما أدرى ماذا أصنع فى هذا الأمر ؟ أقوم فيه وأقعد» . وواضح أن هذا القلق قد لازم عمر حتى يوم أن طعن؛ وليس أدل على ذلك أنه حينما توافد عليه المهاجرون يعودونه بعد طعنه؛ سألوه أن يستخلف عليهم أحداً ، فكان رده عليهم : « إن استخلف فقد استخلف من هو خير منى ، يعنى أبا بكر ؛ وإن أدع فقد ودع من هو خير منى ، يعنى الرسول ﷺ » ؛ ويفهم من هذا الرد أن عمر لم يكن قد استقر على رأى حتى ذلك الحين .

فلما انصرف كبار المهاجرين عنه أخذ يقلب الرأى فيما عرضوه عليه ، خاصة وأنهم عادوا إليه يرجونه أن يلبى ما سألوه قائلين : « ياأمير المؤمنين، لو عهدت عهداً »؛ وفى ذات الوقت كانت السيدة عائشة رضى الله عنها قد حثته على مثل ذلك بقولها: « لاتدع أمة محمد بلا راع ، استخلف عليهم، ولا تدعهم بعدك هملاً ، فإنى أخشى عليهم الفتنة » ، وهذا بعينه ما كان عمر يتوجس منه خيفة ويخشاه على المسلمين ، ولفت نظر كبار المهاجرين إليه حينما جمعهم فى اللحظات الأخيرة من حياته بقوله لهم : «يامعشر المهاجرين الأولين، إنى نظرت فى أمر الناس ، فلم أجد فيهم شقاقا ولا نفاقا، فإن يكن بعدى شقاق ونفاق فهو فيكم » ، يعنى أنه خاف من اختلاف الصحابة فيما بينهم فيؤدى ذلك إلى اختلاف الناس.

وأمام تخوف عمر من الفتنة والفرقة وإلحاح الصحابة عليه ، مال إلى فكرة الاستخلاف؛ ففكر أن يولى على بن أبى طالب وقال للمهاجرين : «كنت أجمعت بعد مقالتى لكم أن أنظر فأولى رجلاً أمركم ، هو أحراكم أن يحملكم على الحق، وأشار إلى علي » ؛ لكنه تراجع عن هذا الرأى ورأى أن يوسع دائرة الاختيار فى كبار الصحابة من المهاجرين بقية العشرة المبشرين بالجنة، وهم آنذاك : على بن أبى طالب، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الرحمن بن عوف؛ ومع أنه كان يرى فى كل منهم بعض الصفات التى لاينبغى – من وجهة نظره – أن تكون فى الحاكم الحازم العادل ، إلا أنه لم يلبث أن أدرك ببصيرته أن الأمر لن يعدو واحداً منهم ، لأن أنظار جماهير المسلمين

فى المدينة كانت تطمح إليهم وترى أنهم أحق بالخلافة من غيرهم ؛ ولذلك انتهى إلى قراره بجعل الأمر شورى فيهم، وفوضهم اختيار من يرونه من بينهم؛ بعدما وضع لهم منهجا دقيقاً جديداً لكيفية هذا الاختيار ؛ وإن لم يخرج هذا المنهج عن مبدأى الشورى واحترام رأى الأغلبية، ولنترك ابن قتيبة يحدد لنا هذا المنهج الذى رسمه عمر لكبار الصحابة هؤلاء بقوله لهم : «تشاوروا ثلاثة أيام ... وإلا فأعزم عليكم بالله أن لا تتفرقوا من اليوم الثالث حتى تستخلفوا أحدكم، فإن أشرتم بها إلى طلحة فهو لها، وليصل بكم صهيب هذه الثلاثة الأيام التى تشاورون فيها، فإنه رجل من الموالى لاينازعكم أمركم ، وأحضروا معكم من شيوخ الأنصار وليس لهم من أمركم شئ، وأحضروا معكم الحسن بن على وعبد الله بن عباس فإن لهما قرابة ، وأرجو لكم البركة فى حضورهما وليس لهما من أمركم شئ، ويحضر ابنى عبد الله مستشارا وليس له من الأمر شئ .... ، ثم قال : إن استقام أمر خمسة منكم وخالف واحد فاضربوا عنقه، وإن استقام أربعة واختلف اثنان فاضربوا أعناقهما، وإن استقر ثلاثة واختلف ثلاثة فاحتكموا إلى ابنى عبد الله، فلأى الثلاثة قضى فالخليفة منهم وفيهم ، فإن أبى الثلاثة الآخرون ذلك فاضربوا أعناقهم .... أوصى الخليفة منكم بتقوى الله العظيم ، وأحذره مثل مضجعى هذا ، وأخوفه يوما تبيض فيه وجوه وتسود وجوه، يوم تعرضون على الله لا تخفى منكم خافية .... ثم التفت إليهم وقال : قد قومت لكم الطريق فلا تعوجوه ، ثم التفت إلى على بن أبى طالب فقال : لعل هؤلاء القوم يعرفون لك حقك وشرفك وقرابتك من رسول الله، وما آتاك الله من العلم والفقه والدين فيستخلفوك، فإن وليت هذا الأمر فاتق الله ياعلي فيه ، ولا تحمل أحداً من بنى هاشم على رقاب الناس، ثم التفت إلى عثمان فقال : ياعثمان لعل هؤلاء القوم يعرفون لك صهرك من رسول الله وسنك وشرفك وسابقتك فيستخلفوك، فإن وليت هذا الأمر فلا تحمل أحداً من بنى أمية على رقاب الناس. ثم دعا صهيبا فقال : ياصهيب ، صل بالناس ثلاثة أيام ، ويجتمع هؤلاء النفر ويتشاورون بينهم، اخرجوا عنى ، اللهم ألفهم واجمعهم على الحق، ولا تردهم على أعقابهم، وول أمر أمة محمد خيرهم، فخرجوا من عنده ، وتوفي رحمة الله تعالى من يومه ذلك » . بهذا المنهج

الواضح رسم عمر لكبار الصحابة – أهل الشورى أو الحل والعقد – طريقاً بيناً لكيفية اختيار الخليفة من بعده.

كان أهل الشورى هؤلاء على قدر المسئولية التى أنيطت بهم ؛ فلم يخلوا بالمنهج المرسوم لهم ؛ إذ اجتمعوا فى بيت أحدهم على إثر وفاة عمر ، وأحضروا الشخصيات التى أشار إليها عمر، وتشاوروا يومين لم يبرموا خلالهما فتيلا ، فلما كانوا فى اليوم الثالث ذكرهم عبد الرحمن بن عوف بأنهم فى يوم أقسم عليهم عمر ألا يتفرقوا فيه دون أن يستخلفوا أحدهم، وعرض عليهم أن يخرج نفسه من الترشيح ويوكلوه فى اختيار من يراه منهم؛ فأجابوه إلى ذلك وأعطوه مواثيقهم على أن يكونوا معه على من يبدل ويغير، وأن يرضوا بمن يختاره لهم على ميثاق الله ألا يخص ذا رحم، وألا يتبع الهوى ويؤثر الحق ، فأخذ ميثاقهم وأعطاهم ميثاقه.

ثم خرج عبد الرحمن يستطلع آراء الناس فى المدينة متلثما لا يعرفه أحد، فما ترك واحدا من المهاجرين والأنصار وغيرهم من ضعفاء الناس ورعاعهم إلا سألهم واستشارهم؛ أما أهل الرأى فأتاهم مستشيراً ، وتلقى غيرهم سائلا يقول : من ترى الخليفة بعد عمر ؟ فلم يلق أحداً يستشيره ولا سأله إلا ويقول عثمان ؛ إذ يبدو أنه كانت هناك دعاية قوية قام بها بنو أمية له، أو ربما كان ذلك رغبة من جماهير المدينة فى التخفف من صرامة عمر وسياسته الحازمة .

عاد عبد الرحمن إلى حيث يجتمع كبار الصحابة ، واختلى بكل منهم على انفراد وناجاه طويلا؛ ثم بعث إلى جماهير المدينة من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار وإلى أمراء الأجناد ، فاجتمعوا بالمسجد حتى التج بأهله ، وقام قائلاً : « أيها الناس، إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم فأشيروا على» ، وحينذاك تبارى القوم فى الإدلاء بآرائهم؛ فمنهم من رشح عليا ومنهم من رشح عثمان ، وخاف عبد الرحمن أن يفتتن الناس ؛ فبادر بالقول : «إنى قد نظرت وشاورت ، فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا » ، ثم استطرد قائلا : «أيها الناس قد سألتكم سراً وجهراً عن إمامكم ، فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين : إما على وإما عثمان » . وحينذاك استدعى إليه عثمان وأخذ بيده فقال له :

عليك عهد الله وميثاقه لئن بايعتك لتقيمن لنا كتاب الله وسنة رسوله وسنة صاحبيك وشرط عمر ألا تجعل أحداً من بنى أمية على رقاب الناس، فقال عثمان : نعم . ثم نادى عليا وأخذ بيده وقال له مثلما قال لعثمان ، وكذلك شرط عمر ألا يجعل أحداً من بنى هاشم على رقاب الناس؛ فرد عليه علي بقوله : مالك ولهذا، إذا قطعتها فى عنقى، فإن علىَ الاجتهاد لأمة محمد، حيث علمت القوة والأمانة استغنيت بها كان فى بنى هاشم أو غيرهم ؛ فقال له عبد الرحمن : لا والله حتى تعطينى هذا الشرط ؛ فقال على : والله لا أعطيكه أبداً ، فتركه عبد الرحمن إلى عثمان وأخذ بيده فبايعه، وبايعه الناس من بعده . وعلى هذا النحو ، كان امتناع على بن أبى طالب عن الإقرار الصريح غير المشروط بسنة عمر وشرطه، مرجحاً لاختيار عثمان بن عفان، الذى بويع له فى اليوم الثالث الذى حدده عمر .

ظل عثمان خليفة حتى اغتياله فى عام ٣٥هـ، فعاد الأمر مرة أخرى إلى جماهير المسلمين لكى تولى من تختاره بإرادتها المطلقة، لأنه ليس هناك إشارات دينية ترجح أحداً من المسلمين على أحد، ولا نص صريح أو ضمنى لواحد معين ليتولى أمر الخلافة. ومن ثم بايعت هذه الجماهير – التى اجتمعت بالمدينة المنورة – علي بن أبى طالب بالخلافة . ولاشك أنهم توجهوا إليه لأنه الشخص الثانى الذى كانت قد انحصرت الخلافة فيه بعد عمر، بالإضافة إلى اعتبارات القرابة للرسول ﷺ، وحسن بلائه فى الإسلام ودفاعه عنه، وهو ماعبرت عنه هذه الجماهير لعلي فى قولها له : «ولا نجد اليوم أحداً أحق بهذا الأمر منك، لا أقدم سابقة ، ولا أقرب من رسول الله ﷺ».

ولم يستطع علي رفض ما أقرته جماهير المسلمين ، بالرغم من تخفيه منهم وصده لهم عدة مرات ؛ فلما ألحوا عليه حاول إرجاع هذا الحق إلى أهل الحل والعقد ومن بقى منهم بالمدينة؛ إذ قال لهم : «ليس ذلك إليكم ، إنما هو لأهل الشورى وأهل بدر، فمن رضى به أهل الشورى وأهل بدر فهو الخليفة، فنجتمع وننظر فى هذا الأمر»؛ فاضطروا إلى الانصراف عنه وهم يكلمون بعضهم بعضاً إلى أن قالوا : «يمضى قتل عثمان فى الآفاق والبلاد فيسمعون بقتله، ولايسمعون أنه بويع لأحد

بعده، فيثور كل رجل منهم فى ناحية، فلا نأمن أن يكون فى ذلك الفساد؛ فارجعوا إلى علي ، فلا تتركوه حتى يبايع ، فيسير مع قتل عثمان بيعة علي، فيطمئن الناس ويسكنون» .

ولذلك عادوا إلى علي ولا زالوا يكلمونه ويلحون عليه ويخوفونه الفتنة، لكنه خيرهم أحد خيارين قائلا لهم : «إن أجبتكم ركبت بكم ماأعلم ، وإن تركتمونى فإنما أنا كأحدكم، إلا أنى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم »؛ فافترقوا عنه للتفاوض، لكن بعدما تواعدوا معه على الغد فى المسجد . فلما أصبحوا توافدوا على المسجد وجاء علي فارتقى المنبر وقال : «إن هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلا من أمرتم، وقد افترقنا بالأمس على أمر، فإن شئتم قعدت لكم، وإلا فلا أجد على أحد ، فقالوا : نحن على ما فارقناك عليه بالأمس» . فقبل ترشحيهم وقاموا فبايعوه .

على أنه إذا كانت البيعة لعلي بالخلافة قد تمت من جماهير غفيرة من المسلمين بالمدينة ، فقد بقيت هناك بعض القوى التى رفضت البيعة له ، ووقفت منه موقف المعارضة؛ وأبرز هذه القوى بنو أمية الذين أصروا بقيادة معاوية بن أبى سفيان علىَ المطالبة بدم عثمان، وكان من نتيجة ذلك أن نشبت الحرب الأهلية بين المسلمين طيلة خمس سنوات ، ولم تتوقف إلا بمقتل الخليفة علي فى عام ٤٠هـ ؛ دون أن يستخلف أحداً ؛ حيث قال لمن تجمع حوله من المسلمين حين طعن وسألوه أن يرشح لهم خليفة : « ما استخلف رسول الله ﷺ فاستخلف، ولكن إن يرد الله بالناس خيراً فسيجمعهم على خيرهم ، كما جمعهم بعد نبيهم على خيرهم» . كما أدت هذه الحروب إلى انتهاء عصر الخلفاء الراشدين، وانتقال الحكم إلى بنى أمية ؛ فدخل نظام الاستخلاف فى طور جديد آخر .

ومن المفيد هنا أن نميز أهم ملامح التطور السياسى خلال عصر الخلفاء الراشدين ، فيما يلى :

(١) أن اختيار الخليفة انتقل من صورة ما يمكن أن نطلق عليه الانتخاب الحر المباشر، الذى تسهم فيه الجماعة الإسلامية بأسرها، كما حدث حين استخلاف

أبى بكر إلى صور أخرى يمكن أن نطلق عليها صوراً ديمقراطية مقيدة ومنها :

( أ ) تدخل الخليفة القائم بناء على تفويض من ممثلى الأمة فى اختيار الخليفة التالى، فى حالة خلو المنصب لأى سبب من الأسباب؛ وذلك مثلما حدث فى عهد أبى بكر؛ وأن هذا الاختيار ليس إلا ترشيحاً من الخليفة القائم لمن يراه أجدر وأقدر على القيام بأمر الناس بعده؛ إذ أن الخليفة القائم رغم كونه قائما على أمر الأمة إلا أنه لايملك حق الاختيار للأمة ؛ وليس له أن يختار من يقوم مقامه بعد وفاته؛ ثم إن ترشيح الخليفة القائم للخليفة بعده متوقف على قبول أهل الرأى لهذا الترشيح، إن شاءت رفضت وإن شاءت قبلت؛ ولهذا سأل أبو بكر الناس أيرضون بعمر أم لايرضون؛ ولو كان ماقام به أبو بكر اختياراً فعليا لما كان هناك ما يدعو الناس لأن تبايع عمر بعد ذلك؛ ولكنا نلاحظ أن بيعة الناس عمر هى التى جعلته خليفة وما انعقدت خلافته إلا بذلك.

(ب) أو يرشح الخليفة القائم مجموعة خاصة من القادة وكبار الشخصيات ، يصلح كل منهم لأن يكون الخليفة ؛ ثم يترك الأمر لهم ليقرروا ويختاروا من بينهم من يرضون بخلافته؛ مثلما حدث فى عهد عمر بن الخطاب .

(جـ) أو ينزل على رأى الغالبية التى تختار من تشاء ، وتضع رأيها موضع التنفيذ بالبيعة لمن تختاره؛ مثلما حدث فى مبايعة على بن أبى طالب.

(٢) أن بيعة الخليفة الجديد لاتتم إلا برضا عامة أهل الرأى أو غالبتهم؛ ثم قبول من جانب هذا المرشح لهذا المنصب .

(٣) تأكيد رفض مبدأ التوريث ، وقد تمثل ذلك فى رفض عمر بن الخطاب ما أشار به بعض كبار الصحابة بترشيح ابنه عبد الله حينما قالوا له : يا أمير المؤمنين إن فيه للخلافة موضعاً فاستخلفه ؛ فإنا راضون به ، فقال عمر : حسب آل الخطاب تحمل رجل منهم الخلافة، ليس له من الأمر شيء . ثم حذر ابنه من قبول منصب الخلافة بقوله : ياعبد الله إياك ثم إياك لا تتلبس بها .

يضاف إلى ذلك أنه كانت هناك عوامل بارزة فى ترجيح كفة من يتم اختياره لمنصب الخلافة ، ومنها أن تكون له الأسبقية فى اعتناق الإسلام، والالتزام التام بكتاب الله وسنة نبيه ، واتباع مناهج السابقين فى هذا المجال بالاعتماد على الشورى، ورد أمر الاختيار النهائى لجماهير الأمة، مع الأخذ فى الاعتبار السوابق العربية فى اختيار رؤساء القبائل قبل الإسلام، كالقرابة والسن والتجربة وسعة النفوذ ... إلى غير ذلك من السوابق العربية الأصيلة .

وكان من المتوقع أن يتم الانتفاع بهذه التجارب التى تمت فى عهد الخلفاء الراشدين خلال المراحل التالية، ليظل للأمة الهيمنة الفعلية فى أختيار الخليفة على الأسس الإسلامية ، ويظل مبدأ الشورى معمولا به يمارس دوره فى أستطلاع رأى الأمة . ولكن حدثت تطورات جديدة فى عصر بنى أمية ، كان من شأنها أن أخرجت منصب الخلافة عن الالتزام الدقيق بتلك السوابق التاريخية، وأرست سوابق أخرى جديدة ليس للحديث عنها محل هنا .

خلاصة القول أن نظام الخلافة فى عصر الخلفاء الراشدين كان محكوما بالرغبة الصادقة فى القيام بالمسئولية ، والاعتقاد الجازم بالأحقية ؛ ومن ثم ارتكز على أساسين هما :

(١) اشتراط القرشية ، فكل الخلفاء الراشدين كانوا من قريش ، ولذلك جعل الفقهاء السنة النسب القرشى شرطا أساسيا من شروط الخليفة .

(٢) رفض مبدأ التوريث ؛ وهو المبدأ الذى يستند إلى صلة العصبية والدم؛ ومعلوم أن الإسلام حارب العصبية ودعا إلى المساواة ؛ ولذلك فلم يوصى أحد من الخلفاء الراشدين لأحد من أبنائه أو أفراد أسرته بمنصب الحكم ، فالرسول ﷺ نفسه لم يوصى بالخلافة لأحد من أهل بيته ، ورفض عمر بن الخطاب تولية ابنه رغم إلحاح الصحابة عليه، وبقى حق الترشيح قاصرا على كبار الصحابة من قريش، وكان على المسلمين مباركة هذا الاختيار عن طريق البيعة العامة .

# الفصل الثانى

## حركة الردة

ما كاد المسلمون يفرغون من أمر إقرار نظام الخلافة فى سقيفة بنى ساعدة حتى واجهوا مشكلة خطيرة . فأمر الخلافة انحصر بين المهاجرين والأنصار فى المدينة المنورة فقط دون أن يتعداها إلى خارجها ولم يتطلب إقراره سوى قدر من الكياسة وسداد الرأى، أما المشكلة الجديدة فقد انتشرت بين معظم القبائل العربية على نطاق شبه الجزيرة كلها، باستثناء المدن الثلاث : المدينة ومكة والطائف ، وكان القضاء عليها يحتاج إلى إعداد جيوش وتعبئة قوات المدينة الحربية والمعنوية .

ذلك أنه حينما توفى الرسول ﷺ عظمت بوفاته فجيعة المسلمين ومصيبتهم، وانفسح المجال أمام المنافقين وأعداء قريش من العرب لإظهار نواياهم الانفصالية ، وتجسدت مظاهر الصدام العنيف بين النظامين القبلى والإسلامى فى الحركة المعروفة بالردة ، التى ساعد على تأجج نيرانها ما بلغ القبائل العربية فى أنحاء الجزيرة من تنازع المهاجرين والأنصار على الخلافة ثم استئثار قريش بها بعد أن أخرجتها من الأنصار . ومن العوامل التى جرأت المرتدين على الانتفاض قيام أبى بكر بإرسال حملة أسامة بن زيد إلى الجبهة الشمالية، وما سببه ذلك من ضعف القوة الدفاعية عن المدينة.

وحركة الردة فى واقع الأمر لاتعدو أن تكون انتفاضاً على نظام الدولة الذى وضع الرسول ﷺ أسسه فى المدينة، فإن كثيراً من قبائل العرب لم تعترف بأبى بكر خليفة للرسول ﷺ اعتقاداً منها بأن الإسلام انتهى بوفاته ، وأن نظام الخلافة يدعم نفوذ قريش ويجعل سلطانها فى المدينة وراثياً ، فجنحت هذه القبائل إلى النظام القبلى القديم القائم على الحرية والاستقلال فى نطاق القبيلة ، وقام عدد من قبائل العرب فى مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية بخلع سلطان المدينة ، وطرد عمال الصدقات بهدف التخلص من الزكاة ، التى اعتبروها إتاوة تحد من استقلالهم ، والاكتفاء من الإسلام بالصلاة ؛ بينما ارتد عدد كبير من العرب عن الإسلام والتفوا حول عدد من المتنبئين بدافع العصبية القبلية ، ابتغاء منافسة قريش فى الرئاسة. وقد ظهرت بوادر هذه الحركة فى أواخر أيام الرسول ﷺ ثم احتدمت نارها بعد وفاته.

ذلك أن المسلمين كانوا قد ربطوا بين شخص الرسول ﷺ وبين ما حققه للعرب من مكاسب دينية واجتماعية وسياسية، فهو الذى ربطهم برابطة الإيمان بدلاً من رابطة الدم، وشرع الجهاد فى سبيل الله بدلاً من القتال من أجل الثأر أو التسابق نحو الماء ، وأطاح بفردية القبيلة لقاء فكرة الجماعية التى تستند عليها الأمة ، وهو الذى أرسى قواعد الدولة وفق الشريعة الإسلامية ، وساوى بين المسلمين ، ودعا إلى التكافل والتضامن ، ونظم المجتمع العربى على نحو يتناسب وطباع العرب . وبالإضافة إلى هذا التغيير الجذرى الذى طرأ على العرب فى جميع مناحى حياتهم كانت قوة شخصية الرسول ﷺ ، وإيمانه العميق برسالته ، وجرأته فى سبيل الحق والدين من عوامل افتتان المسلمين بشخصه . فلما توفى ﷺ أحدثت وفاته اضطراباً عنيفاً فى نفوس المسلمين ، ولم يصدق الجمهور الأعظم منهم نبأ وفاته ، وقال الناس : « ما كنا نظن أن رسول الله يموت حتى يظهر على الأرض » ، بل إن عمر بن الخطاب نفسه لم يصدق هذا الخبر، ورد على الناس بقوله : «إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفى ، وإن رسول الله ﷺ والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات ، ووالله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات » . وظل عمر يحدث الناس بهذا المعنى حتى أقبل أبو بكر على الناس بعد أن تأكد من وفاة الرسول ﷺ، فقال لعمر : « إن الله نعاه إلينا بقوله : « إنك ميت وإنهم ميتون » . ثم خطب فى الناس فقال : « أيها الناس : من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لايموت » ، ثم تلا هذه الآية : «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أ فإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً، وسيجزى الله الشاكرين» .

وأحس المسلمون بعد وفاة الرسول ﷺ بفراغ هائل ، وتشككوا فى قدرة خليفته على ملئه ، وضعفت نفوسهم جزعاً وشعروا بالضياع ، ولم يلبث تيار الردة أن جرفهم . وهكذا تزعزع البناء الذى شيده الرسول ﷺ ، لأن عدداً كبيراً من القبائل

العربية التى كانت قد خضعت لسلطان الدولة فى حياته وفقاً لمعاهدات عقدتها معه، اعتبرت ما كان يربطها بالدولة قد انتهى بوفاته .

يضاف إلى ذلك أن خضوع قبائل الأطراف لسلطان المدينة لم يكن عميقاً ، لأنها لم تخضع إلا بعدما تبين لها تصميم الرسول ﷺ وتمسكه بفكرة توحيد الأمة العربية كلها فى ظل الإسلام، فقبلت هذه القبائل أن تعترف بهذا السلطان طالما كان هذا الوضع مرهوناً بحياة الرسول، ثم إن ما فرضه الإسلام من الزكاة على المسلمين أوجد نوعاً من الإحساس بالإذلال والتصاغر عند هذه القبائل لم تألفه قط، على الرغم من أن الإسلام لم يعتبر الزكاة جزية أو إتاوة يدفعها المغلوب وإنما اعتبرها صدقة ، وعلى الرغم من أن الرسول ﷺ لم يحد من الشعور بالاستقلال الذى كانت هذه القبائل تنعم به وإنما ترك لها كيانها ، فلم تفقد بدخولها فى الاسلام شيئاً من حريتها، ولم يكن سلطان المدينة يتجاوز العهود التى ارتبطت بها هذه القبائل مع الرسول ﷺ، ووجود ممثلين للمدينة فى هذه القبائل للإشراف على جمع الزكاة . كل ذلك لم يمنع هذه القبائل من أن تكتم سخطها على هذا الوضع وأن تتحين الفرصة المناسبة لقطع ما كان يربطها سياسياً بالمدينة، فتطرد عمال الصدقات، وتنبذ الطاعة، وتتنصل من التبعية بالتوقف عن دفع الزكاة؛ وهو ما عبر عنه مالك بن نويرة فى مناقشاته مع خالد بن الوليد مبعوث أبى بكر ، التى أراد بها إقناع خالد أنه على الصلاة يقيم لكنه لا يقر بالزكاة، وما اعترف به هبيرة أحد سادة بنى عامر لعمرو بن العاص بأن العرب لاتطيب لقريش نفساً بالإتاوة ( الزكاة) التى يدفعونها لها .

كذلك فلم يكن عدد كبير من عرب الأطراف قد اعتنق الإسلام عن إيمان راسخ به وفهم عميق لأصوله، وإنما هيبة وخوفاً مما قد يصيبها من الردع ، أو لمجرد التبعية لرؤسائهم ، ولم يكن الرسول ﷺ يشترط عليهم لاعتناق الإسلام سوى تطبيق قواعده، وهى النطق بالشهادتين وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم وأخيراً الحج لمن تيسر له القيام به ، ولذلك لم يتمكن الإسلام فى قلوب الكثير من هؤلاء العرب وخاصة البدو أو الأعراب، ولم يألفوا ما جاء به من تعاليم ومثل أطاحت بالمثل

الجاهلية، وكانوا يعتقدون أن الأوضاع الجديدة فى الجزيرة موقوتة بحياة الرسول ﷺ ، فلما توفى تجرأوا على إعلان خروجهم على سلطان المدينة ، وارتدوا عن الإسلام كنظام سياسى وليس إلى الوثنية التى قضى عليها الإسلام قضاء مبرماً .

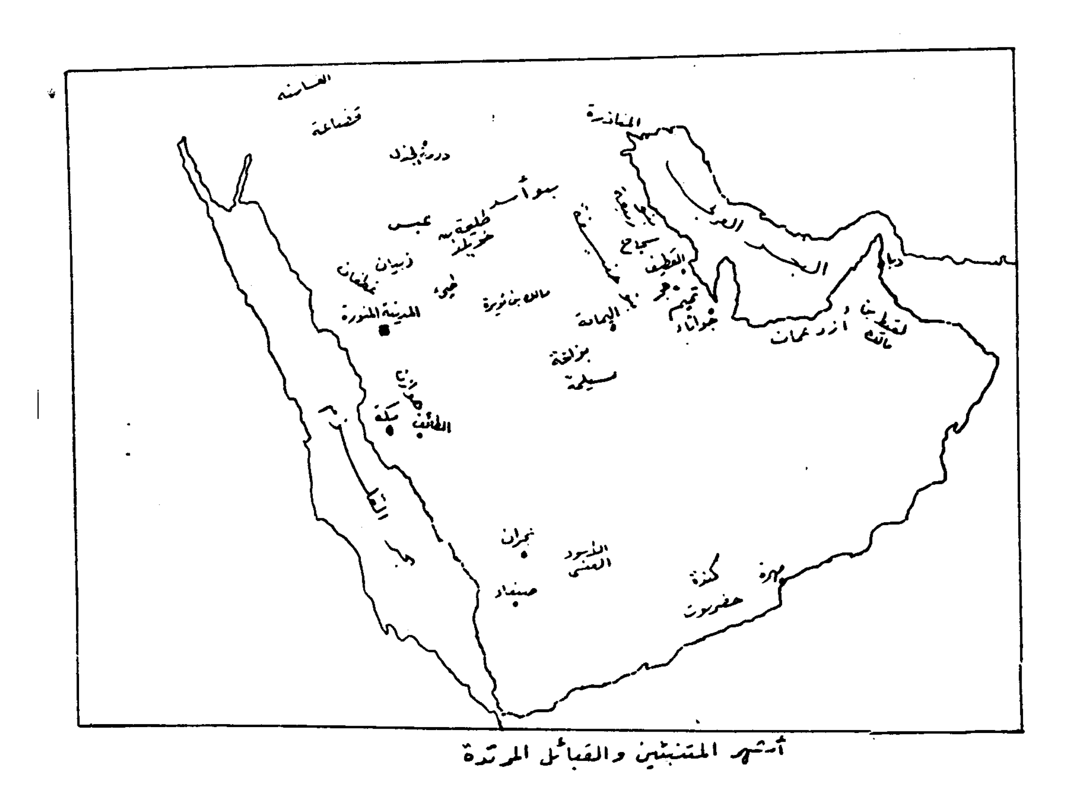
ومن ناحية ثالثة لم يكن من السهل على القبائل التى دخلت فى الإسلام وأعلنت خضوعها للرسول ﷺ فى المدينة منذ العام التاسع للهجرة أن تنسى خلال هذا الأمد القصير عصبياتها القبلية ولم تكن لترضى بتفوق قريش وزعامتها عليها، أو استمرار هذه الرئاسة بعد وفاة الرسول ﷺ كنوع من الوراثة التى لم يألفها العرب قط. وليس أدل على ذلك ما حدث فى سقيفة بنى ساعدة، فلم يكن يمنع الأنصار عن مبايعة أبى بكر سوى خوفهم من أن ينحاز إلى أهله وعشيرته ، فهذا الحباب بن المنذر يخاطب قومه الأنصار بعد مبايعتهم لأبى بكر قائلاً : « فعلتموها يامعشر الأنصار ! أما والله لكأنى بأبنائكم على أبواب أبنائهم قد وقفوا يسألونهم بأكفهم ولا يسقون الماء » . فرد عليه أبو بكر : « أمنا تخاف ياحباب؟ » قال : « ليس منك أخاف ولكن ممن يجىء بعدك » فقال أبو بكر : « فإذا كان ذلك كذلك فالأمر إليك وإلى أصحابك ليس لنا عليكم طاعة » ، فرد الحباب : « هيهات يا أبا بكر ، إذا ذهبت أنا وأنت جاءنا بعدك من يسومنا الضيم » .

وعلى ذلك لم تكن حركة الردة فى جوهرها حركة دينية بقدر ما كانت فى الواقع حركة سياسية وضحت فيها العصبيات القبلية، وكانت ردة الأسود العنسى باليمن أول ردة فى الإسلام على عهد الرسول ﷺ ، فادعى النبوة واستغلظ أمره فى اليمن ، ولكن حركته أخمدت قبل وفاة الرسول ﷺ ، وعاد أصحاب الرسول ﷺ الذى كان قد ردهم الأسود إلى أعمالهم . كذلك تنبأ طليحة بن خويلد من بنى أسد فى حياة الرسول ﷺ واستفحل أمره بعد وفاته ، وتبعه عدد كبير من العرب تعصباً ، ولهذا كان أكثر أتباعه من أسد وغطفان وطئ . وتنبأت أيضاً امرأة من بنى يربوع تدعى سجاح بنت الحارث التميمية ، وكانت هى ورهطها فى أخوالها من تغلب ومن تبعهم من ربيعة تسعى لغزو المدينة ، وعندما اجتمعت بمسيلمة الذى ادعى النبوة فى اليمامة

قال لها : « هل لك أن أتزوجك وآكل بقومى وقومك العرب ؟ » فأجابته إلى طلبه. وعندما كتب الرسول ﷺ إلى أهل اليمامة فى العام السابع للهجرة يدعوهم إلى الإسلام، أرسل إليه أهل اليمامة وفداً اشترك فيه مسيلمة ، ولم يكن قد تنبأ بعد ، فقال مسيلمة له: « إن شئت خلينا الأمر وبايعناك على أنه لنا بعدك » ، فلما عاد وفد بنى حنيفة إلى اليمامة ادعى مسيلمة النبوة ، وكتب إلى الرسول ﷺ : « من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله . أما بعد ، فإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشاً لاينصفون . والسلام عليك ». فرد عليه الرسول ﷺ بقوله : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد النبى إلى مسيلمة الكذاب أما بعد فـ ( إن الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) والسلام على من اتبع الهدى » .

ومن المرتدين من كان يسعى إلى استرجاع ملك ، كبنى ربيعة بالبحرين فإنهم أجمعوا على الردة وقالوا : « نرد الملك فى المنذرين النعمان بن المنذر » فملكوه . كما ارتد الحطم بن ضبيعة فيمن تبعه من بكر بن وائل ومن انضم إليه ممن بقى على وثنيته حتى نزل القطيف وهجر، وأرسل إلى الغرور بن سويد أخى النعمان بن المنذر، وقال له : «اثبت فإنى إن ظفرت ملكتك بالبحرين حتى تكون كالنعمان بالحيرة» . ومن الأدلة أيضاً على أن الردة حركة سياسية تقوم على العصبيات القبلية من أن عيينة بن حصن قام فى غطفان وتحالف مع بنى أسد، واتبع طليحة وهو يعلم أنه كذاب ، مبرراً موقفه بقوله : والله لئن نتبع نبياً من الحليفين أحب إلينا من أن نتبع نبياً من قريش، وقد مات محمد وبقى طليحة » . كما أن طلحة النمرى جاء إلى اليمامة وأراد الاجتماع بمسيلمة واختبار نبوته، فلما جاءه قال له أنت مسيلمة ؟ قال : نعم ، قال من يأتيك ؟ قال : رحمن قال: أفى نور أو فى ظلمة ؟ ، فقال : فى ظلمة، فقال : أشهد أنك كذاب ، وأن محمداً صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر .

وعلى هذا النحو كانت الردة حركة سياسية اتخذت قناعاً زائفاً من الدين ، وكانت تستهدف الاستقلال عن سلطان المدينة أو المطالبة بملك وسلطان ، بدليل أن



أشهر المتنبئين والقبائل المرتدة

العدد الأعظم من المرتدين اعتبروا الزكاة نوعاً من الإتاوة التى يؤديها المغلوب إلى الغالب، فطالبوا بإعفائهم منها، أو التمس بعضهم من وراء انتحال النبوة نوعاً من الزعامة السياسية منافسة لقريش، وقد أيدت المتنبئين قبائلهم تعصباً فحسب دون أى اعتبار آخر .

صمم أبو بكر الصديق منذ اليوم الذى بويع فيه بالخلافة على أن ينهج نهج الرسولﷺ ، ويترسم خطاه ويسلك السبيل التى سلكها فى سبيل نشر الإسلام وتوحيد أمة العرب دون أن يخاف وهنا ولا حيرة ولا جبناً ، وعلى الرغم من ثقل المهمة التى تحمل تبعتها فقد آلى على نفسه ألا يتساهل فى أمور الدين ولا ينحرف عن سواء السبيل مهما كلفه ذلك من تضحيات ، وقد عبر عن ذلك فى خطبته فى اليوم الأول من خلافته فقال : « ولقد قلدت أمراً عظيماً ما لى به طاقة ولايد ، ولوددت أنى وجدت أقوى الناس عليه مكانى، فأطيعونى ما أطعت الله ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم » ، ثم بكى وقال: « أعلموا أيها الناس أنى لم أجعل لهذا المكان أن أكون خيركم ولوددت أن بعضكم كفانيه ، ولئن أخذتمونى بما كان الله يقيم به رسوله من الوحى ماكان ذلك عندى، وما أنا إلا كأحدكم ، فإذا رأيتمونى قد استقمت فاتبعونى وإن زغت فقومونى ... » وهكذا لم يكن أبو بكر ، عندما ظهرت حركة الردة، على استعداد للتساهل فى أمر من أمور الدولة والدين وصمم على محاربة المرتدين وعدم مهادنتهم فى الوقت الذى أنفذ حملة أسامة بن زيد إلى مقصدها تلبية لأمر الرسول ﷺ قبل وفاته. وعندما شرع أسامة فى الرحيل كان عامة العرب وخاصتهم قد ارتدوا إلا قريشاً وثقيفا ، فأبدى جماعة من المسلمين اعتراضهم على تسيير الحملة فى وقت فيه العرب على سلطان المدينة، ونصحوا أبا بكر بإبقاء الجيش فأجابهم: « والذى نفسى بيده لو ظننت أن السباع تختطفنى لأنفذت بعث أسامة كما أمر به النبى ﷺ ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذته » .

وكان طليحة بن خويلد الذى تنبأ فى أواخر حياة الرسول ﷺ قد استفحل أمره، وتعصب له قومه على غير إيمان به ، ولما كثر أتباعه بانضمام أسد وغطفان وطئ

وكنانة فرقهم فى نواحى أراضيهم ، فأقام فريق منهم فى ذى القصة على مسافة قريبة إلى الشرق من المدينة، وأمدهم طليحة بحبال الأسدى، بينما عسكر فريق آخر من بنى مرة فى الأبرق بقيادة عوف بن فلان بن سنان ، وأرسلوا إلى المدينة وفداً منهم يبلغ أبا بكر استعدادهم بالمداومة علي إقامة الصلاة لكنهم يمتنعون عن دفع الزكاة . وأشار عليه جماعة من المسلمين بقبول ما عرضه المرتدون ، وقالوا : « أقبل منهم ياخليفة رسول الله ، فإن العهد حديث والعرب كثير ، ونحن شرذمة قليلون لا طاقة لنا بالعرب، مع أننا سمعنا رسول الله ﷺ يقول : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم إلا بحقها وحسابهم على الله » ؛ فقال أبو بكر : « هذا من حقها لابد من القتال » . فطلب القوم من عمر بن الخطاب أن يخلو به عله يعدل عن عزمه فيقبل من المرتدين إقامة الصلاة ويعفيهم من دفع الزكاة ، فلما حدثه عمر ورجاه أن يفتر عن قتالهم وقال له : « ياخليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم فإنهم بمنزلة الوحش » احتد عليه أبو بكر بقوله : « رجوت نصرتك وجئتنى بخذلانك، جباراً فى الجاهلية جوازاً فى الإسلام ؟ بماذا عساى أن أتألفهم، بشعر مفتعل أو بسحر مفترى ؟ هيهات هيهات » . ثم أردف قائلاً : « لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال، والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه، ولو لم أجد أحداً أقاتلهم به لقاتلتهم وحدى حتى يحكم الله بينى وبينهم وهو خير الحاكمين . وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : أمرت أن أقاتل الناس على ثلاث : شهادة أن لا إله إلا الله، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فوالله الذى لا إله إلا هو لا أقصر دونهن » . وعلى هذا النحو عزم أبو بكر عزماً أكيداً على محاربة المرتدين ومانعى الزكاة، إذ اعتبرهم مارقين متمردين على الدولة .

رد أبو بكر وفود أسد وغطفان وطئ ، فعادوا وأخبروا قومهم بما عاينوه من ضعف قوة الدفاع عن المدينة وأطمعوهم فيها ، ولم يكن أبو بكر بغافل عن نوايا المرتدين العدوانية، فعمل على تدعيم الدفاع حول المدينة تأهباً لمقاتلتهم إذا هاجموها ليلاً أو نهاراً ، فعهد بالدفاع عن مداخلها إلى على بن أبى طالب وطلحة والزبير وعبد الله بن مسعود. وصح ما توقعه أبو بكر فلم تكد تمضى ثلاثة ليالى حتى أغار

المرتدون من غطفان وبنى أسد على المدينة ليلاً ، ولكن الغارة ووجهت بمقاومة باسلة وانتهت بالفشل ، حيث ولت القوات المرتدة هاربة . ولم ينتظر أبو بكر أن يعاودوا الكرة ، ولكنه بادر بالزحف نحوهم أثناء الليل وباغتهم، فقاتلهم حتى ولوا الأدبار ، فطاردهم حتى ذى القصة . فانتقم بنو عبس وذبيان من المسلمين بأن وثبوا على من بقى منهم على الإسلام فقتلوه، فأقسم أبو بكر ليقتلن من المشركين بمن قتلوا من المسلمين .

وفى هذه الأثناء وصل أسامة بن زيد من حملته، فاستخلفه أبو بكر على المدينة حتى يستريح هو وجنده، وزحف أبو بكر بنفسه فى جمع من المسلمين فنزل بالأبرق فقاتل من به من المرتدين، وتغلب عليهم وعلى بلاد ذبيان ، وانسحبت ذبيان وبنى عبس إلى طليحة الأسدى ببزاخة ، وهى عين ماء لبنى أسد تقع بالقرب من مكة . وعاد أبو بكر إلى المدينة فرتب بعوثه وعقد الأولوية لأحد عشر أميراً من المشهود لهم بالمهارة القتالية ، وبذلك تأهب لخوض المعركة ضد المرتدين ، وهؤلاء الأفراد هم :

- **خالد بن الوليد :** الذى عهد إليه بمحاربة طليحة بن خويلد وقومه من بنى أسد ومن التف حولهم من غطفان وهوازن فى بزاخة ، ثم مالك بن نويرة وقومه من بنى يربوع بالبطاح ، وهو ماء لبنى أسد.
- **عكرمة بن أبى جهل :** الذى أمره بالسير نحو مسيلمة وقومه بنى حنيفة فى اليمامة، ثم التوجه إلى دبا بعمان بعد الفراغ من اليمامة .
- **المهاجر بن أبى أمية :** لمحاربة أتباع الأسود العنسى ومساعدة الأبناء – وهم نتاج مصاهرة الفرس العرب – ضد قيس بن المكشوح المرادى ومن أيده من أهل اليمن، فإذا انتهى من مهمته يمضى إلى كندة بحضرموت ليجتمع مع زياد بن لبيد ليكونا يداً واحدة على المرتدين.
- **خالد بن سعيد بن العاص :** الذى سيره إلى مشارف الشام، حيث قبائل كلب وقضاعة وطئ وعذرة وبلى ، الذين كان معظمهم نصارى و بعضهم يهود، وهى

قبائل ارتدت عقب وفاة الرسول ﷺ فأنفذ إليهم أبو بكر جيش أسامة ففشل، واتبعه بجيوش أخرى لم تحقق شيئاً حتى رماهم بخالد بن الوليد الذى يرجع إليه فضل قهرهم والاستيلاء على دومة الجندل .

– **عمرو بن العاص :** الذى أرسله إلى قبائل قضاعة ووديعة والحارث فى شمال الحجاز .

– **حذيفة بن محصن الغلفانى:** وعهد إليه بأهل دبا بعمان ، ثم الانضمام إلى عرفجة.

– **عرفجة بن هرثمة :** وكانت وجهته مهرة .

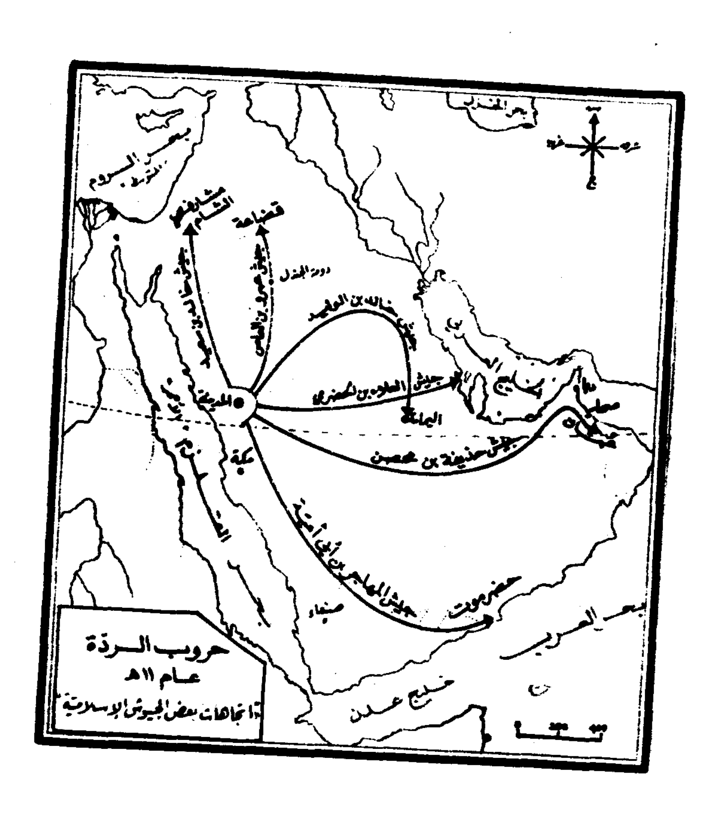
– **شرحبيل بن حسنة :** الذى سيره فى إثر عكرمة لمقاتلة مسيلمة باليمامة ثم يمضى بعد اليمامة إلى قضاعة مدداً لعمرو بن العاص.

– **طريفة بن حاجب :** الذى سيره إلى بنى سليم ومن معهم من هو ازن إلى الشمال الشرقى من المدينة .

– **سويد بن مقرن :** ووجهته تهامة اليمن .

– **العلاء بن الحضرمى :** الذى أمره بالتوجه إلى البحرين لمحاربة من ارتد بها من ربيعة ، فإذا فرغ منهم يتوجه إلى اليمامة للمساعدة فى دحر مسيلمة .

انفصل أمراء البعوث من ذى القصة بعدما حدد أبو بكر لكل منهم وجهته، ورسم لهم خطة محكمة تكفل تعاونهم فيما بينهم لمباغتة المرتدين فى كل ناحية ، وتطويقهم فى وقت واحد حتى يشل اتحادهم فيما بينهم ، ثم زود كلا منهم بنسخة من كتاب إلى المرتدين يأمرهم فيه بمراجعة الإسلام ويحذرهم من نتيجة ارتدادهم قبل الدخول معهم فى قتال . ونجحت بعوث أبى بكر فى قمع حركة الردة على نحو لم يكن فى الحسبان، وقاتل خالد بن الوليد – أكثر هؤلاء الأمراء كفاية حربية ومقدرة – طليحة وحلفاءه من بنى أسد وغطفان فى بزاخة، وانتهت المعركة بهزيمة طليحة وحلفائه، وفر طليحة مع امرأته إلى بلاد الشام فأقام فى كلب، وأسلم حين بلغه أن بنى


حروب الردة
عام ١١هـ
اتجاهات بعض الجيوش الإسلامية
مشارف الشام
قضاعة
جيش عمرو بن العاص
جيش خالد بن الوليد
جيش العلاء بن الحضرمي
اليمامة
المدينة
مكة
جيش حذيفة بن محصن
جيش المهاجر بن أبي أمية
حضرموت
صنعاء
خليج عدن
بحر العرب
بحر الروم

أسد وغطفان وعامر قد أسلموا، ثم خرج معتمراً إلى مكة فى خلافة أبى بكر . أما بنو عامر فقد أقبلوا بعد هزيمة أهل بزاخة إلى خالد بن الوليد يعلنون إسلامهم، فبايعهم على مثل ما بايع عليه أهل بزاخة من أسد وغطفان وطئ قبلهم، بعد أن طلب منهم أن يسلموا إليه المسئولين عن قتل المسلمين منهم. فلما أتوه بهم استثنى منهم قرة بن هبيرة القشيرى ونفراً معه أوثقهم وسيرهم إلى أبى بكر، ومثل بالذين عدوا على المسلمين فأحرقهم بالنيران وأثقلهم بالحجارة ثم رمى بهم من الجبال . ثم بلغ خالد أن فلول غطفان وطئ وسليم وهوازن قد اجتمعوا إلى أم زمل سلمى بنت مالك بن حذيفة فحرضتهم على القتال، وكثرت حشودها واستفحل أمرها، فزحف إليها خالد واشتبك معها فقتلت وقتل حول جملها مائة رجل .

ثم زحف خالد نحو البطاح وبها مالك بن نويرة ، فلما قدم إليها لم يجد بها أحداً ، إذ كان مالك قد فرق بنى يربوع أتباعه ، فبث خالد السرايا فجاءته الخيل بمالك فى نفر من بنى ثعلبة بن يربوع، فأمر بحبسهم فى ليلة باردة، ثم أمر رجاله أن يدفئوا الأسرى والإدفاء فى لغة كنانة القتل، فظن جنده أنه أراد قتل الأسرى فقتلوهم. فلما علم خالد بما حدث أسف لمقتل مالك وتزوج امرأته، وكان قتل مالك من العوامل التى أثارت عمر بن الخطاب على خالد بن الوليد، فاتهمه أنه قتل رجلاً مسلماً وتزوج امرأته، وعلى الرغم من أن أبا بكر تجاوز عن خالد فإن عمر بن الخطاب لم ينس له فعلته .

ثم سار خالد بجموعه إلى اليمامة لقتال مسيلمة ، وكان أبو بكر قد عقد لعكرمة فى عسكر إلى اليمامة لمحاربته ، ثم أتبعه بشرحبيل بن حسنة، فتعجل عكرمة بمواقعة أهل اليمامة حتى ينال شرف الانتصار عليهم فنكبوه وهزموه ، وأقام شرحبيل فى الطريق عندما بلغه خبر الهزيمة، وكتب عكرمة إلى أبى بكر بخبر هزيمته، فأمره أبو بكر بالسير إلى عمان ومهرة والاشتراك مع حذيفة وعرفجة، ثم أمره بعد ذلك بالسير إلى اليمن والاشتراك مع مهاجر ين أبى أمية فى محاربة المرتدين. ثم كتب إلى شرحبيل يأمره بالمقام فى موضعه إلى أن يصل خالد فيشترك معه فى

مقاتلة مسيلمة ، ثم يمضى بعد ذلك إلى عمرو بن العاص ليعينه على قضاعة .

وعلى الرغم من أن أبا بكر أمر شرحبيل بالبقاء حيث هو حتى يدركه خالد فإنه سبق خالداً فى مقابلة بنى حنيفة وكان عددهم يومئذ أربعين ألف مقاتل ، فوقع فيما وقع فيه عكرمة من هزيمة؛ ولم ينقذ الموقف إلا وصول خالد بن الوليد الذى أعاد ترتيب الصفوف وداهم مسيلمة فى عقرباء ، واشتد القتال بين الفريقين وتبادلا النصر والهزيمة ، وتعرض المسلمون للهزيمة أكثر من مرة ، وكثر القتلى فى الفريقين، وانتهت المعركة بهزيمة بنى حنيفة، وطاردهم المسلمون حتى ألجأوهم إلى الحديقة، فسميت يومئذ حديقة الموت لكثرة من قتل بها ، وفيها قتل مسيلمة، وبلغ عدد القتلى من بنى حنيفة بعقرباء سبعة آلاف وبحديقة الموت سبعة آلاف أخرى وفى طلب الفلول سبعة آلاف ثالثة . ويعتبر خالد أهم قواد المسلمين أبطال حرب الردة، وكان دوره أهم الأدوار جميعاً، إذ قضى على حركة مسيلمة أكثر المرتدين خطراً ، وغرس الهلع والذعر فى قلوب المرتدين فى أكثر مناطق الجزيرة العربية إلى حد أن الكثير منهم استسلم للمسلمين دون قتال وأظهر الإسلام ، وأثبت انتصار المسلمين على كل من طليحة ومسيلمة سطوة المدينة . وبالقضاء على كل من طليحة ومسيلمة سهل على المسلمين القضاء على المرتدين فى الأطراف : فطريفة بن حاجب ومساعده عبد الله بن قيس الحاشى هاجما الفجاءة السلمى بالجواء ، فانهزم الفجاءة ووقع أسيراً ، فلما قدم به طريفة على أبى بكر أمر بإحراقه فى ناحية المصلى ، وعكرمة بن أبى جهل أمره أبو بكر بالانضمام إلى زياد بن لبيد والمهاجر بن أبى أمية لمحاربة الأشعث بن قيس وقومه من كندة، وكان الأشعث قد تحصن فى النجير من أرض اليمن، فقدم عكرمة عليهما بعد منصرفه من عمان وقد فتح النجير.

وعلى الرغم من أن عكرمة أخطأ بمواقعته لأهل اليمامة قبل أن ينضم إليه شرحبيل ، وأبدى تهوراً بتسرعه فى قتالهم الأمر الذى أدى إلى نكبته ، فإنه أثبت فى محاربة المرتدين من أهل مهرة أنه محارب من الدرجة الأولى ، وأبلى فى قتالهم بلاء حسناً ، فبعد أن أعان حذيفة بن محصن الغلفانى وعرفجة البارقى فى

محاربة أهل عمان ، سار إلى أهل مهرة فاقتحم عليهم بلادهم ، وقاتل المرتدين قتالاً شديداً انتهى بهزيمتهم ومصرع زعيمهم ، وقد كان لانتصاره فى ذلك اليوم أعظم الأثر فى استرجاع الثقة بسطوته الحربية وكفايته .

وفى البحرين تمكن العلاء بن الحضرمى من إيقاع الهزيمة بربيعة فى حصن جواثاء ، فافتتح الحصن وقتل الحطم وهو شريح بن ضبيعة بن عمرو زعيم المرتدين بالبحرين ، وكان العلاء قد كتب إلى الخليفة أبى بكر يستمده ، فسير إليه خالد بن الوليد الذى قدم بعد مصرع الحطم . واشترك خالد مع العلاء فى استنزال فلول ربيعة وقتل المنذر بن النعمان .

بهذه الإرادة القوية وهذا العزم الصلب استطاع أمراء الجند أن يقضوا على المرتدين فى أمد قصير ، ويسترجعوا للمدينة نفوذها على سائر قبائل العرب فى الجزيرة ، وتحقق بذلك هدف أبى بكر ودخل العرب فى الإسلام طوعاً وكرهاً ، وحمد الصحابة لأبى بكر رأيه وعرفوا فضله فى قتال أهل الردة . والواقع أن شجاعة أبى بكر ورباطة جأشه وقوة إرادته كانت العامل الرئيسى لإنقاذ الموقف ، فقد كانت حركة الردة تشكل أعظم خطر هدد الدولة الفتية ، وكان فى إمكان المرتدين لو أنهم تضامنوا فيما بينهم أن يقضوا على النظام الجديد الذى جاهد الرسول ﷺ فى سبيل إنشائه وتدعيمه . كذلك كانت صلابة أبى بكر وشدته فى معاملة من أصر على ردته أكبر الأثر فى إعادة المرتدين إلى صوابهم وإثابتهم إلى رشدهم ، وتحريك مشاعرهم القومية . ومن العجيب حقاً أن يتولد من حركة الردة التى كانت تهدف إلى تدمير وحدة العرب والقضاء على نظام دولة الرسول ﷺ فى المدينة ، مبادئ مثالية وقيماً أخلاقية لم تكن واضحة عند العرب من قبل ، كالجهاد فى سبيل الله والشعور الجارف بالقومية العربية ، فما كاد المسلمون يقمعون حركة الردة حتى اندفعوا إلى الحدود الشمالية مع الروم ومع الفرس لتأديب الغساسنة والمناذرة ولتحقيق الوحدة السياسية مع مناطق نفوذ هذين الشعبين العربيين ، ومن العجيب أيضاً أن يشترك فى الجهاد رجل كان يدعى النبوة وكان رأساً من رءوس الردة هو طليحة الأسدى الذى هرب

إلى الشام لكنه لم يلبث أن عاد إلي الإسلام، وإلى قومه حين تولى عمر بن الخطاب الخلافة؛ ثم خرج مع جيش المسلمين وأبلى بلاء حسناً فى فتوح العراق وفارس .

ومن الناحية الاجتماعية فكان من المتوقع أن يعود الجنود المنخرطون فى جيوش الخليفة إلى مواطنهم التى جاءوا منها بعد الانتهاء من القضاء على المرتدين؛ لكن ما حدث كان عكس المتوقع فقد بقيت جموع منهم فى هذه المجتمعات وخالطوا أهلها وشاركوهم حياتهم وتزوجوا منهم، وبالتالى فلم تعد القبيلة هى الرباط الوحيد بين هؤلاء العرب كما كان الحال من قبل وإنما أضحت العقيدة وصلة الدين والأخوة فى الله هى الرباط الأقوى .

# الفصل الثالث

# الفتوحات الإسلامية

تمثل الفتوحات الإسلامية ظاهرة تاريخية عظيمة الخطورة ليس فقط فى جانبها العسكرى المذهل؛ حيث استطاع المسلمون قهر القوى العالمية العظمى، وتأسيس امبراطورية تمتد من آسيا الوسطى شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا. لكنها تكتسب أهميتها الكبرى من الناحية الحضارية فقد ترتب عليها هجرة القبائل العربية لتستقر فى البلاد المفتوحة حيث اختلط الدم العربى بدماء الشعوب الأخرى ؛ كما كان نشر العقيدة الإسلامية سلما من الأمور التى تميز الفتوحات الإسلامية عن كافة الحروب السابقة واللآحقة ، إذ اتسمت الفتوحات فى عصر الراشدين بالتسامح من أجل تبليغ الرسالة عالميا ، ولم يكن الإسلام مجرد عقيدة تدعو إلى التوحيد بل كان نظرة سامية للكون والحياة، ورسالة لإسعاد الإنسان فى دينه ودنياه وآخرته . ولم يعرف التاريخ حروبا تحمل مثل تلك الأهداف النبيلة مثلما كانت الفتوحات الإسلامية التى حمل فيها المقاتل العربى السيف بيد والقرآن بالأخرى على حد قول المؤرخ توماس أرنولد. ولم يعرف التاريخ العسكرى قط انتصارات لشعب بدوى على امبراطورية عاتية بمثل تلك السرعة والإنجاز الذى حققته الفتوحات الإسلامية ، كما لم يعرف التاريخ البتة ترحيبا من الشعوب للفاتحين كما جرى فى الفتوحات الإسلامية . كانت الفتوحات الإسلامية نقلة حضارية للغالب وللمغلوب على السواء، فقد تلاقت فيها المبادئ الجديدة بالحضارات القديمة وتمت عملية المزج فأسفرت عن إثراء الحضارة الإنسانية، لأن عملية المزج الكبرى بين المبادئ الإسلامية والأصول الكلاسيكية هى التى مهدت لحضارة الإنسان المعاصر، وفى ذلك دليل على عظمة الرسالة التى اضطلع بها الفاتحون فى عصر الراشدين. فما هى الأسباب والدوافع الحافزة على هذه الظاهرة التاريخية الكبرى ؟

يختلف الدارسون فى هذا السبيل فالمستشرق كايتانى يركز على العامل الاقتصادى ، وترتكز نظريته على أساس أن المناطق الرعوية عموماً مستودع دائم لحركات طرد بشرى تدفعه إلى الهجرات المتوالية التى تنساب على المناطق الخصبة الزراعية المجاورة نتيجة كوارث طبيعية . لكن إذا صدق ذلك على الغزوات المغولية مثلاً أو على الهجرات العربية المبكرة فإنها لاتنطبق على الفتوحات الإسلامية التى

اعتبرها كايتانى مجرد إغارات تستهدف السلب والنهب ، وحسبنا نصيحة أبى بكر لجيوشه : «لاتخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولاشيخاً كبيراً ولا امرأة ... لاتقطعوا شجرة ولاتذبحوا شاة ولابقرة ولابعيراً ، ودعوا النساك فى صوامعهم يتعبدون» . كما أن الدراسات الحديثة لأحوال العرب فى عصر النبوة لاتنبئ عن وجود كوارث طبيعية أو ضائقات اقتصادية لتدفع العرب إلى مثل تلك الإغارات .

ومع ذلك فلا شك أن العامل الاقتصادى كان له أهميته فى إذكاء حركة الفتوح، وتشجيع العرب على الانخراط فيها بما تكفله من حصول على العطاء وعلى الغنائم والفئ بل وتملك الأراضى التى تفتح عنوة . ومعاملة العرب للشعوب المفتوحة على أسس اقتصادية منظمة وفقاً لعهود تنظم الحقوق والواجبات دليل على أن الدافع الاقتصادى للفتوحات الإسلامية يختلف جوهرياً عن الغزوات ذات الأهداف التوسعية الاستغلالية . ولو كان الطمع المادى وحده محركاً للحركة لما كان العرب بحاجة إلى التوسع الشاسع من حدود الصين شرقاً حتى المحيط الأطلسى غربا ، لأن وديان مصر أو العراق أو الشام وحدها كانت كافية لتحقيق حياة رغدة .

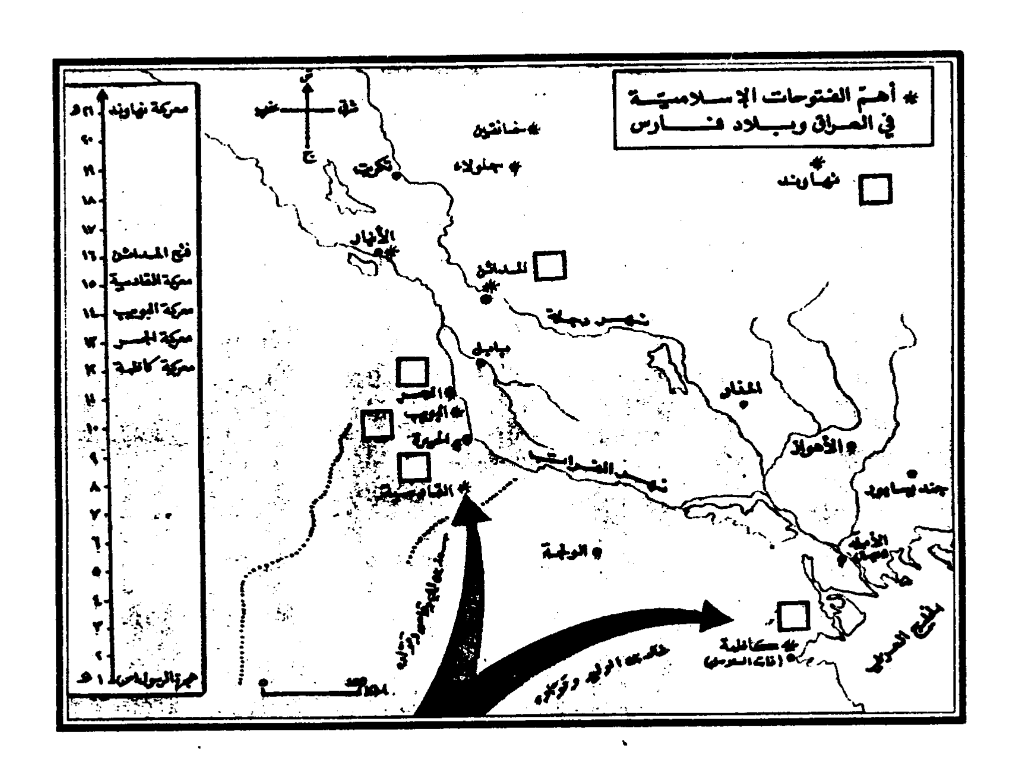
ويؤكد المستشرقون المنصفون من أمثال توماس أرنولد على أهمية العامل الدينى فى الفتوحات الإسلامية خاصة فى عصر الراشدين ، فالنشاط العسكرى كان جهاداً وليس غزواً ، والجهاد أحد أركان الإسلام لأن عقيدته عالمية : « إن هو إلا ذكر للعالمين» ، « وما أرسلناك إلا رحمة للعاملين » ، « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » ، فهذه الآيات وغيرها تقيم الدليل على أن الدعوة الإسلامية كان لابد بعد انتشارها بين العرب أن تبلغ غير العرب ، وقد شرع الرسول ﷺ نفسه فى وضع أساس المرحلة العالمية للدعوة، حينما بعث بكتبه إلى حكام الدول المجاورة وحين أقدم على غزو الأقاليم الشمالية . ولسنا بصدد إثبات تأثير العامل الدينى فى الفتوحات ، ولاعبرة بما ذهب إليه بعض الدارسين من القول بأن العرب لم تكن لديهم روح التدين أو الرغبة فى الجهاد.

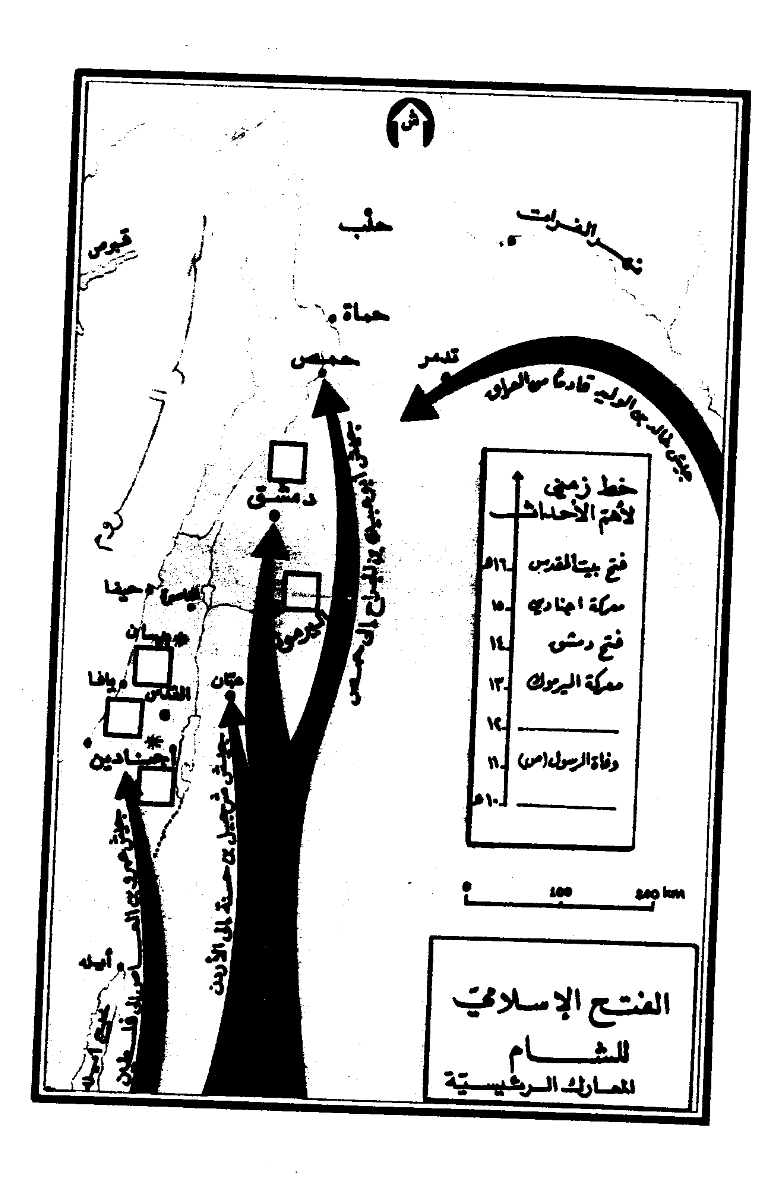
وثمة عوامل أخرى مهدت لنجاح الفتوحات، فمن الناحية العسكرية كانت

حروب الردة بمثابة تدريب عسكرى فجر عبقرية العرب الحربية، وكان لابد من استثمار هذه الخبرات القتالية خارج الحدود ويمكن أن نبرز تأثير العامل الاجتماعى أيضاً فى هذا الصدد نتيجة حدوث تخلخل فى البنية الاجتماعية لما أتاحه الإسلام من مكانة للطبقات المستضعفة والمسترقة وتوجيهها لاكتساب مكانة أسمى خارج شبه الجزيرة لتحرز وزنا وسطاً فى أوطانها الجديدة . يضاف إلى ذلك كله ملاءمة الظروف الخارجية لبدء حركة الفتوح ، فالقطبين الأعظم – الفرس والروم – حل بهما الضعف والإنهاك من جراء الصراع الدائم بينهما، وهو أمر شجع على توجيه الجيوش الإسلامية لضربهما فى وقت واحد وإحراز انتصارات سريعة فى الشام والعراق ومصر وايران. فكيف تمت هذه الانتصارات ؟ وما هى الخطوط الرئيسية لاتجاه الفتوحات الإسلامية فى عصر الراشدين ؟

وفى الواقع فقد تعرض لهذا الموضوع كل الدارسين الذين تناولوا عصر الخلفاء الراشدين؛ ويمكن تتبع أحداث ومراحل الفتوحات الإسلامية فى كتاباتهم؛ ولذا يكفينا هنا أن نبلور أحداثها وتطوراتها فى صورة إجمالية على النحو التالى :

يمكننا أن نشبه حركة الفتوحات الإسلامية من الناحية العسكرية بحركة كماشة كبرى كان لها طرف شرقى وآخر غربى. انصرف الطرف الشرقى إلى فتح العراق وإيران فى فترة استمرت من عهد أبى بكر ولم تصل إلى غايتها إلا فى آخر عهد عثمان بن عفان. وهكذا تم الزحف نحو العراق ثم إيران على مراحل معينة، كانت المرحلة الأولى فتح العراق العربى وهى الأراضى التى تلى الفرات غرباً، وتمت هذه المرحلة فى عهد أبى بكر بعد انتصار المسلمين فى معركة الحيرة (١٢هـ/٦٣٣م)؛ تم كانت المرحلة الثانية وهى فتح العراق العجمى وهو السهول الفسيحة الواقعة بين النهرين، وهذه المرحلة تمت فى عهد عمر بعد انتصار القادسية (١٥ هـ / ٦٣٦م) ، وهى المعركة التى وضع الفرس فيها ثقلهم كله بعد أن أدركوا ما يبغيه العرب من فتح حقيقى لبلادهم، ثم انتهت هذه المرحلة بدخول العرب المدائن ( ١٦ هـ / ٦٣٧م ) عاصمة الفرس. أما المرحلة الثالثة وهى فتح إيران فقد تمت بعد إنشاء المعسكرات الإسلامية فى البصرة والكوفة وبعد النصر العربى فى معركة نهاوند (٢١

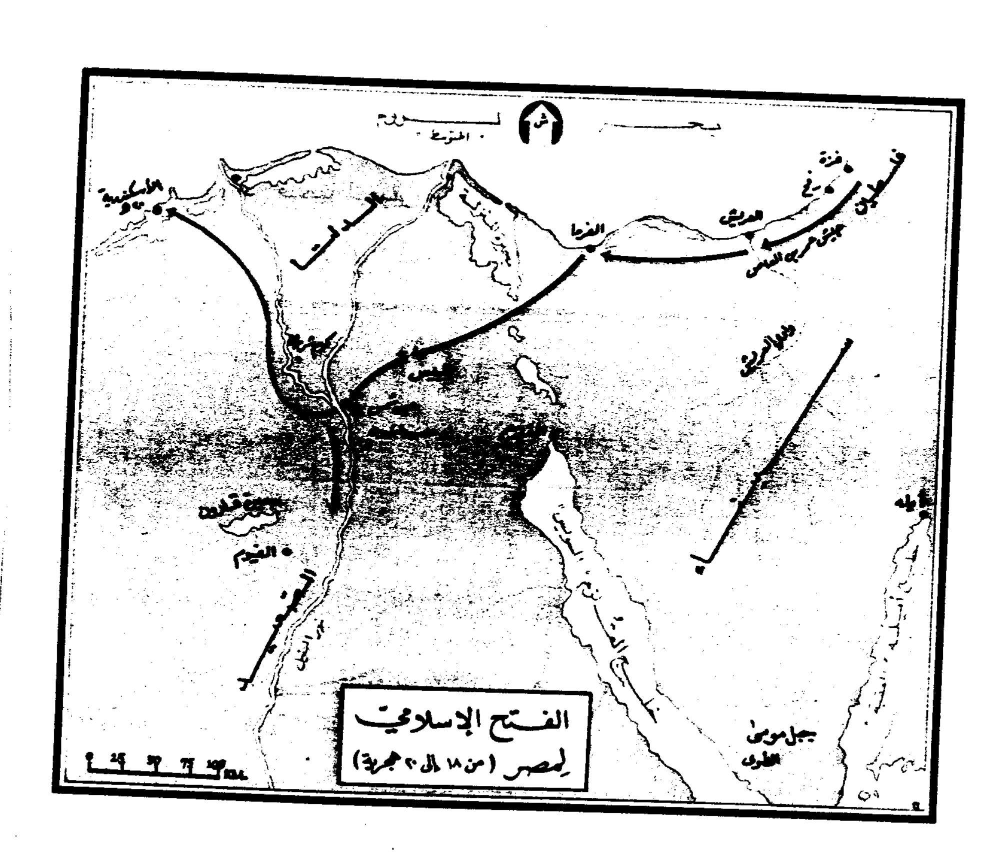

* أهمّ الفتوحات الإسلامية في العراق وبلاد فارس
معركة نهاوند
فتح المدائن
معركة القادسية
معركة البويب
معركة الجسر
معركة كاظمة
شرق
غرب
خانقين
جلولاء
تكريت
نهاوند
الأنبار
المدائن
نهر دجلة
بابل
المذار
الجسر
البويب
الحيرة
الأهواز
نهر الفرات
القادسية
جند يسابور
الوجهة
الأبلة
كاظمة
(ذات السلاسل)
الخليج العربي

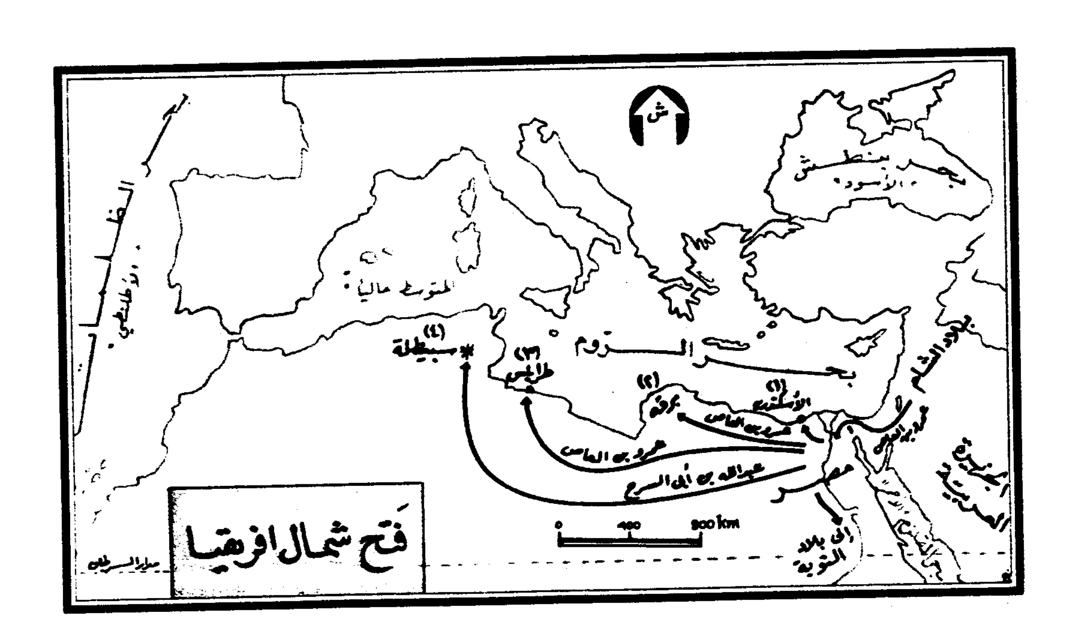


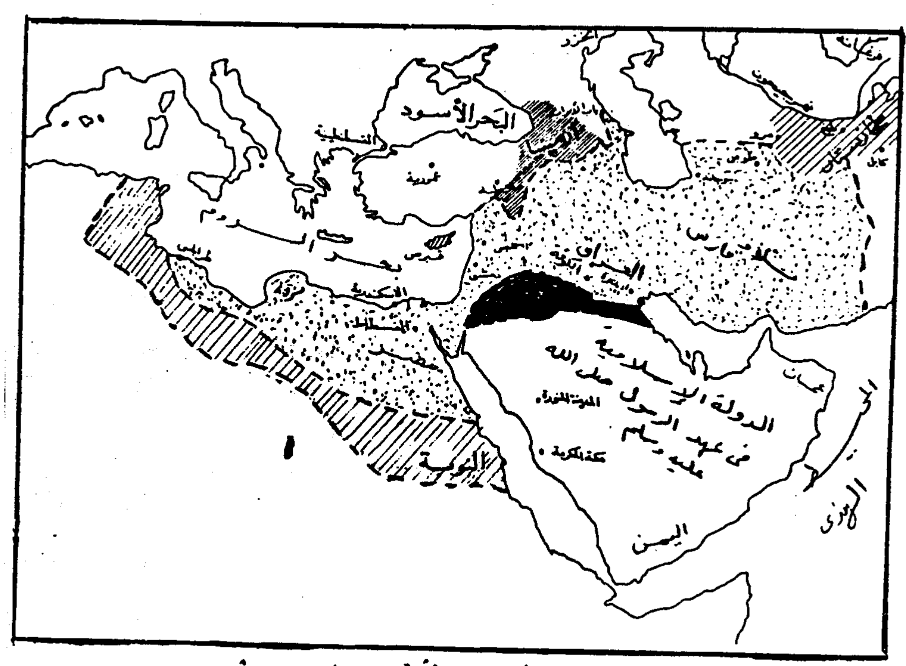
حلب
نهر الفرات
قبرص
حماة
حمص
تدمر
جيش خالد بن الوليد قادماً من العراق
دمشق
حيفا
يافا
عمان
خط زمني
لأهم الأحداث
فتح بيت المقدس ١٦هـ
معركة اجنادين ١٥
فتح دمشق ١٤
معركة اليرموك ١٣
١٢
وفاة الرسول (ص) ١١
١٠هـ
0
100
200 km
الفتح الإسلامي
للشام
المعارك الرئيسية

هـ/٦٤٢م) ، ودخول التيار الإسلامى إلى إيران دون أن تتصدى له أية قوة توقفه عند حد، وقد فتحت فى هذه المرحلة طبرستان والأهواز وبخارى وسمرقند ، ووصل المد الإسلامى مشارف بحر قزوين وتركستان، غير أن هذا الفتح الأخير لم تثبت قواعده إلا فى عهد عثمان بن عفان، الذى فتحت فى عهده أيضاً خراسان وأذربيجان ووصل العرب إلى حدود القوقاز .

أما الطرف الغربى لحركة الزحف الإسلامية فقد بدأ فى عهد أبى بكر حينما توجهت الجيوش لفتح الشام، واستطاعت أن توحد قيادتها بزعامة خالد بن الوليد لتخوض معركة اليرموك (١٣هـ / ٦٣٤م) ، وأهمية هذه المعركة أن الروم ركزوا فيها قوتهم كلها ، فكان انتصار العرب معناه انتهاء المقاومة البيزنطية فى الشام، إذ الملاحظ أن بعض الجيوش الإسلامية انصرفت إلى الشمال فاستعادت دمشق وفتحت حلب وحمص وأنطاكية ، بينما تمكن قسم آخر من الجيش من دخول بيت المقدس (١٦هـ / ٦٣٧م) وأن ينهى المقاومة البيزنطية فى ثغور الشام. وكان الفراغ من فتح الشام معناه التدفق إلى وادى النيل ، فالصلة بين القطرين لم تنقطع منذ القدم، وأية قوة تسيطر على أحدهما لابد أن تؤثر فى الآخر، ولهذا انصرف العرب بقيادة عمرو ابن العاص إلى فتح مصر الذى استغرق عامين ونصف وانتهى عام ٢١هـ/٦٤٢م بتسليم الاسكندرية التى كانت فصل الختام فى قصة فتح مصر. واندفع التيار العربى صوب الجنوب مخترقاً بلاد النوبة فى طريقه نحو السودان ، ولولا بعض العقبات الطبيعية لكان للإسلام شأن آخر فى السودان، إنما الذى حدث أن المسلمين عقدوا معاهدة مع حكام النوبة تسمى «البقط» لتنظيم العلاقات السياسية والاقتصادية بين وادى النيل الشمالى والجنوبى . وفى نفس الوقت اتجهت موجة الزحف الإسلامى نحو إقليمى برقة وطرابلس، وحاولت فى عهد عثمان بن عفان اختراق إفريقية ( تونس ) ، وتمكنت من إحراز النصر فى معركة عرفت فى تاريخ المغرب بمعركة سبيطلة ، وكان من الممكن أن تتقدم هذه الموجة لفتح المغرب لولا مقتل عثمان بن عفان فى عام ٣٥ هجرية، وتفرق الجماعة الإسلامية وما كان من توقف حركات الفتح الإسلامية فى كل مكان تقريباً ، ولم تستأنف إلا فى عهد الدولة الأموية .


الفتح الإسلامي
لمصر (من ١٨ الى ٢٠ هجرية)
الإسكندرية
الفرما
العريش
فلسطين
الفيوم
جبل موسى


فَتح شمال افريقيا
ش
بحر بنطس
الأسود
بحر الروم
بلاد الشام
(٤) سبيطلة
(٣) طرابلس
(٢) برقة
(١) الإسكندرية
عمرو بن العاص
عبدالله بن أبي السرح
مصر
إلى بلاد النوبة
0 400 800 km




مراحل اتساع الدولة في عهد الخلفاء الراشدين

■ في عهد أبي بكر　　▒ في عهد عمر　　▨ في عهد عثمان

والخلاصة أنه فى خواتيم أيام عثمان بن عفان أصبحت الدولة الإسلامية تكاد تكون حدودها معروفة فقد شملت إيران والعراق وبلاد الشام وجزيرة العرب ثم وادى النيل حتى الشلال الثالث ثم إقليمى برقة وطرابلس . وهذه الانتصارات السريعة المتلاحقة فى نحو ربع قرن من الزمان ترجع دون شك إلى ضعف القوى التى واجهها المسلمون من ناحية وإلى استبسال المقاتلين العرب من ناحية أخرى .

# الفصل الرابع

## الفتنة وانتهاء عصر خلافة الراشدين

حينما بويع عثمان بن عفان بالخلافة أوائل عام ٢٤هـ / ٦٤٤م، بدأ عهده بداية موفقة رضيها قادة المسلمين وعامتهم، فقد التزم بنصيحة عمر بأن يبقي الولاة والعمال على أعمالهم مدة سنة ، وكأن عمر كان يبغى من وراء ذلك أن تستقر الأوضاع إلي أن يبدأ الخليفة الجديد فى تنفيذ منهجه السياسى، الذى يراه كفيلا بتحقيق مصالح الدولة فى عهده . ثم كانت أولى خطواته بالنسبة للجماهير أن زاد فى عطاء كل واحد منهم مائة درهم علاوة على ما كان يأخذه فى عهد عمر، وشدد فى أوامره إلى الولاة بالتزام العدل والرأفة بالجماهير، وعدم تكليفها بأعباء اقتصادية أكثر من طاقتها ، حتى يتحقق العدل الاجتماعى ولايكون ثمة مجال للظلم، وقد جاءت هذه التوجيهات فى كتبه التى وجهها إلى ولاة الأمصار بقوله : « أن الله تعالى أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة » . ولم يتهاون فى اتباع العدل مع كل طوائف الأمة فقال : « أن أعدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين فيما عليهم، فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم، ثم تثنوا بأهل الذمة فتعطوهم الذى لهم وتأخذوهم بالذى عليهم» ، ولم يترك فى توجيهاته أمر الأعداء أيضاً فقال : « ثم العدو الذى تنتابونه فاستفتحوا عليهم بالوفاء » .

وقد اهتم عثمان بحماية حدود الدولة أيضاً فطمأن المجاهدين المرابطين فى الثغور على أنه ملتزم بأداء حقوقهم ماداموا متيقظين لأداء مهمتهم فقال : « إنكم حماة المسلمين وزادتهم ، وقد وضع لكم عمر رضى الله عنه مالم يغب عنا بل كان عن ملأ منا ، ولايبلغنا عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله عليكم ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون فإنى أنظر فيما ألزمنى الله النظر فيه والقيام عليه » .

ومن الجدير بالذكر أن عثمان تولى الخلافة فى ظروف تختلف اختلافاً كبيراً عما كانت عليه فى عهد عمر ، فقد تولى عمر الخلافة والدولة فى مواقف عسكرية واقتصادية حرجة ، فالجيوش مشتبكة فى صراع مرير على جبهتين قويتين فى وقت واحد ، وتحتاج إلى تعبئة الموارد المادية والبشرية حتى تتوفر الإمدادات اللآزمة للجيوش من العتاد والرجال ، ومن ثم اضطر إلى اتباع سياسة الشدة والحزم لكى تظل الجبهة الداخلية قوية متماسكة ، فشق على الناس وحملهم بالدرة على التقشف

والاقتناع بضروريات الحياة، فلم تتقبل الجماهير هذه السياسة بسهولة، وشعر كبار الصحابة ممن كانوا يملكون الثروات أو يتطلعون إليها أن سياسة عمر تأخذ بخناقهم وتحجر على حريتهم فى التصرف والتنقل، ومما زاد فى ضراوة هذا الشعور ماتعرضت له بلاد العرب من أزمة اقتصادية طاحنة وصلت إلى حد المجاعة عام ١٨ هـ الذى سمى عام الرمادة لشدة جدبه وقحطه ، ولذلك ضاقوا بعمر وبسياسته الحازمة.

ولم تكن شدة عمر منصبة على جماهير المسلمين فحسب وإنما كانت موجهة بالدرجة الأولى إلي ولاته وعماله على الأقاليم والأمصار، فكان يراقبهم ويحاسبهم حساباً عسيراً حتى كان الواحد منهم يخافه ويخشاه أكثر من خشية يرفأ – غلام عمر – له ، وأصدر أوامره إليهم بموافاته كل عام فى موسم الحج لتقديم تقرير سنوى عن أعمالهم أمام هذه الحشود العامة من المسلمين ، كما كان يحصى ثروتهم ثم يقاسمهم أموالهم حين يعزلون دون أن يلقى بالا إلى التبريرات التى يتعلل بها هذا الأمير أو ذاك.

ومع أن الأزمات العسكرية والاقتصادية قد انفرجت شيئا ما فى أواخر عهد عمر إلا أنه ظل على سياسته، فقد كان يرى أن الأمور لم تتوطد نهائيا وبخاصة فى المجال العسكرى. ولكنه على أية حال كان يشعر بضرورة التغيير، فكان يقول قبل موته : « لقد هممت أن أجعل العطاء – وهو المال المقرر لكل فرد مقاتل من المسلمين – أربعة آلاف، ألف يجعلها الرجل فى أهله وألف يتزودها معه ، وألف يتجهز بها، وألف يترفق بها » . ولكنه استشهد قبل أن يحدث هذا التغيير .

فلما تولى عثمان الخلافة كانت الأوضاع قد اختلفت تماماً، فالفتوحات أوشكت على الاستقرار؛ وتدفقت الأموال على المدينة، ولم يعد مفر من التغيير، فاستجاب له عثمان وبخاصة أنه وجد كبار الصحابة وشيوخ قريش حانقين على سياسة عمر ومستاءين من الشدة التى أخذهم بها، ومن احتباسهم معه بالمدينة متذرعاً بأنه يحتاج إلى مشورتهم فيما يعن له من مشاكل طارئة، ولكنهم كانوا يدركون السبب

الحقيقى لتلك السياسة، وهو وقوف عمر دون انسياحهم فى الأمصار المفتوحة والأخذ بمباهج الحياة التى أقبلت عليهم، وشعروا كأنه يقف بينهم وبين تحقيق مطامحهم المشروعة فى الثروة والجاه، ولذلك تمنوا الخلاص منه ومن سياسته، وكان عمر نفسه يدرك منهم هذه المشاعر حتى أنه عبر عنها بصراحة فى عدة مواقف ، لذلك أطلق عثمان الحرية لمن يريد الخروج من المدينة، فانطلق كثير من كبار الصحابة فى أقطار الأرض قاصدين البصرة والكوفة ومصر والشام، وهناك امتلكوا الضياع وبنوا القصور وكونوا ثروات ضخمة وطابت لهم الحياة، ومن ثم كانوا أكثر اغتباطا بسياسة عثمان طيلة السنوات الست الأولى من خلافته، أكثر من تقبلهم لخلافة عمر بن الخطاب.

وكان عثمان يدرك أثر هذا التغيير الاجتماعى على المسلمين فى المدينة، وما يمكن أن يؤدى إليه الفراغ والثروة من ألوان المتع واللهو ، فأوضح هذه المخاطر وحذر منها وتوجه إليهم بقوله : « إنكم بلغتم مابلغتم بالاقتداء والاتباع فلا تلفتكم الدنيا عن أمركم فإن هذه الأمة صائرة إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم : تكامل النعم وبلوغ أولادكم من السبايا وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن » . وعندما لم تجد هذه النصائح الهادئة فى الحيلولة دونما خاف منه عثمان، وظهرت بعض الألعاب الرياضية العابثة من تطيير الحمام فى سماء المدينة واصطيادها قاوم هذا الاتجاه بالقوة، وعين من يتعقب هذه الظاهرة ويقضى عليها.

ومن ثم يمكن القول أن سياسة عثمان قد ساعدت التغييرات التى أصابت المجتمع الإسلامى فى مجال الاقتصاد والاجتماع، وأنه لم يقف فى طريقها وإنما فتح لها متنفسا، وأشرك المسلمين فى التمتع بنتائجها حتى لايجرفه تيار التغيير الذى لايتوقف، وكان عثمان نفسه شخصية مؤهلة - بطبيعتها - لتقبل هذا التغيير والاستجابة له . فمن المعروف أنه كان - قبل الاسلام - من أثرياء قريش، ونشأ مترفا يحب الطيبات ويؤثر رغد العيش، ولذلك كان يعجب من شدة عمر على نفسه ويقول: «رحم الله عمر ... ومن يطيق ما كان يطيقه عمر» ، كما أنه ولى الخلافة وسنه قد تجاوزت السبعين - تلك السن العالية التى لاتتحمل الشظف والحرمان -

فوسع على نفسه فى المأكل والملبس ورأى أن ذلك حق له، فلما ذكر بما كان يفعله أبو بكر وعمر قال : «إن أبا بكر وعمر تركا من ذلك ما هو لهما وأنى أخذته» .

ووجد عثمان نفسه – بحكم سنه – فى حاجة ماسة إلى جهاز إدارى كفء يثق فيه ويطمئن إليه، للإشراف على شئون المسلمين وتسيير مرافق الدولة، واعتقد أن أقرباءه وذوى رحمه من بنى أمية خير من يقوم بهذه المهمة ويركن إليهم فى آدائها ، فلا أحد يشك فى مقدرتهم السياسية ، خاصة وأن الرسول ﷺ وصاحبيه من بعده قد اعتمدوا عليهم فكانوا عند حسن الظن بهم ، ولم ينكر عليهم أحد شيئا أو يأخذ عليهم تقصيرا أو تهاونا فى القيام بمهام مناصبهم، وما كلفوا بأدائه من أعمال ، ولذلك لم يجد عثمان بأسا من السير فى نفس الاتجاه ، فأقر معاوية على دمشق وضم إليه ولاية الشام بأسره ، وجعل عبد الله بن سعد بن أبى السرح – وهو أخوه فى الرضاعة – واليا على مصر ، كما عين الوليد بن عقبة – وهو أخوه لأمه – على الكوفة ، ثم بعد أن عزله عنها عين مكانه سعيد بن العاص ، أما عبد الله بن عامر – ابن خاله – فقد تولى إمارة البصرة، وأسند إلى عقبة بن عامر خزانة بيت المال ، واتخذ مروان بن الحكم كاتبا له، ومدبراً لشئون الدولة بالعاصمة، وبذلك أصبحت الولايات المهمة فى الدولة آنذاك وهى مصر والشام والعراق فى أيدى رجال بنى أمية ، بالإضافة إلى ماكان يقوم به مروان وأسرته فى العاصمة .

وإذا ما تذكرنا أن عثمان بعد أن اتسعت رقعة الدولة وتشعبت مصالحها قد استحدث أسلوب الحكم المحلى فى إدارة الولايات، فمنح الولاة سلطات كبيرة وخولهم الصلاحيات فى إصدار مايرونه محققا للأهداف العليا للدولة، دون الرجوع إليه فى كل صغيرة وكبيرة واستطلاع رأى العاصمة وانتظار أوامرها، فربما يؤدى ذلك إلى تعطيل مصالح الرعية، أو ضياع فرصة سانحة ضد الخارجين أو المعتدين؛ إذا ماتذكرنا ذلك لتبين لنا مدى تغلغل نفوذ بنى أمية وسيطرتهم على مقدرات الحياة السياسية فى عهد عثمان. ومن ثم يمكن القول أن بنى أمية قد برزوا إلى الصفوف الأولى فى الإدارة ، وانفردوا بتوجيه السياسة الداخلية فى الأقاليم التى كانوا

يحكمونها، بالإضافة إلى مكانتهم المتميزة فى العاصمة نفسها، وفى اتخاذ القرارات العامة التى تشكل السياسة الخارجية للدولة أيضاً .

وكان يمكن للمسلمين أن يتقبلوا هذا الوضع لأنه لم يكن جديدا تماما عليهم، غير أن سياسة عثمان المالية مع الأمويين قد أهاجت المشاعر، وحركت عوامل السخط وكوامن الحقد فى النفوس ضد الأمويين جميعا وضد الخليفة عثمان نفسه فيما بعد . ذلك أن عثمان قد أغدق عليهم الأموال وأعطاهم امتيازات كبيرة تمثلت فى العطايا والهبات بشكل لم يألفه المسلمون من قبل . فقد أعطى عبد الله بن سعد خمس غنائم إفريقية التى استولى عليها أثناء فتحها عام ٢٧ هـ؛ وعندما اشتراها منه مروان ابن الحكم بخمسمائة ألف دينار وضعها عنه عثمان . كما أعطى الحارث - أخ مروان ابن الحكم - ثلثمائة ألف درهم ، وعندما بدأت الألسنة تلوك هذه السياسة معترضة ساخطة أسكتها عثمان بقوله أن ذلك حق له فهو يعطى ذوى قرباه ويواسى المحتاجين منهم بعد أن أنفق أمواله - وهو الثرى - فى سبيل الإسلام والدفاع عنه، وقال : « إننى ماجئت منكرا إن وصلت رحما ، وسددت خلة ، وآويت ضائعا » . ومن المعروف أن عثمان كان باراً بأهله عطوفا على ذوى رحمه ، وكان جوادا سخيا محبا للإنفاق فكثرت عطاياه للقريب والبعيد ، ومع هذا فقد أوضح عثمان أنه فى هذه السياسة متبع للرسول ﷺ فى أنه كان يعطى قرابته.

وبالرغم من كل هذه الايضاحات التى قدمها عثمان ودافع بها عن سياسته المالية ، فإن جماهير المسلمين لم تقتنع تماماً ، وأخذت تقارن بين هذه السياسة المترفة وسياسة عمر التى كانت ماتزال ماثلة فى الأذهان بزهدها وتقشفها وقسوة عمر على نفسه ، وأهل بيته فى ضوء المبدأ الذى قرره وأخذهم به ، فيقول عنه حفيده سالم: « كان عمر إذا نهى الناس عن شئ جمع أهله فقال : إنى نهيت الناس عن كذا وكذا ، وأن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم. وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة » . ولذلك لم يسكت المسلمون على سياسة عثمان المالية الجديدة وإنما اعترضوا عليها ؛ وتعددت صور هذه المعارضة فكانت كلامية فى البداية حينما هدده جبلة بن عمرو الساعدى بالقتل إذا لم يتخل عن بطانته السيئة

مثل مروان بن الحكم وابن عامر وابن سعد، ، فمنهم من نزل القرآن بذمه ، وأباح الرسول ﷺ دمه ، . ثم تطورت هذه المعارضة إلى التعبير العملى حينما أخذ عبد الرحمن بن عوف إبل الصدقة – التى كان عثمان وهبها لبعض أقربائه من آل مروان– وقسمها بين الناس ، وعندما أهاج أبو ذر الغفارى جماهير المسلمين على سياسة معاوية المالية وقف منه عثمان موقفا حازما فاستدعاه للمدينة ونفاه إلى الربذة حيث مات بها؛ ولذلك فقد كانت سياسة عثمان المالية هى المحرك الأول للثورة عليه ، ثم تراكمت عليها واستخفت وراءها عوامل متعددة – دينية وسياسية – حتى انتهت بمقتله عام ٣٥هـ .

وليس من غرضنا الآن تحليل بواعث الثورة على عثمان، ومواقف الأطراف التى اشتركت فيها ، ووجهة نظر عثمان فيما سخطه عليه المسلمون ، وإنما المهم تأكيد أن هذه السياسة المالية أفرزت ظاهرة مهمة وهى التمكين لبنى أمية فى الحكم، وإطلاق أيديهم فى مصالح الأمة . على أنه ينبغى أن يكون واضحاً أن عثمان كان حازماً فى سياسته مع بنى أمية، فلم يكن غافلاً أو متساهلاً مع أحد منهم إذا ما تأكد لديه سوء مسلكه الدينى أو السياسى، فقد عزل الوليد بن عقبة عن ولاية الكوفة وأقام عليه الحد عندما ثبتت عليه البينة بأنه شرب الخمر؛ وعندما توالت الأخبار على أهل المدينة باضطراب الأمور فى ولايات العراق ومصر جمع عثمان كبار الصحابة وشاورهم فى الأمر، فأشاروا عليه بإرسال رسل من الصحابة إلى الأمصار لمعرفة حقيقة الأمر فيها ، وعندما رجعوا جميعا قالوا : ، ما أنكرنا شيئا ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم ، ؛ ولا يمكن أن يتهم هؤلاء الصحابة فى صدق شهادتهم أو تواطئهم على كتمان مارأوه إذا كان ثمة شئ يثير السخط أو يغضب جماهير المسلمين. ولم يكتف عثمان بهذا بل كتب إلى الأمصار بأن يوافيه بموسم الحج من له شكوى أو مظلمة ليسمع منه ويتعرف خبره مباشرة حتى يرد إليه حقه منه شخصيا أو من أى من عماله .

ولم تكن هذه السياسة تخرج فى مجموعها عما كان يطبقه عمر مع عماله ورعيته، ولكن كانت هناك بواعث خفية تجمعت كلها فى وقت واحد لتحريك الفتنة، ولذلك لم تنفع الإجراءات التى اتخذها عثمان فى وقفها بل استمرت الفتنة حتى وصلت إلى منتهاها، وقد حلل عثمان هذا الموقف فى دقة بالغة وأوضح سبب رضا الجماهير بسياسة عمر وشغبهم عليه بقوله : « ألا فقد - والله - عبتم على ما أقررتم لابن الخطاب بمثله، ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده وقمعكم بلسانه، فدنتم له على ما أحببتم وكرهتم، ولنت لكم وأوطأتكم كتفى وكففت عنكم يدى ولسانى فاجترأتم على » ، أى أنه كان يدرك أن الإصلاح ليس الهدف الذى يسعى إليه الثائرون، وإنما كانوا يسعون لتحقيق رغبات شخصية وتصفية حساب مع الأمويين أنفسهم، ولكن هذا الهدف الحقيقى قد اختفى وراء بعض الشعارات المضللة ، كالقول باستبداد الأمويين بأقاليم الدولة وإطلاق يد مروان بن الحكم، واختلاق الشائعات التى لا أساس لها كما قررت ذلك بعثة التحقيق التى أرسلها عثمان إلى الأمصار، كقصة خبر ذلك الكتاب المكذوب الذى قيل أن مروان بن الحكم كتبه إلى عبد الله بن سعد، لينزل العقاب الصارم إلى حد الموت ببعض أفراد الوفد المصرى الذى ذهب إلى المدينة ليبلغ شكواه إلى عثمان .

وتجدر الإشارة إلى أن بنى أمية قد وجدوا فى خلافة عثمان فرصة طيبة يمكن أن يستفيدوا منها فى تحقيق أهدافهم الشخصية، والوصول إلى المناصب العليا فى الدولة بل إلى منصب الخلافة نفسه، فقد قاموا بدعاية مركزة لاختيار عثمان منذ أن رشح للخلافة، وعندما وجد عبد الرحمن بن عوف أن الخلافة قد انحصرت بين على وعثمان، دفعه بنو أمية للإسراع باختيار عثمان متعللين بأن ذلك أدعى لجمع كلمة المسلمين وقطع أسباب التنافس أو التنازع، وعندما بلغوا غايتهم بخلافة عثمان وقفوا خلفه بقوة حرصا على أن تظل الخلافة فيهم، وأوصاهم أبو سفيان بضرورة التمسك بالخلافة قائلا : « يا بنى أمية تلقفوها تلقف الكرة، فوالذى يحلف به أبو سفيان مازلت أرجوها لكم، ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة » . وقد واجه مروان بن الحكم الثائرين على عثمان يوم اغتياله فى تحد صارخ ، بأنهم يريدون القضاء على

مكانة الأمويين فى الدولة ولكن ذلك لن يكون . وتوجه إليهم بقوله : «ماشأنكم ؟ قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب – شاهت الوجوه .. جئتم تريدون أن تنتزعوا ملكنا من أيدينا اخرجوا عنا، والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لايسركم، ولا تحمدوا غب رأيكم، ارجعوا إلى منازلكم ، فإنا – والله – ما نحن بمغلوبين على ما فى أيدينا» . كما كان لمعاوية دور واضح فى تحذير بعض كبار الصحابة من إسلام عثمان للساخطين عليه، أو محاولة الغض من تصرفاته والطعن على الأمويين .

وفى تركيز أخير يمكن أن نصل إلى تلك النتيجة – التى سبقت الإشارة إليها – وهى بروز دور بنى أمية فى سياسة الدولة ، وتزايد نفوذهم فى عهد عثمان بصفة خاصة، وإن كان عثمان لم يقصد ذلك ولا هدف إليه بدليل أنه اتخذ ولاة آخرين من غير الأمويين ، غير أن هؤلاء بفضل مواهبهم السياسية وتطلعهم إلى الرئاسة والقيادة – كما سبق القول – هم الذين استفادوا من الفرصة المتاحة فى عهده ، فاستغلوها لتحقيق مصلحتهم وأهدافهم.

وقد صحب تقدم الأمويين فى المجال السياسى تطورات عميقة فى المجتمع الإسلامى زلزلت الصورة المألوفة عنه لدى الجميع، وبخاصة فى أذهان الجيل الأول من المسلمين . وقد ساعدت التغييرات الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية بنى أمية على أن يكونوا فرسان المستقبل ، وقد أدركوا بحسهم الفطرى رياح التغيير فجعلوها تملأ شراعهم. ومن أبرز التغييرات الجغرافية اتساع رقعة الدولة وامتداد أطرافها، وبذلك فهى تحتاج إلى جهاز إدارى تكون له صلاحيات موسعة، وسلطات قوية حتى تتمكن الدولة من القبض على زمام هذه المنطقة الشاسعة؛ أما من الناحية الاقتصادية فقد تدفقت الخيرات على المدينة، وجعلت الناس يتطلعون إلى زخرف الحياة ورغد العيش، حتى أن كبار الصحابة كما قدمنا قد انتشروا فى الأمصار وكونوا الثروات فاقتدت بهم الجماهير، وتنافسوا فى طلب الغنى والثراء ، ومن ثم تراخت قبضة الدين على النفوس وتقهقرت الرغبة فى العمل من أجل المجموع إلى المرتبة الثانية، وطغت المصالح الذاتية والمنافع الخاصة، وأخذ المجتمع يموج بتيارات متعددة فى اتجاهاتها وأهدافها وأهوائها ومصالحها. كما شهدت تلك الفترة نضوج جيل جديد من

الشباب أخذ يتطلع إلى ممارسة دوره السياسى لابمفهوم عهد الراشدين وإنما بأفكار ومفاهيم جديدة تواكب الظروف المتغيرة وتستفيد منها .

وهكذا كانت كل الظروف تشى بأن نظام الراشدين لابد أن يتعرض للتغيير الذى لامفر منه إن عاجلا أو آجلا ، وأن الفيصل فى ذلك هو الزمن وحده؛ كما كان التغيير مرهونا بأولئك الذين يمكنهم أن يستوعبوه ويستفيدوا منه، وقد أثبتت الأيام أن الأمويين هم الذين تلقفوا هذه الفرصة ولم يدعوها تفلت من أيديهم، وكأنما كل شئ كان يسير حسب ما يشتهون ويساعدهم على تحقيق أهدافهم فى الوصول إلى منصب خلافة المسلمين.

فقد تبين بوضوح من استشهاد عثمان أن بنى أمية وجدوا أخيراً مبرراً مقبولاً ومفهوماً لدى عامة المسلمين يتكئون عليه فى العمل من أجل تحقيق غاياتهم السياسية، فعثمان - على أية حال - واحد منهم ، وهم أسرته وعصبته وأصحاب الحق فى المطالبة بالقود من قتلته ، فتمسكوا بالمطالبة العاجلة فى ضرورة الأخذ بثأره حتى لايهدر دمه، أو تلحقهم معرة التقصير فى طلب القصاص له ، وألهبوا المشاعر الدينية بالحديث المستمر عن هذا الأمر ووجوب إقامة الحد على القتلة الذين : « سفكوا الدم الحرام فى الشهر الحرام » ، ومازالوا يرددون هذه الصيحات فى آذان المسلمين لبناء جبهة قوية تناصرهم فى دعواهم ، أو - على الأقل - تقف منهم موقف الحياد إذا ماتطورت الأوضاع ، واضطروا إلى خوض المعارك لتحقيق هذا الهدف. وبذلك يمكن القول أن الأمويين استثمروا خلافة عثمان فى حياته وبعد مماته لمصالحهم الذاتية .

وكان معاوية بن أبى سفيان أبرز قيادة أموية فى هذه الفترة، وبذلك تصدى لتحريك الأحداث فى اتجاه الأمويين، وقد حشد لهذه المعضلة السياسية كل قدراته وطاقاته المخزونة ، فأدى دوره باتقان وأظهر براعة فائقة فى الدهاء السياسى وائتلاف القلوب واصطناع الرجال، والتودد إلى الجماهير ودفعها فى الطريق التى يرغب أن يراهم عليها، حتى استقامت له الأمور وظفر فى النهاية بمنصب خلافة المسلمين .

وكان معاوية مؤهلا للقيام بهذا الدور الخطير، فهو واحد من دهاة العرب المشهورين، وكان عمر بن الخطاب معجبا بذكائه ودهائه ويقول: « كيف تتحدثون عن دهاء كسرى وقيصر وعندكم معاوية »، وكان ذلك نتيجة لتربية خاصة أتيحت له فى جو أسرى يدفعه دفعاً إلى تحقيق الغايات التى تصبو إليها نفسه الطموحة، فأمه هند بنت عتبة تتطلع إلى أن يسود العرب جميعاً ، وأبوه أبو سفيان يعده ليكون خليفة له فى زعامة قريش، وعندما أسلم مع من أسلم من القرشيين فى عام الفتح بدأت أولى خطواته على الدرب الطويل فى الدولة ، فقد اتصل بالرسول ﷺ حتى جعله أحد كتاب الوحى، وفى عهد أبى بكر اشترك مع أخيه يزيد فى قيادة جيش الفتح بالشام وكان له فى فتوحاته شأن عظيم، بل إن وصوله إلى هذه المنطقة عام ١٣هـ يعتبر حدا فاصلا فى حياته كلها .

لقد كانت جبهة الشام هى الجبهة التى بدأ معاوية يوطد نفوذه فيها منذ أن وطأتها قدماه، فأثبت فى حركة الفتوح جدارة عسكرية فائقة، واشترك مع أخيه يزيد فى قيادة المعارك ، ثم أكمل فتح بقية المدن التى لم يمهل الموت أخاه حتى يفتحها ، ففتح كثيراً من مدن الشام الجنوبية وبعض الموانى على البحر الأبيض المتوسط كقيسارية وطرابلس ، وبذلك أخذ يتقدم من نصر إلى آخر، والجميع يشهد له بالكفاءة والإخلاص حتى أسند له عمر بن الخطاب إمارة دمشق والشام الجنوبى، وقد سر أبو سفيان عندما بلغه خبر تولية عمر لابنه واعتبرها منة من عمر عليه. ثم أخذ يوصى ابنه باتباع اللين والمداراة والتقرب من الخلفاء حتى يحكم أمره ويبلغ غايته قائلاً : «يابنى إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا، فرفعهم سبقهم وقعد بنا تأخرنا، فصرنا أتباعا وصاروا قادة، وقد قلدوك جسيما من أمرهم فلاتخالفن رأيهم فإنك تجرى إلى أمل لم تبلغه، ولو قد بلغته لتنفست فيه » . وقد وعى معاوية هذه الوصية فظل حريصا على مرضاة عمر وإثبات إخلاصه فى تنفيذ سياسته واتباع أوامره، ولذلك يكاد يكون هو الوحيد الذى نجا من صرامة عمر وشدته، فبينما عزل عمر خالد بن الوليد وسعد بن أبى وقاص، وحاسب عمرو بن العاص حسابا عسيرا وقاسمه ماله، نجده يقر معاوية على الشام مع ما أحاط به نفسه من أبهة الملك

والسلطان ، لأنه اقتنع بحجته وأنه : « فى بلاد لا تمتنع فيها جواسيس العدو، فلا بد لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان، فإن أمرتنى بذلك قمت عليه، وإن نهيتنى عنه انتهيت » ، فعقب عمر على ذلك قائلاً : « لئن كان الذى قلته حقا فإنه رأى أديب ، ولئن كان باطلا فإنها خدعة أريب ، ولا آمرك به ولا أنهاك عنه ». وبذلك استمر معاوية واليا على دمشق طيلة عهد عمر دون أن يتعرض لما يضعف مركزه أو يسئ إلى صورته فى نظر الشاميين.

ولئن كان معاوية قد اكتسب ثقة القيادة السياسية واحتفظ برضاها عنه دائماً، فإنه كان أشد حرصا على كسب محبة أهل الشام له وارتباطهم به ، حتى يتخذهم عدة وقوة يعتمد على إخلاصها وطاعتها فى تحقيق آماله السياسية، فتقرب إلى قبيلة كلب التى كانت تنزل منطقة الأردن ، وأصهر إليها فتزوج ابنة زعيمها وأنجب منها ابنه يزيد، وبذلك توطدت العلاقة بينه وبين هذه القبيلة اليمنية القوية؛ وقد أثبتت الأحداث مدى بعد نظر معاوية فى الاعتماد على هذه القبيلة ، فقد وقفت بجانب الأمويين دائماً ولعبت دورا خطيراً ومؤثراً فى تاريخ الدولة بصفة عامة. كما قرب معاوية إليه زعماء القبائل الشمالية، وبخاصة قبيلة قيس التى اشتركت فى الفتوحات وتوطنت الأجزاء الشمالية من الشام حول مدن حمص وحلب وحماة وقنسرين، وبذلك جمع الطرفين المتقابلين فى بلاطه وضمن ولاءهما له وتأييدهما لسياسته.

وعندما أراد معاوية تأمين الموانى الإسلامية من هجمات الأسطول البيزنطى أمر ببناء الأسوار حولها، ثم عمد إلى تهجير جماعات متعددة من السكان إليها وأجرى عليهم الأرزاق، وأقطعهم الأراضى الزراعية واهتم بأمورهم فى هذه المناطق الجديدة ، وكان من نتيجة ذلك أن دانوا بطاعته عن مودة وإخلاص.

ومن الجدير بالذكر أن معاوية أحسن دراسة الأوضاع بالشام، وعرف كيف يستفيد منها بدقة ومهارة فى كسب ولاء الشاميين، ، فإذا كان الغساسنة من قبل قد أقاموا بدمشق وبنوا بها بلاطا زاخراً بمظاهر العظمة والترف، وأسبغوا على القبائل العربية المجاورة لهم نوعاً من الاستقرار والحضارة ، فقد سلك معاوية نفس الطريـ

مع ما بثه الإسلام فيهم من الشعور بالعزة والمهابة، والوقوف ندا للبيزنطيين بعد أن كانوا مجرد تابعين لهم، وهكذا ارتبطوا بمعاوية برباط متين، فهو يمثل فى نظرهم الملك والسيادة وعز الإسلام أيضاً ، وكان لامتداد ولايته عليهم أثر عميق فى ترسيخ هذه الفكرة فى أذهانهم، ومن ثم ترسخت مكانته فى الدولة اعتمادا على إخلاص الشاميين له وثقتهم فيه .

وفى عهد عثمان وصل معاوية إلى أقصى درجات تمكنه من القبض على زمام الشام بأكمله، وتطهيره من كل مايعكر عليه صفوه أو يثير القلاقل ضده ، فظل متمتعاً بولاء الشاميين له ، فعندما بدأ أبو ذر يثير عليه العامة وبخاصة من الفقراء والمعدمين شكاه إلى عثمان ثم أبعده نهائياً عن الشام وأرسله إلى العاصمة ، وعندما أراد عثمان أن يعتمد على معاوية فى إسكات بعض المعارضين لسياسة سعيد ابن العاص وأثاروا عليه الشغب فى العراق - استقبلهم معاوية فى الشام ، وحاول معهم بوسائل اللين والإقناع أن يجعلهم يتفهمون السياسة العامة للخليفة ، ولكنهم لجوا فى موقفهم فخاشنهم فى القول ثم طردهم من دمشق ، وعندما وصلوا إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد نكل بهم ثم أرسلهم إلى المدينة.

ولعل من الظواهر اللآفتة للنظر أن أهل الشام بصفة خاصة لم يشتركوا فى أعمال الثورة ضد عثمان، وماذلك - فيما أرى - إلا نتيجة ليقظة معاوية السياسية، ودقة إدارته وقضائه أولا فأول على كل مايغرى الجماهير بالثورة أو الاضطراب، ومن ثم أشار معاوية على عثمان -عند اشتداد الفتنة - أن يكفيه الولاة ما يتولونه من أعمال ، وهو يكفيه أكفيك أهل الشام . ويصور معاوية بنفسه مدى إخلاص الشاميين له فيقول : « ياعمار إن بالشام مائة ألف فارس كلهم يأخذون العطاء مع أبنائهم وعبدانهم لايعرفون عليا ولاقرابته، ولاعمارا ولا سابقته ، ولا الزبير ولا صحبته، ولا طلحة ولاهجرته، ولايهابون ابن عوف ولاماله ، ولايتقون سعدا ولا دعوته ، فإياك ياعمار أن تقع فى فتنة إن عرف أولها فقد لايعرف آخرها » . ثم عرض على الخليفة أن يخرج معه إلى الشام ليكون هناك فى مأمن، أو يرسل إليه بعض القوات لتمنعه من الثائرين، ولكن عثمان رفض هذا العرض مفضلا عليه أن يبقى بجوار الرسول

ﷺ ، وأنه لايرضى أن يضيق على سكان المدينة بجند الشام. وهكذا نجد أن معاوية يتصرف فى هذه الظروف الحرجة وهو يثق كل الثقة فى إخلاص أهل الشام له وحسن انقيادهم لمايأمر به دون تردد أو تخاذل، ومن ثم فإنه عندما اغتيل عثمان حمل معاوية لواء المعارضة للخليفة الجديد - علي بن أبى طالب - فى قوة وإصرار، وظل معتصما بالشام ومعتمدا على أهله طوال فترة الصراع الذى دار بينهما أكثر من خمس سنوات حتى تحقق له فى النهاية مايريد .

وتعتبر فترة خلافة علي بن أبى طالب (٣٥ - ٤٠هـ / ٦٥٦ - ٦١١م) فترة العمل الحقيقى لمعاوية - ولبنى أمية جميعاً - فى الزحف المنظم للقبض على زمام السلطة فى الدولة ، حيث وجدوا أخيراً سببا مقبولا ومفهوما لدى جماهير المسلمين يتحركون فى ظله لتحقيق أهدافهم، فقد أرسلت السيدة نائلة زوج عثمان إلى معاوية بالشام بقميص عثمان وعليه آثارالدماء ، وكتبت إليه تستحثه على الأخذ بثأره ، وتذكر الأمويين بعامة بحقوقه عليهم، فنشر معاوية القميص على منبر الجامع بدمشق ومعه الأطراف المقطوعة من أصابع نائلة ، وبذلك أهاج أهل الشام وعبأ مشاعرهم ونفوسهم بالثورة والسخط على مرتكبى هذه الجريمة النكراء، حتى جعلهم يهجرون حياتهم العادية ويتجردون للمطالبة بالثأر لعثمان، وأقسم نفر منهم أن يعتزل النساء حتى يقتلوا قتلته أو تذهب أرواحهم. وهكذا بدأ معاوية يتخذ موقفا متميزا منذ اليوم الأول من خلافة علي بن أبى طالب .

وقد بادر علي بإشعال الموقف وتفجيره بصورة حادة حينما أصدر قراره الإدارى بعزل ولاة عثمان وبخاصة من الأمويين، إرضاء للثوار الذين نقموا عليهم سياستهم وطالبوا عثمان بعزلهم، وكان علي نفسه يرى ضرورة إقصائهم عن مناصبهم حتى تسكن الجماهير، فلما ولى الخلافة وضع رأيه موضع التنفيذ حتى يستطيع اعتماداً على إدارة جديدة أن يزيل أسباب الشكوى، ويعيد الأمن والاستقرار ويرد المظالم ويقيم العدل فى الأمصار التى ادعى أهلها أن عثمان أطلق الحرية لولاته فى التصرف فيهم كيف يشاءون ، فبغوا وطغوا وعسفوا بالرعية وأرهقوا المواطنين. وبالرغم من أن كثيراً من الولاة قد استجاب لأوامر السلطة العليا في

الدولة، فقد رفض معاوية الإذعان والخضوع وأصر على البقاء فى منصبه واعتصم بالشام معتمداً على أحقيته فى المطالبة بدم الخليفة الشهيد، وأن تحقيق هذا المطلب يتقدم كل اعتبار آخر ويسبق أى أمر سواه . وبدأت رحلة الصراع السياسى والعسكرى بين الخليفة الذى رأى أنه - بحكم منصبه - الذى يقرر الأولويات، ويدير شئون الدولة بما يراه محققا لمصالحها العليا، وبين الوالى الطموح الذى يتشبث بالبقاء فى منصبه، متعللا بأنه ولي الخليفة عثمان والمطالب الشرعي بالقصاص له . وكان مما قوى موقف معاوية أن الثوار الذين تولى بعضهم قتل عثمان قد انضموا إلى جيش علي حينما بويع بالخلافة ، وبذلك أعطى الفرصة لذوى الأغراض الخاصة باتهامه بالرضا بمقتل عثمان، مع أنه أنكره صراحة ولعن قتلته ؛ أو باتهامه أنه آوى قتلته وبسط عليهم حمايته ومنع أولياءه من الوصول إليهم والقصاص منهم، وبذلك ظهر علي فى صورة من كان يعمل للوصول إلى الخلافة بأية وسيلة . وقد استغل الأمويون ومعاوية بصفة خاصة هذه النقطة الحرجة وأخذوا يلحون عليها بإصرار عجيب.

وقد حاول بعض الساسة من ذوى النزعة العملية أن يقنعوا عليا بضرورة التخلى - مؤقتاً - عن إمضاء هذا القرار، فالأمور مضطربة وتحتاج إلى فترة انتقالية تعود فيها النفوس إلى شئ من الهدوء والسكينة وتهدأ الثورة المشتعلة، فتقدم المغيرة ابن شعبة إلى علي وقال له : « إن أردت أن يستقيم لك الأمر فاستعمل طلحة على الكوفة والزبير على البصرة، وابعث إلى معاوية بعهده إلى الشام حتى تلزمه طاعتك، فإذا استقرت لك الخلافة فادرأهم - أى ابعدهم واعزلهم - كيف شئت برأيك » ؛ ولكن عليا أصر على رأيه، ولم يلجأ إلى الحيلة والمناورة وإنما كان صريحا يرى العقبة فلا يدور حولها وإنما يقتحمها حتى يتغلب عليها ، ورفض رأى المغيرة قائلاً : «لايرانى الله مستعملاً له - لمعاوية - ولا مستعيناً به مادام على حاله ، ولكن أدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه الناس فإن أبى حاكمته إلى الله تعالى » . وقد بين عبد الله بن عباس لعلي ما يجره على نفسه من أخطار بإصراره على عزل الأمويين من الإدارة قائلاً له أن : « معاوية وأصحابه أهل دنيا فمتى ثبتهم لايبالون من ولى هذا الأمر، ومتى تعزلهم يقولون أخذ هذا الأمر بغير شورى، وهو قتل صاحبنا ويؤلبوا عليك ،

فينتفض عليك أهل الشام وأهل العراق » ، ثم تعهد له بأن يزيل الأمويين من طريقه إذا هو استجاب لنصيحته؛ بيد أن عليا لم يستجب لابن عباس أيضاً .

وكان علي يمكن أن يدرك ضرورة تأجيل موقفه من عزل ولاة الأمويين، وذلك أنه عندما أرسل عماله إلى الكوفة ودمشق صدوا عن دخول هاتين المدينتين، مما اضطرهم للرجوع إلى المدينة . غير أن عليا ظل عند رأيه وأرسل كتبه وسفراءه إلى أبى موسى الأشعرى بالكوفة وإلى معاوية بدمشق يدعوهما إلى الطاعة والاعتراف ببيعته وتنفيذ أوامره . وإذا كان أبو موسى قد استجاب بعد محاورات سياسية طويلة ، فإن معاوية لم يرد على كتاب علي إلا بعد ثلاثة أشهر وبطريقة مثيرة، فقد أمر رسوله بأن يدفع إلى علي كتابا مختوماً ثم لقنه مايقوله عند مايسأله عن رأى معاوية. وعندما فض علي الكتاب لم يجد فيه شيئاً ، فلما سأل الرسول : ماوراءك ؟ قال : تركت قوما لايرضون إلا بالقود، فقال علي: ممن؟، قال الرسول: من خبط رقبتك . وهكذا أوضح معاوية لجماهير المسلمين فى المدينة سبب موقفه من علي والشعار الذى يعمل تحت لوائه وهو: الأخذ بالثأر من قتلة عثمان، وأنه لن يتهاون أو يفرط فيه وإن بلغ القصاص من الخليفة علي نفسه ، ووجد علي نفسه أمام موقف يتطلب حسما فأظهر العزم على قتال معاوية ، وكتب إلى عماله أن يندبوا الناس إلى الشام. وهكذا باتت الحرب وشيكة الوقوع بين الخليفة وبين واليه الذى يرفض الإذعان، وبدا أن عليا يبغى تصفية هذا الموقف بالقوة لأنه يؤدى إلى تفريق الكلمة وتمزيق وحدة الأمة ، وأخذ يعد العدة ويجهز القوة للتخلص بسرعة من هذا الوالى الخطير .

ولكن الأحداث جرت فى طريق آخر لم يكن علي يتوقعه أو يظن أنه سيبدأ به. وذلك أن طلحة والزبير كان لهما موقف من مقتل عثمان يتشابه مع موقف معاوية فى المطالبة بثأر الخليفة الشهيد، وقالا لعلي إنا قد اشترطنا إقامة الحدود، وأن هؤلاء القوم – أى الثوار – شاركوا فى قتل هذا الرجل ، وكأنهما كانا يبحثان عن عذر يتخذانه وسيلة للتحلل من بيعتهما لعلي؛ بالإضافة إلى ادعائهما فيما بعد بأنهما بايعاه مكرهين تحت تهديد السلاح. وبالرغم من أن عليا قد حلل الموقف فى هذه اللحظات

المضطربة تحليلاً ينم عن فهم سياسى عميق لدوافع الثوار ولاتجاهات طلحة والزبير أيضاً ، فقد أصر طلحة والزبير على موقفهما واستأذنا عليا فى الخروج إلى مكة فأذن لهما.

وفى مكة التفت حول طلحة والزبير مجموعة الغاضبين على سياسة علي، كما انضمت إليهما السيدةعائشة – أم المؤمنين رضى الله عنها – التى هزتها فجيعة مقتل عثمان ، فأثارت جماهير المسلمين الأتقياء على ضرورة الأخذ بثأره. ووجد الأمويون الفرصة المتاحة فانضموا لهذه الحركة الثائرة، وكانوا قد هربوا من المدينة إلى مكة بعد مقتل عثمان، فاجتمع هناك سعيد بن العاص والوليد بن عقبة وعبد الله بن عامر ومعه أموال كثيرة من البصرة. ومن ثم بدأت من مكة حركة المقاومة لسياسة علي وحمله على التعجيل بالقصاص من قتلة عثمان، واستقر رأى هذه الجماعة على قصد البصرة حتى يكثر جمعهم، « فإن أصلح الله الأمر كان الذى أردنا وإلا دافعنا عن هذا الأمر بجهدنا حتى يقضى الله ما أراد » ، وخرجوا من مكة فى جيش قوامه ثلاثة آلاف تحت شعار إعزاز الإسلام والطلب بثأر عثمان .

وهنا تجدر الإشارة إلى أن السيدة عائشة لم تحركها أهداف شخصية ضد علي – كما يقال ظلما وافتراء – وإنما كانت تعتبر نفسها مسئولة عن تمثيل ضمير الأمة، والوقوف بحزم ضد أية تجاوزات تهدد القيم والمبادئ الإسلامية الراسخة، فقررت ألا تتردد فى أن تستصرخ المسلمين فى كل مكان للوقوف – ولو بالقوة – ضد الخارجين أو المتهاونين ، فهى تقول لأهل البصرة خرجت فى المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء الثائرون، وما فيه الناس وراءنا، وما ينبغى لهم أن يأتوا فى إصلاح هذه القضية وقرأت قوله تعالى : « لاخير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس » ، ثم قالت : « هذا شأننا، خرجنا إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه ، ومنكر ننهاكم عنه، ونحثكم على تغييره» . أما موقف طلحة والزبير من علي فهو الذى يحتاج إلى بيان وتوضيح، فتذهب بعض الآراء إلى القول بأنهما كانا يتطلعان إلى الخلافة، فلما قتل عثمان ووجدا أن هوى الثوار فى علي لم يغالبا التيار، ولكن ظلت الرغبة كامنة فى نفسيهما، ولعل فى إشارة المغيرة بن شعبة إلى علي–

التى سبق ذكرها - بأن يسترضيهما فيولى طلحة والزبير على البصرة والكوفة دليل على ذلك ، ولما لم يستجب علي إلى إسناد الولاية لهما حاولا أن يتنصلا من بيعته، وادعى كل منهما أنه بايع مكرها، مع زعمه بأن عليا لم يكن يرضى أن يبايع أياً منها بالخلافة إن أظهر رغبته فيها ، ويسوق أصحاب هذا الرأى أدلة أخرى إلى ماسبق كخروج طلحة والزبير إلى مكة وانضمامهما فيها للثوار من بنى أمية والسيدة عائشة ، وإعلان الزبير صراحة لعلي بأنه «لايراه أهلاً لهذا الأمر - الخلافة - ولا أولى به منا» .

ولكن هذا الرأى مع حشده كل هذه الأدلة يبدو بعيدا عن جادة الصواب، ولم يسبر الغرض الحقيقى لمعارضة طلحة والزبير لعلي، فلو أنهما كانا طامعين فى الخلافة حقاً لبادر كل منهما إلى إجابة الثوار عندما عرضوها عليه، وكان الثوار حينئذ على استعداد للدفاع عنه والوقوف بجانبه كما وقفوا بجانب علي، وانضموا فى صفوف جيشه بعد قبوله الخلافة ومبايعته بها، ولكنهما كانا يعملان - كالسيدة عائشة - على ضرورة احترام الحرمات الإسلامية وعدم تعريضها للاعتداء أو التهديد، وكانا يريان - بحق - سرعة وضع الأمور فى نصابها وإنزال العقوبة بأولئك القتلة الذين انتهكوا حرمة الدم دون أن ينالوا جزاءهم الفورى الرادع . ويحلل ابن خلدون موقفهما وموقف كثير ممن اشتركوا فى حرب الجمل ضد علي بأنهم كانوا مجتهدين فى عدم انعقاد البيعة لعلي إلا لمن بايعه، لأن أهل الحل والعقد من كبار الصحابة كانوا متفرقين فى الأمصار، فحينئذ يكون من حق من لم يبايع أن يطالب أولا بدم الخليفة المقتول ثم يجتمعون فيما بعد على إمام . ومن ثم فإنه عندما تمسك علي بموقفه فى ضرورة الإصلاح الإدارى أولاً خرج أولئك المعارضون إلى البصرة حتى يكونوا جبهة يتمكنون بها من تحقيق الهدف الذى يؤمنون به، وهو ضرورة البدء بالقصاص لعثمان، ثم ليفعل الخليفة الجديد - بعد ذلك - ما يشاء من إصلاحات .

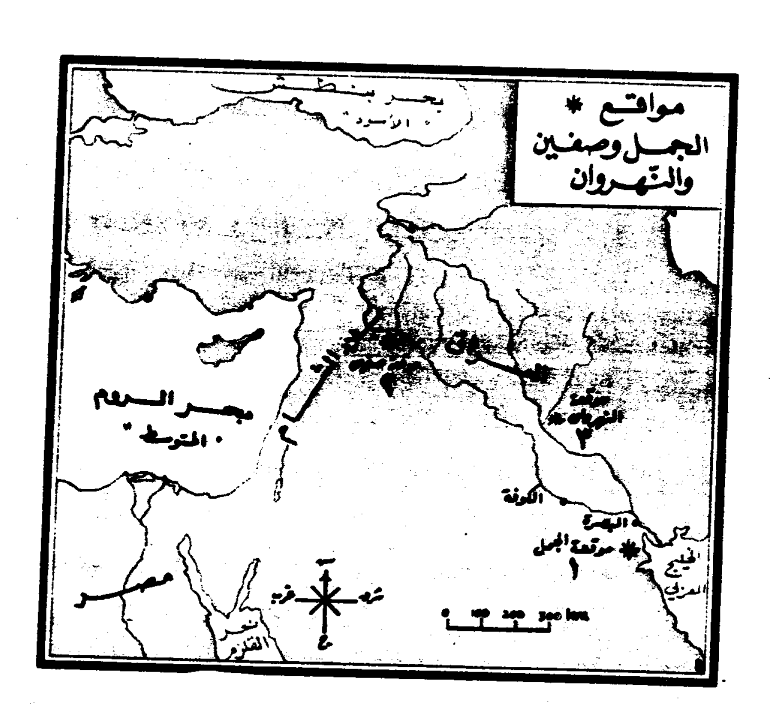
أما موقف الأمويين فلايحتاج إلى مناقشة أو تعليق ، فهو محاولة جديدة للاستفادة من الأحداث فى سبيل الوصول إلى غايتهم أى الاستئثار بالخلافة ؛ فقد سأل سعيد بن العاص طلحة والزبير عمن يؤول إليه أمر الخلافة إذا تحقق لهما النصر

على علي فقالا : نجعله لأحدنا ، أينا اختاره الناس، وعندئذ تنكر لهما ورجع إلى مكة وتبعه كثير من الأمويين وحلفائهم ، وكشف عن هدفه الذى يسعى إليه وهو أن تظل الخلافة فى بنى عبد مناف، ومعلوم أنه يقصد بنى أمية من بنى عبد مناف قاطبة .

ولم يجد علي بداً من أن يغير اتجاهه ويتحول بنظره من الشام إلى البصرة ، بعد أن فاته جيش عائشة وأصبح على مشارف البصرة، وهناك تمكن من جذب الكوفيين إليه فانضموا إليه وصاروا من أتباعه، وبعد محاورات طويلة بين علي وخصومه السياسيين من أصحاب الجمل – عائشة وطلحة والزبير – كاد الوئام يتم بينهما، حتى أن عليا نادى فى جيشه إنى راحل غداً فارتحلوا وتبرأ من قتلة عثمان، وأمرهم بعدم المسير معه والاختلاط بجنده فقال : « ولايرتحلن معنا أحد أعان على عثمان بشئ من أمور الناس » ، ولكن هذه النتيجة لم تكن ترضى هؤلاء الذين أثاروا الفتنة وقتلوا الخليفة ، وتبينوا فيها نهايتهم المحتومة ، فاستقر رأيهم على الأخذ برأى عبد الله بن سبأ الذى حضهم على : « أنه إذا التقى الناس غداً فانشبوا القتال ، ولاتفرغوهم للنظر » . وهكذا عندما أوشك الطرفان على إبرام الصلح خرج هؤلاء متسللين من معسكر علي وقصدوا جيش عائشة، وفاجأوا الجنود بالقتال ففزع هؤلاء وظنوا أن الأمر كان مكيدة من علي، فردوا عليهم بالمثل. وبذلك اشتعلت الحرب بين الطرفين فى العاشر من جمادى الآخرة عام ٣٦هـ وهى الحرب المشهورة بحرب الجمل.

وقد أسفرت حرب الجمل عن انتصار علي، وربما كانت هذه أول معركة داخلية بين المسلمين بعضهم وبعض، وعلى أثرها دخل علي البصرة وبايعه أهلها؛ ولكنه لم يستطع البقاء فيها إلا ريثما جهز السيدة عائشة للرجوع إلى المدينة إذ اضطر للخروج فى إثر جماعة عبد الله بن سبأ ليحول بينهم وبين دخول الكوفة ويمنعهم من إثارة الفتنة بها .

وبدا لعلى أن الأمر لم يعد يحتمل تأخير، وأنه لابد من حمل معاوية على الخضوع، فأرسل إليه يطلب بيعته، ولكن معاوية أصر على موقفه، وكان عمرو بن


مواقع *
الجمل وصفين
والنهروان
بحر بنطش
الأسود
بحر الروم
المتوسط
الكوفة
البصرة
* موقعة الجمل
١
٢
٣
الخليج
العربي
مصر
بحر
القلزم
شرق
غرب
ج
0 100 200 300 km

العاص قد انضم إلى جبهته وكونا معا حزبا معارضاً لعلي. ولم يهدر معاوية وقته هباء أثناء انشغال علي بحرب الجمل، بل كان يعمل بجد فى تأليف قلوب الشاميين حوله والتأكد من إخلاصهم له، ومن ثم لم ينضم إلى جانب الثوار بالبصرة بل تركهم يقتتلون حتى يفوز هو فى النهاية بالقضاء السهل على المنتصر منهما، لأنه – بلاشك – سيخرج منهوك القوى ، وكان يقدر منذ البداية أن عليا هو الذى سترجح كفته فأدخر قوته ليتمكن من مواجهته وقد تحققت له هذه الفائدة فعلاً ، فقد انتصر على خصمه وقتل زعيماه طلحة والزبير لكن بعد أن فقد كثيرا من رجاله. كما تمكن معاوية فى هذه الفترة أيضاً من تأمين جبهة البيزنطيين بالشام حيث عقد معهم صلحاً يدفع لهم بمقتضاه سنوياً مبلغاً محدداً من المال ، وبذلك تفرغ تماماً للقاء علي وخوض الصراع ضده مهما كانت النتائج .

ومن ثم فإن عليا عندما خرج بجيشه يقصد الشام ونزل سهل صفين – بالقرب من مدينة الرقة على نهر الفرات – وجد معاوية يعسكر بجيشه هو الآخر هناك . ودارت بين الفريقين مراسلات لم تجد شيئا وأصر كل منهما على رأيه، وباتت الحرب وشيكة الوقوع ، ولم تلبث أن انفجرت فى أول صفر عام ٣٧هـ ، وظلت سجالا بين الطرفين بضعة أيام حتى أعلن علي التعبئة العامة وأمر بالزحف العام، وحمل على الشاميين فأزالهم عن أماكنهم بعد قتال مرير ، وكاد النصر يتم له لولا أن طلع عمرو بن العاص بتلك الخدعة الشهيرة فى التاريخ الإسلامى، وهى رفع المصاحف على أسنة الرماح ، وأخذ جند الشام يصيحون طالبين التحكيم إلى كتاب الله، ونجح عمرو بهذه الوسيلة فى إشاعة الفرقة والاختلاف بين صفوف جيش علي، مما أعطى الفرصة لجيش معاوية لاسترداد أنفاسه وتنظيم صفوفه والاستعداد للقتال من جديد . ومع أن عليا أدرك بسرعة أبعاد هذه الخدعة وحذر أتباعه من الوقوع فى براثنها، إلا أنهم اختلفوا عليه فشايعه فريق وعصاه آخرون وهددوه قائلين : « ياعلي أجب كتاب الله إذ دعيت إليه، وإلا دفعناك برمتك إلى القوم ، أو نفعل بك مافعلناه بابن عفان » .

وهكذا وقع الفشل والتخاذل فى جيش علي، وانقسم على نفسه وكل فريق يلقى

على الآخر مسئولية تردى الأوضاع، غير أنهم أجمعوا فى النهاية – دون اعتبار لرأى الخليفة – على اختيار أبى موسى الأشعرى حكما يمثل عليا بينما اختار معاوية عمرا ممثلا له . وكتبت وثيقة التحكيم ونص فيها على مكان وزمان انعقاد مؤتمر التحكيم فى دومة الجندل خلال شهر رمضان من نفس عام ٣٧ هـ .

وليس المهم الآن الخوض فى تفاصيل قضية التحكيم ، وإنما المهم النتيجة التى أسفرت عنها وهى اتفاق الحكمين على خلع علي ومعاوية وإرجاع الأمر للمسلمين كى يختاروا من يرغبون للخلافة، غير أن عمراً حين إعلان النتيجة لم يلتزم بما اتفق عليه وإنما عقب على خلع علي بتثبيت معاوية فى الحكم . وبذلك كانت قضية التحكيم من أولها إلى آخرها ضد علي وفى صالح معاوية ، إذ اكتسب معاوية بهذا القرار قوة على قوة ، وازداد علي ضعفاً على ضعف باستفحال أمر الخلاف بين جماعته ، فقد دخلها معاوية وهو وال عاص لأوامر الخليفة وخرج منها واليا شرعياً ، بينما دخلها علي وهو خليفة المسلمين وخرج منها وهو يفقد هذه الصفة وتلك الأهلية ، ومما زاد فى ضعف موقفه أنه تفرغ أو كاد لقتال فئة الخوارج الذين انشقوا عليه وأنكروا أن يحكم الناس فى أوامر الله وقالوا : لاحكم إلا لله ، واشتبك معهم فى معارك طاحنة بالعراق والأهواز وفارس طيلة السنوات الثلاث الأخيرة من خلافته، وترك لمعاوية فرصة ثمينة ليعمل على كسب قضيته فى سهولة ويسر .

وبدأ معاوية يعمل على اكتساب مواقع جديدة ينتزعها من ولاة علي فيزداد بها قوة، ويزداد موقف علي بفقدها ضعفا ، فقد أرسل بعض القوات للإغارة الخاطفة على مدن العراق الشمالية، وبعض بلاد الجزيرة العربية فى الحجاز؛ ثم ركز بشدة على انضمام مصر إليه والتغلب على أنصار علي بها، وذلك بغية تحقيق هدفين فى وقت واحد، أن يفى أولاً لحليفة عمرو بما اتفق عليه من أن تكون مصر « طعمة » له بعد تحقيق النصر على علي، ثم يؤمن ظهره – ثانيا – من الوقوع بين قوات علي فى العراق وأنصاره فى مصر إذا ما اضطر للدخول فى صراع حربى مرة أخرى مع علي، ولذلك فقد انتهز معاوية فرصة هدنة التحكيم ( صفر – رمضان ٣٧ هـ ) فتوجه على رأس جيشه إلى مصر وتمكن من الاستيلاء عليها ، والقبض على واليها

من قبل علي وهو محمد بن أبى حذيفة ، وفى أثناء رجوعه إلى الشام تخلص منه ولم يدع أحداً من ولاة علي يصل إلى مصر أو يستقر بها ، فقد قتل الأشتر بمدينة السويس، ودبر المكائد لقيس بن سعد بن عبادة حتى عزله علي ، ولم يصمد محمد ابن أبى بكر أمام جيش الأمويين بقيادة عمرو بن العاص بل انهارت مقاومته وقضى عليه، وبذلك خلصت مصر لمعاوية وكانت أول ولاية تبايعه – بعد الشام – قبل أن ينتهى عصر الراشدين بمقتل علي .

وعندما أوشك علي أن يتخلص من مناوأة الخوارج، ليتفرغ لقتال معاوية لم يبلغ هدفه إذ عاجلته المؤامرة الخارجية، وطعنه عبد الرحمن بن ملجم فى فجر السابع عشر من رمضان عام ٤٠هـ . وهو يوقظ الناس لصلاة الفجر، وأدرك معاوية أنه بات قريباً من تحقيق غايته، وبدأ يتخذ الخطوات الدستورية لتولى الخلافة ، فبايعه أهل الشام فى بيت المقدس فى ذى الحجة من نفس العام، ولم يبق أمامه لكى ينفرد بالخلافة إلا الحسن بن على فى الكوفة التى بايعه أهلها بالخلافة بعد استشهاد أبيه .

ولكن الحسن وجد أن استمرار النزاع بينه وبين معاوية لن يؤدى إلا لمزيد من سفك الدماء وتفرق كلمة الأمة ، مع عدم ثقته التامة فى ولاء الكوفيين أو ثباتهم على رأى حتى النهاية ومن ثم آثر الصلح، وأعلن تنازله عن الخلافة، وسلم الأمر لمعاوية بعد أن أخذ عليه العهود والمواثيق أن يصدر عفواً عاماً عمن اشترك فى القتال مع علي ، وأن يتخلي عن سبه ، كما يتنازل عن أموال الكوفة، وأن يكون الحسن ولى عهد معاوية يتولى الخلافة بعده، فأجابه معاوية إلى كل ماطلبه «وكاد يطير فرحا» إذ لم يكن يتصور أن الأمور تسير بهذه السرعة وعلي هذا النحو دون إراقة الدماء، ولذلك يقال أنه أرسل إلى الحسن عندما دار بينهما حديث الصلح كتاباً مختوما ليضع فيه من الشروط ما يشاء . وبعد تنازل الحسن دخل معاوية الكوفة وتمت له البيعة العامة فيها بخلافة المسلمين فى ربيع الأول عام ٤١هـ ، وهو العام الذى اشتهر فى التاريخ الإسلامى بعام الجماعة ، لأن الأمة اجتمعت فيه على البيعة لمعاوية وأصبح للمسلمين خليفة واحد يتولى شئونهم ويرعى مصالحهم .

وهكذا استطاع معاوية بسياسته العملية، وتقديره الواقعى للأمور وإحكامه القبضة على أتباعه من الشاميين أن يصل إلى الخلافة ، ويضع الأسس الأولى لقيام الخلافة الأموية ، التى بدأت تمارس دورها الفعلى فى التاريخ الإسلامى منذ بيعة معاوية فى العام المذكور .

# أهم المصادر والمراجع

## أولاً: المصـــادر:

- القرآن الكريم .
- السنة النبوية الشريفة .
- ابن الأثير (٦٣٠ هـ) : الكامل فى التاريخ ، الجزءان الأول والثانى ، ط ٣ ، دار الكتاب بيروت ١٩٦٨ م .
- البلاذرى (ت ٢٧٩ هـ) : (أ) فتوح البلدان ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت ١٩٨٧ م .

  (ب) أنساب الأشراف، الجزء الأول، تحقيق محمد حميد الله، القاهرة ١٩٥٩م.
- الدينورى (ت ٢٨٢ هـ) : الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦١م .
- الذهبى (ت ٧٤٨ هـ) : السيرة النبوية، تحقيق حسام الدين القدسى، ط ٢ ، دار الكتب العلمية ، لبنان ١٩٨٨ م .
- ابن سعد (ت ٢٣٠هـ) : الطبقات الكبري ، بيروت ١٩٥٣ م.
- السيوطى (ت ٩١١ هـ) : تاريخ الخلفاء ، ط ٤ ، المكتبة التجارية الكبري ، مصر ١٩٦٩ م .
- ابن طباطبا (ت ٧٠٩ هـ) : الفخرى فى الآداب السلطانية ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٠ م .
- الطبرى (ت ٣١٠ هـ) : تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف، الجزءان الأول والثانى ١٩٦٨ م، الجزء الثالث ١٩٦١ م.
- ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧ هـ) : فتوح مصر وإفريقية والأندلس ، تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦١ م .
- ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) : السيرة النبوية ، تحقيق مصطفي عبد الواحد ، القاهرة ١٩٦٤ م .

- الكلبى (٢٠٤ هـ) : كتاب الأصنام ، تحقيق أحمد زكى، دار الكتب المصرية ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٤ م .
- ابن هشام (ت ٢١٣ أو ٢١٨ هـ) : السيرة النبوية ، تحقيق مصطفي السقا وآخرون، أربعة أجزاء ، دار ابن كثير ، بدون .
- الهمدانى (الحسن - أحمد) (ت ٣٣٤ هـ) صفة جزيرة العرب، الرياض ١٩٧٤ م.
- الهمذانى (أبو بكر أحمد) : مختصر كتاب البلدان ، ليدن ١٨٨٥ م .
- الواقدى (ت ٢٠٧ هـ) : (أ)كتاب المغازى، ثلاثة أجزاء ، القاهرة ١٩٦٧م.
(ب) فتوح الشام، جزءان، ط ٤ القاهرة ١٩٦٦م.
- اليعقوبى (ت ٢٨٢ هـ) : تاريخ اليعقوبى ، دار صادر ، بيروت ١٩٩٢ م .

## ثانيا: *المراجع العربية والمعربة* :

- إبراهيم أحمد العدوى : (أ) الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، القاهرة ١٩٥٨ م.
(ب) التاريخ الإسلامى، الأنجلو المصرية ١٩٧٦م.
- إبراهيم على شعوط وآخر : عصر الفتوحات الإسلامية، القاهرة ١٩٦٦ م .
- اتيين دينيه وسليمان بن إبراهيم : محمد رسول الله، ترجمة عبد الحليم محمود، ط ٣، دار المعارف ١٩٨٦ م .
- أحمد إبراهيم الشريف : (أ) الدولة الإسلامية الأولي، دار القلم، القاهرة ١٩٦٥ م.
(ب) مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول، القاهرة ١٩٦٧ م .
(جـ) دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة فى القرنين الأول والثانى للهجرة، القاهرة ١٩٦٨م.

- أحمد أبو الفضل عوض الله ، دراسات فى العصر الجاهلى، المجلس الأعلي للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية والسياسية، ١٩٦٩ م.

- أحمد أمين : فجر الإسلام ، ط ١١ ، دار الكتاب العربى ، بيروت ١٩٧٩ م.

- أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ، جـ ١ ، القاهرة ١٩٨١ م .

- أحمد التاجى : سيرة النبى العربى ، مكتبة مصطفي الحلبى ١٩٧٨ م.

- أحمد الشامى : (أ) فى تاريخ العرب والإسلام، سجل العرب ، القاهرة ١٩٧٨ م .

(ب) الخلفاء الراشدون ، النهضة العربية ، القاهرة ١٩٨٢م.

- أحمد فؤاد سعيد : تاريخ الدعوة الإسلامية ، ط ٢، مكتبة الدعوة، القاهرة ١٩٩٧ م.

- إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب، مطبعة الاعتماد ، مصر ١٩٢٧ م.

- أكرم ضياء العمرى : السيرة النبوية الصحيحة، جزءان، الرياض ١٩٩٥ م .

- أمين مدنى : التاريخ العربى وبدايته، دار المعارف ، مصر ١٩٦٥ م.

- بركات أحمد : محمد واليهود نظرة جديدة، ترجمة محمود على مراد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦ م .

- بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلي العربية نبيه فارس وآخر، ط٥، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٥ م.

- تيودور نولدكه : أمراء غسان ، ترجمة بندلى خورى وآخر، بيروت ١٩٣٣م.

- جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، تسعة أجزاء ، ط ٣ ، بيروت - بغداد ١٩٨٠ م .

- جورجى زيدان : العرب قبل الإسلام ، مراجعة وتعليق حسين مؤنس، دار الهلال، القاهرة ، بدون .

- حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، الجزء الأول ، ط ٧ ، النهضة المصرية ١٩٦٤ م .
- حسين مؤنس : دراسات فى السيرة النبوية، ط ٣، الزهراء للاعلام العربى ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
- درمنجهام ، حياة محمد ، نقله إلى العربية عادل زعيتر، القاهرة ١٩٤٥م.
- سعد زغلول عبد الحميد : فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، بيروت ١٩٧٥ م.
- السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية ، النهضة العربية ، بيروت ، بدون.
- شكرى فيصل : (أ) حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول ، القاهرة ١٩٥٢م.

(ب) المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول، ط ٣، بيروت ١٩٧٣ م.
- شوقى ضيف : العصر الجاهلى ، القاهرة ١٩٦٠ م .
- صالح أحمد العلى : محاضرات فى تاريخ العرب، الجزء الأول ، بغداد ١٩٥٩ م .
- صالح موسي درادكة : العلاقات العربية اليهودية فى نهاية عهد الخلفاء الراشدين، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان ١٩٩٢ م .
- طه حسين : (أ) الفتنة الكبري ، ط ٩ ، دار المعارف ١٩٧٦ م .

(ب) على هامش السيرة ، القاهرة ١٩٣٥ م .
- عبد الحميد العبادى : صور وبحوث من التاريخ الإسلامى، ط ٣ ، الأنجلو المصرية ١٩٩٣ م .
- عبد الفتاح على شحاته : دراسات فى تاريخ العرب وصدر الإسلام ، القاهرة ١٩٧٢ م .
- عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٧٩ م .

- علي حبيبة : عصر الرسالة ، مكتبة الشباب ١٩٧٨ م.
- علي حسني الخربوطلي : الدولة العربية الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٠ م .
- علي يوسف السبكي : نظام الحكم والإدارة في العهد النبوي والخلافة الراشدة ، ط ١ ، مكتبة سعيد رأفت ، القاهرة ١٩٨٤ م .
- عمر فروخ : (أ) تاريخ الجاهلية ، بيروت ١٩٦٤ م .
  (ب) العرب والإسلام منذ الجاهلية إلي سقوط الدولة الأموية ، ط ٢ ، بيروت ١٩٦٦ م .
- فتحية النبراوي وآخر : الخلفاء الراشدون ، القاهرة ١٩٧٩ م .
- فيليب حتي : تاريخ العرب ، ترجمة محمد مبروك نافع، المجلد الأول، ط ٣، القاهرة ١٩٥٣ م .
- كلود كاهن : تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، نقله إلي العربية بدر الدين القاسم ، ط ٣ ، بيروت ١٩٨٣ م.
- لطفي عبد الوهاب يحي : العرب في العصور القديمة ، ط ٢ ، النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٩ م .
- محمد أبو الفضل إبراهيم وآخر : (أ) أيام العرب في الجاهلية ، القاهرة ١٩٤٨ م .
  (ب) أيام العرب في الإسلام ، ط ٣ ، القاهرة - بيروت ١٩٦٨ م .
- محمد أحمد محمود حسب الله وآخر : السيرة النبوية ، القاهرة ١٩٨١ م .
- محمد أسعد طلاس : (أ) تاريخ الأمة العربية (عصر الانبثاق)، بيروت ١٩٥٧م .
  (ب) تاريخ الأمة العربية (عصر الانطلاق) ، منشورات مكتبة الأندلس ، بيروت، بدون.
- محمد بيومي مهران : (أ) السيرة النبوية الشريفة ، الجزءان الأول والثاني ، النهضة العربية ١٩٩٠ م .

(ب) دراسات فى تاريخ العرب القديم ، جامعة الإمام محمد بن سعود ١٩٧٧ م .

– محمد جمال الدين سرور : (أ) قيام الدولة العربية الإسلامية فى حياة محمد ﷺ ، القاهرة ١٩٥٦ م .

(ب) الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية خلال القرنين الأول والثانى بعد الهجرة ، القاهرة ١٩٦٠ م .

– محمد حسين هيكل : حياة محمد ، ط ٩ ، النهضة المصرية ١٩٦٥ م .

– محمد رضا : محمد رسول الله ﷺ ، القاهرة ١٣٥٣ هـ/ ١٩٤٣ م ..

– محمد عزة دروزه : سيرة الرسول ، ط ٢ ، مطبعة عيسي الحلبى ، مصر ١٩٦٥ م .

– محمد فرج : الفتح العربى للعراق وفارس ، القاهرة ١٩٦٦ م .

– محمد نعمان الجارم : أديان العرب فى الجاهلية ، القاهرة ١٩٤٢ م .

– محمود شيت خطاب : قادة العراق والجزيرة ، دار القلم ١٩٦٤ م .

– محمود عرفة محمود : العرب قبل الإسلام ، مؤسسة الأهرام ١٩٩٨ م .

– مصطفي طلاس : الرسول العربى وفن الحرب ، دار القرآن الكريم ، بيروت ١٩٧٧ م .

– نبيه عاقل : تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، مكتبة أطلس ، دمشق ١٩٦٨ م .

# المحتـــوى

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠٠٣/١٧٢٥٣